٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة هود

إعداد
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر/مصر

الإشراف العام
الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد العاشر

الدرر السنية
www.dorar.net

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة هود)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي
التفسير المحرر - سورة هود - المجلد العاشر/ مؤسسة الدرر السنية -
القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٨هـ
٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٥-٤٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن سورة يونس - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٨/٤٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٤٧٧٣
ردمك: ٥-٤٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net
مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت:٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس:٠١٣٨٦٨٢٨٤٨-بريدإلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة هود)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد العاشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ هُودٍ







سورة هود

أسماءُ السورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (هود)[١]، ولم يُعرَفْ لها اسمٌ سِواه.

فعن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ الله، أَقْرِئْني سورةَ هودٍ، وسورةَ يوسفَ... الحديثَ))[٢].

بيانُ المكيِّ والمدنيِّ:

سورةُ هودٍ مكِّيَّةٌ[٣]، وحُكيِ الإجماعُ على ذلك[٤].

مقاصدُ السورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصدِ سورةِ هودٍ:

---

(١) سُمِّيتْ هذه السورةُ باسمِ نبيِّ الله هودٍ عليه السَّلامُ؛ لتكَرُّرِ اسمِه فيها خمسَ مرَّاتٍ، ولأنَّ ما حُكِيَ عنه فيها أطولُ مما حُكِيَ عنه في غيرِها، ولأنَّ عادًا وُصِفوا فيها بأنَّهم قومُ هودٍ في قولِه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، وأيضًا لتَمييزِها مِن بينِ السُّوَرِ ذواتِ الافتتاحِ بـ(الر). يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١١).

(٢) أخرجه النَّسائيُّ (٩٥٣) وأحمد (١٧٤١٨) وابنُ حِبَّان (١٨٤٢) والحاكِمُ (٣٩٨٨).
صحَّح إسنادَه الحاكمُ (٣٩٨٨)، وجوَّد إسنادَه ابنُ مفلحٍ في ((الآداب الشرعية)) (٣/ ٢٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٥٤٥٤).

(٣) وقيل: مكيةٌ إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ...﴾ إلى آخرِ الآية؛ فإنَّها مدنيةٌ. وقيل: مكيةٌ إلا الآياتِ (١٢) و (١٧) و(١١٤) فمدنيةٌ.
يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٨).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي، والبقاعيُّ، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٤٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٣).

تثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَسلِيتُه[(١)].

موضوعاتُ السورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتملَتْ عليها سورةُ هودٍ:

١- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ، وإقامةُ الأدلَّةِ على أنَّه مِن عندِ اللَّهِ.

٢- بيانُ أنَّ اللَّهَ سُبحانَه مُطَّلِعٌ على سَرائرِ الخَلقِ وضَمائرِهم، وأنَّه ضَمِنَ الأرزاقَ للمَخلوقاتِ.

٣- إثباتُ البَعثِ والجزاءِ.

٤- بيانُ أحوالِ النَّاسِ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ.

٥- تثبيتُ النبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليتُه عمَّا يقولُه المُشرِكونَ وما يَقترِحونَه مِن آياتٍ.

٦- بيانُ حالِ فريقِ الكافرينَ، وفريقِ المؤمنينَ، وضربُ المَثَلِ لهما.

٧- ذِكرُ بَعضِ قَصصِ الأنبياءِ، وتفصيلُ بعضِ أحداثِها، وما جرَى لهم مع أقوامِهم، ومِن ذلك قِصَّةُ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، وإبراهيمَ، ولوطٍ، وشعيبٍ، وموسَى- عليهم صَلَواتُ اللَّهِ وسَلامُه.

٨- الإرشادُ إلى ما يُوجِبُ السَّعادةَ؛ كالاستقامةِ على الدِّينِ، وعَدَمِ الرُّكونِ إلى الظَّالمينَ، وإقامةِ الصَّلاةِ.

٩- بيانُ الفائدةِ مِنَ القَصَصِ، وذكْرِ أنباءِ الرُّسُلِ؛ مِن تثبيتِ قلبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

١٠- خُتِمت السورةُ بالأمرِ بالتوكُّلِ على اللهِ في كلِّ حالٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٣).

الآيات (١-٥)

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ
إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ (٢) وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ
أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ
(٣) إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٤) أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ
مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ (٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُصِّلَتۡ﴾: أي: بُيِّنت، وأصلُ (فصل): يدلُّ على تَمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[1].

﴿لَّدُنۡ﴾: أي: عندَ، أو لدَى، لكن (لدن) أخصُّ مِن (عند)[2].

﴿يَثۡنُونَ﴾: أي: يَطوونَ ويُخفونَ[3].

﴿يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾: أي: يَستَتِرونَ بها، ويُغَطُّونَ رُؤوسَهم، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تَغطيةِ شيءٍ بِشَيءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص:٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨١)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦)، ((الكليات)) للكفوي

المعنَى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ هذه السورةَ العظيمةَ بالحُروفِ المُقطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القُرآنِ، إذ إنَّها تشيرُ إلى الحالةِ التي كان عليها العربُ مِن العجزِ عن مُعارضتِه بالإتيانِ بِشيءٍ مِن مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها، ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ هذا الكتابَ الذي أنزَلَه على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُحكِمَت آياتُه، فلا خَللَ فيها ولا باطِلَ، ثم بُيِّنَت بالأمرِ والنَّهيِ والأخبارِ الصادقةِ مِن عندِ اللهِ، الحكيمِ بتدبيرِ الأمورِ، الخبيرِ بما تؤولُ إليه عواقِبُها، وكان ذلك لأجلِ أن لا تعبُدوا إلَّا اللهَ وَحدَه لا شريكَ له، ثمَّ أمر اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للنَّاسِ: إنَّني لكم نذيرٌ مِن عندِ اللهِ أُنذِرُكم عقابَه، وبشيرٌ أُبشِّرُكم بثوابِه، واسألوه أن يغفِرَ لكم ذنوبَكم، ثمَّ ارجِعوا إليه نادمينَ، يُمَتِّعْكم في دُنياكم متاعًا حسنًا بالحياةِ الطيِّبةِ فيها إلى أن يحينَ أجَلُكم، ويُعطِ كلَّ ذي فضلٍ مِن قولٍ أو عمَلٍ جزاءَ فَضلِه كاملًا لا نقصَ فيه، وإن تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه؛ فإنِّي أخشَى عليكم عذابَ يومٍ شَديدٍ، وهو يومُ القيامةِ، إلى اللهِ رُجوعُكم بعد موتِكم فاحذَروا عقابَه، وهو سُبحانه قادِرٌ على بَعثِكم وحَشرِكم وجَزائِكم، ألا إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ يُضمِرونَ في صدورِهم الكُفرَ؛ ظنًّا منهم أنَّه يخفَى على الله ما تُضمِرُه نفوسُهم، ألا يَعلمونَ حينَ يُغطُّونَ أجسادَهم بثيابِهم أنَّ اللهَ لا يخفى عليه سِرُّهم وعلانيتُهم؟ إنَّه عليمٌ بكُلِّ ما تُكِنُّه صُدورُهم من النيَّاتِ والضَّمائرِ والسَّرائرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾.

(ص: ٩٨٧).

﴿الٓر﴾.

تقدَّمَ الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سورةِ البَقَرةِ[(١)].

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾.

أي: هذا القُرآنُ أتقنَ اللهُ آياتِه فلا خللَ فيها ولا باطِلَ ولا تَناقُضَ، ثمَّ بُيِّنَتْ بالأخبارِ الصَّادقةِ، والأحكامِ العادلةِ مِن أوامِرَ ونواهٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۞ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ [الكهف: ٥٤].

﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

---

(١) يُنظر ما تقدَّم مِن هذا التفسير (١/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٨، ٣١٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢، ٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

أي: أُحكِمَت آياتُ القرآنِ ثمَّ فُصِّلَت من عند حكيم في تدبيرِ الأشياءِ وتقديرِها، فيضعُ كُلَّ شيءٍ في مَوضِعِه اللَّائقِ به، خبيرٍ مُطَّلِعٍ على الظَّواهِرِ والبواطِنِ، وعواقبِ الأمورِ وأحوالِ عبادِه وما يُصلِحُهم(١).

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا تفسيرٌ أو بيانٌ لأوَّلِ ما أُحكِمَت وفُصِّلَت به وله الآياتُ، وهو أن تَجعلوا عبادتَكم له وَحْدَه، لا تُشرِكوا به شيئًا(٢).

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: أُحكِمَت آياتُ القُرآنِ ثم فُصِّلَت؛ لئلَّا تَعبُدوا- أيُّها النَّاسُ- إلَّا اللهَ وَحدَه، ولا تُشركوا به شيئًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٦٨، ١٦٩).

وممَّن اختار المعنى المذكورَ: الزجاج، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (قوله تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الكسائي والفراء: أي: بألَّا، أي أُحكمتْ ثم فُصِّلت بألَّا تعبدوا إلا الله). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٢).

قال النحاسُ: (يجوزُ أن يكونَ المعنى بأن لا تعبدوا إلا الله، ويجوزُ أن يكونَ المعنى لئلَّا تعبدوا، ويجوزُ أن يكونَ المعنى أُمِرتم أن لا تَعْبدوا إلا الله). ((معاني القرآن)) (٣/ ٣٢٨).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ: إنَّني لكم من عندِ اللهِ نذيرٌ؛ أُخَوِّفُكم عقابَه في الدُّنيا والآخرةِ، إن كَفَرتُم به وعَصَيْتُموه، وبشيرٌ؛ أُبَشِّرُكم بثوابِ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، إن آمَنتُم به وأطعتُموه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عطفٌ على جملةِ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وهو تفسيرٌ ثانٍ يَرجِعُ إلى ما في الجُملةِ الأُولَى مِن لفظِ التَّفصيلِ، فهذا ابتداءُ التَّفصيلِ؛ لأنَّه بيانٌ وإرشادٌ لوسائلِ نَبذِ عبادةِ ما عدا اللهَ تعالى، ودلائِلُ على ذلك وأمثالٌ ونُذُرٌ(٢).

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

أي: وأنِ استَغفِروا ربَّكم -أيُّها النَّاسُ- فاطلُبوا منه سَترَ ذُنوبِكم، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بها، ثمَّ توبوا إليه فيما تَستَقبِلونه من أعمارِكم، بالرُّجوعِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٧).

عبادتِه وَحْدَه، وطاعتِه، وتَرْكِ مَعصِيتِه[(١)].

عن الأغرِّ المُزَنيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا أيُّها النَّاسُ توبوا إلى اللهِ؛ فإنِّي أتوبُ في اليومِ إليه مئةَ مَرَّةٍ))[(٢)].

وعن شَدَّادِ بنِ أوسٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سَيِّدُ الاستغفارِ أن تقولَ: اللهمَّ أنت ربِّي لا إلهَ إلَّا أنت، خَلقتَني وأنا عبدُك، وأنا على عَهدِك ووَعدِك ما استطعْتُ، أعوذُ بك مِن شَرِّ ما صنَعتُ، أبوءُ لك بنِعمَتِك عليَّ، وأبوءُ لك بذَنبي، فاغفِرْ لي؛ فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، قال: مَن قالها مِن النَّهارِ مُوقِنًا بها، فمات مِن يَومِه قبل أن يُمسيَ، فهو من أهلِ الجنَّةِ، ومن قالَها من اللَّيلِ وهو موقِنٌ بها، فمات قبل أن يُصبِحَ، فهو من أهلِ الجنَّةِ))[(٣)].

﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

أي: فإنَّكم إن استَغفَرتُم ربَّكم ثمَّ تُبتُم إليه، يُمتِّعْكم في الدُّنيا بسَعةِ الرِّزقِ ورَغَدِ العَيشِ، وحصولِ العافيةِ إلى حُضورِ أجَلِكم[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٠).

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾.

أي: ويُعطِ كلَّ ذي إحسانٍ وبِرٍّ- بقَولِه أو بفِعلِه، أو قُوَّتِه أو مالِه، أو غيرِ ذلك- أجْرَه وثوابَه[1].

كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

قال الشوكاني: (قوله: ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أي: يُعطِ كلَّ ذي فضلٍ في الطَّاعةِ والعَمَلِ فَضلَه: أي: جزاءَ فَضلِه؛ إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخرةِ، أو فيهما جميعًا، والضميرُ في ﴿ فَضْلَهُ ﴾ راجِعٌ إلى كلِّ ذي فَضلٍ، وقيل: راجعٌ إلى اللهِ سبحانه، على معنى: أنَّ الله يعطي كلَّ مَن فَضَلَتْ حَسَناتُه فَضْلَه الذي يتفضَّلُ به على عبادِه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٥٧).

وقال الواحديُّ: (وقال ابنُ عباس، وابنُ مسعودٍ، والكلبيُّ: ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ ﴾ كلَّ مَن فضَلت حسناتُه على سيئاتِه ﴿ فَضْلَهُ ﴾ يعني الجنةَ، وهي فضلُ الله، والكنايةُ في ﴿ فَضْلَهُ ﴾ على هذا تعودُ إلى الله تعالى ذكرُه. وهذا القولُ أحسنُ الأقوالِ وعليه المفسِّرون). ((البسيط)) (١١/ ٣٤٧).

لَمَّا انقضى التَّبشيرُ مجزومًا به، أتبَعه التَّحذيرَ مخوفًا منه؛ لطفًا بالعبادِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

أي: وإن تُعرِضوا عمَّا دَعوتُكم إليه، من إخلاصِ العِبادةِ لله تعالى وَحدَه، والاستغفارِ والتَّوبةِ إليه؛ فإنِّي أخاف عليكم عذابَ يومٍ كَبِيرٍ شأنُه، عظيمٍ هولُه[(٢)].

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا خوَّفَ تعالى المُنذَرينَ باليومِ الكبيرِ، كانوا كأنَّهم قالوا: ما هذا اليومُ؟ فكان الجوابُ: يومَ يُرجعونَ إليه[(٣)].

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَصيرُكم بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم بأعمالِكم، فاحذَروه[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

قال القرطبي: (﴿تَوَلَّوْاْ﴾ يجوزُ أن يكونَ ماضيًا، ويكونَ المعنى: وإنْ تَوَلَّوا فقُلْ لهم: إني أخافُ عليكم. ويجوزُ أن يكونَ مُستقبلًا حُذِفَت منه إحدى التَّاءينِ، والمعنى: قل لهم: إن تتَوَلَّوا فإنِّي أخافُ عليكم). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٩).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قادِرٌ، فلا يُعجِزُه بعثُ عبادِه بعدَ مَوتِهم، ومُجازاتُهم على أعمالِهم(١).

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ يعني: عن عبادتِه وطاعتِه ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾؛ بيَّن بعده أنَّ التَّولِّيَ عن ذلك باطنًا كالتَّولِّي عنه ظاهِرًا(٢).

وأيضًا لَمَّا قال: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن عبادةِ اللهِ وطاعتِه؛ بيَّن بَعده صِفةَ ذلك التولِّي(٣).

وأيضًا فهذا الكلامَ قد نشأ عن قَولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لِمُناسبةِ أنَّ المرجوعَ إليه لَمَّا كان مَوصوفًا بتمام القُدرةِ على كلِّ شَيءٍ، هو أيضًا مَوصوفٌ بإحاطةِ عِلمِه بكُلِّ شَيءٍ؛ للتَّلازُمِ بين تمامِ القُدرةِ وتمامِ العِلمِ(٤).

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢٠).

أي: ألا إنَّ المُشرِكينَ يَعطِفونَ صُدورَهم ويَطوونَها على الشِّركِ والشَّكِّ في الحَقِّ، وعداوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ، يَظنُّونَ -جَهلًا منهم باللهِ- أنَّ ثَنيَ صُدورِهم يَحجُبُ عن علمِ اللهِ ما يُخفونَه فيها[1]!

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

أي: ألا إنَّ اللهَ -حين يتغطَّى المُشرِكونَ بثِيابِهم- يَعلَمُ ما يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه، من الأقوالِ والأفعالِ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن سرائرِ عبادِه وعلانِيَتِهم[2].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفي صدورُ عِبادِه، من العقائدِ والإراداتِ، والأفكارِ والوساوسِ مِن خيرٍ وشَرٍّ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٧، ٣٢٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥).
قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾، في سبب نزولها خمسة أقوال:... والثاني: أنَّها نزلت في ناسٍ كانوا يَسْتحيون أن يُفضوا إلى السماءِ في الخلاءِ ومجامعةِ النساءِ، فنزلتْ فيهم هذه الآيةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٥٧).
وقال ابنُ كثير: (قال ابنُ عبَّاس: كانوا يكرهون أن يَسْتقبِلوا السماءَ بفروجِهم، وحالَ وقاعِهم، فأنزل الله هذه الآيةَ. رواه البخاريُّ [٤٦٨٢] مِن حديثِ ابنِ جريجٍ، عن محمدِ بنِ عبَّاد بن جعفرٍ؛ أنَّ ابنَ عباسٍ قرأ: «أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي [أي: تستترُ] صُدُورُهُمْ»، فقلتُ: يا أبا عباسٍ، ما «تَثْنَوْنِي صُدُورُهمْ؟» قال: الرجلُ كان يجامعُ امرأتَه فيَسْتَحيي، أو يتخلَّى فيَسْتَحيي فنزلَتْ: «ألاَ إنَّهم تَثْنَوْني صدُورُهُمْ». وفي لفظ آخرَ له [٤٦٨١]: قال ابنُ عباسٍ: أناسٌ كانوا يَسْتحيون أن يتخلَّوا، فيُفْضوا إلى السماءِ، وأن يجامعوا نساءَهم فيُفضوا إلى السماءِ، فنزَل ذلك فيهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي))

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ أشارت الآيةُ إلى أنَّ الاستغفارَ والتَّوبةَ سببُ السَّعةِ، وأنَّ الإعراضَ سببُ الضِّيقِ، وقَولُه: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى ثوابِ الآخرةِ، فالتَّوبةُ سببُ طِيبِ العَيشِ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ سمَّى منافِعَ الدُّنيا بالمتاعِ؛ لأجلِ التَّنبيهِ على حَقارتِها وقِلَّتِها، ونبَّهَ على كونِها مُنقَضيةً بقَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ فصارت هذه الآيةُ دالَّةً على كَونِها حقيرةً خَسيسةً مُنقَضيةً[٢]، ووصفُ المتاعِ بالحسَنِ إنَّما هو لِطيبِ عَيشِ المؤمِنِ برَجائِه في اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي ثَوابِه وفرَحِه بالتَّقرُّبِ إليه بِمَفروضاتِه، والسُّرورِ بمَواعيدِه، والكافِرُ ليس في شيءٍ مِن هذا[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ فيه إعلامٌ بتَفاوُتِ الدَّرَجاتِ في الآخرةِ، وترغيبٌ في العَمَلِ لها[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ على

(ص: ٣٧٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٦٥١).

أنَّ القرآنَ كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بَدأ، فلم يبتدئْ مِن غيره مِن الموجوداتِ، وإليه يعودُ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بناه للمَفعولِ؛ بيانًا لأنَّ إحكامَه أمرٌ قد فُرِغَ منه على أيسَرِ وَجهٍ عنده سبحانه، وأُتقِنَ إتقانًا لا مزيدَ عليه[(٢)].

٣- العُمرُ يطولُ، والرِّزقُ يُبسَطُ بالتَّوبةِ، والاستغفارِ، والعَمَلِ الصَّالحِ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، وَقَالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من أحبَّ أن يُبسَطَ له في رِزقِه، ويُنسأَ له في أثرِه[(٣)]؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَه))[(٤)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيه عُطِف الأمرُ بالتوبةِ على الاستغفارِ بحرفِ التراخي (ثمَّ)، وذلك لأنَّ مرتبةَ العَمَلِ متأخِّرةٌ عن مرتبةِ القَولِ؛ فكم من مستغفرٍ، وهو مصِرٌّ على الذَّنبِ[(٥)]، فالتَّائِبُ يستغفِرُ أوَّلًا، ثمَّ يتوبُ ويتجرَّدُ من ذلك الذَّنبِ المُستغفَرِ منه[(٦)]، وأيضًا فإنَّه أشار بأداة التَّراخي إلى علوِّ رُتبةِ التَّوبةِ، وأنْ لا سبيلَ إلى طلَبِ الغُفرانِ إلَّا بها[(٧)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٥).
(٣) يُنسَأَ له في أثَرِه: أي: يُؤَخَّرَ له في أجَلِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٢٤٩).
والحديثُ أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه.
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٣١).
(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٧).

مُّسَمًّى﴾ فيه سؤالٌ: أنَّنا نجِدُ من لم يستغفِرِ اللهَ ولم يتُب يُمَتِّعه الله متاعًا حَسنًا إلى أجَلِه، أي: يَرزُقه ويوسِّع عليه، أو يُعمِّره، فما فائدةُ التقييدِ بالاستغفارِ والتَّوبةِ؟

الجواب: أنَّ المتاعَ الحَسَن -المقيَّد بالاستغفارِ والتَّوبةِ- هو الحياةُ في الطاعةِ والقَناعةِ، ولا يكونانِ إلَّا للمُستغفِرِ التَّائبِ(١).

٦- قول الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ لَمَّا كان التَّمتيعُ- وهو المتاعُ البالغُ فيه حتى لا يكونَ فيه كدَرٌ- لا يكونُ إلَّا في الجنَّة، جعل المصدرَ ﴿مَّتَٰعًا﴾ ووَضَعَ موضِعَ (تَمتيعًا) هذا المصدرَ، ووَصفَه بِقَولِه: ﴿حَسَنًا﴾؛ ليدُلَّ على أنَّه أنهى ما يليقُ بهذه الدَّارِ(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ في التَّعبيرِ عن العملِ بالفَضلِ إشارةٌ إلى أنَّه لم يقَع التكليفُ إلَّا بما في الوُسعِ؛ لأنَّ الفَضلَ في الأصلِ ما فضَلَ عن الإنسانِ من كريمِ الشَّمائلِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فيه طِباقٌ حَسنٌ؛ لأنَّ معنى ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: أحكَمَها حكيمٌ، وفصَّلَها- أي: بيَّنَها وشرَحها- خبيرٌ عالِمٌ بكَيفيَّاتِ الأمورِ، ولَفظةُ ﴿ثُمَّ﴾

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٧-٢٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٩).

جاءت لِترتيبِ الأخبارِ، لا لِترتيبِ الوقوعِ في الزَّمانِ[١].

- وفي بناءِ ﴿أُحْكِمَتْ﴾ و﴿وَفُصِّلَتْ﴾ للمفعولِ، ثمَّ إيرادِ الفاعلِ بعنوانِ الحِكمةِ البالغةِ والإحاطةِ بجَلائلِها ودَقائقِها مُنكَّرًا بالتَّنكيرِ التَّفخيميِّ ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، ورَبطِهما به لا على النَّهجِ المعهودِ في إسنادِ الأفاعيلِ إلى فَواعِلِها، مع رِعايةِ حُسنِ الطِّباقِ- مِن الجَزالةِ، والدَّلالةِ على فَخامتِهما، وكونِهما على أكمَلِ ما يكونُ، ما لا يُكتَنَهُ كُنهُه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وَجُمْلَةِ ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، وهو اعتراضٌ للتَّحذيرِ مِن مُخالَفةِ النَّهيِ، والتَّحريضِ على امتِثالِه[٣].

- ولَمَّا كان إرسالُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رحمةً للعالَمينَ، قدَّمَ ضَميرَهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي: خاصَّةً[٤].

- قولُه: ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فيه تقديمُ النَّذيرِ؛ لأنَّ الخطابَ وُجِّه أوَّلًا إلى المشركينَ[٥]، ولأنَّ التخويفَ أهمُّ إذ يحصُل به الانزجارُ[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٨١).

- في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ تقدَّم أمْرانِ بينَهما تراخٍ، ورُتِّب عليهما جوابان بينَهما تَراخٍ؛ ترتَّب على الاستغفارِ التَّمتيعُ المتاعَ الحسَنَ في الدُّنيا، كما قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ الآياتِ [نوح: ١٠-١١]، وتَرتَّب على التَّوبةِ إيتاءُ الفضلِ في الآخِرةِ، وناسَب كلُّ جوابٍ لِما وقَع جوابًا له؛ لأنَّ الاستغفارَ مِن الذَّنبِ أوَّلُ حالِ الرَّاجعِ إلى اللهِ، فناسَب أن يُرتَّبَ عليه حالُ الدُّنيا، والتَّوبةُ هي المنجِّيةُ من النَّارِ، والَّتي تُدخِلُ الجنَّةَ، فناسَبَ أن يُرتَّب عليها حالُ الآخِرةِ(١).

- قولُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ فيه تأكيدُ جملةِ الجزاءِ: ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ﴾ بـ (إنَّ)، وبكونِ المسنَدِ إليه فيها (الضَّميرِ) اسمًا مُخبَرًا عنه بالجُملَةِ الفِعليَّةِ ﴿أَخَافُ﴾؛ لِقَصدِ شدَّةِ تأكيدِ تَوقُّعِ العذابِ(٢).

- قولُه: ﴿يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ فيه تنكيرُ (يومٍ)؛ للتَّهويلِ؛ لِتَذهَبَ نفوسُهم إلى الاحتمالِ الممكِنِ أن يَكونَ يومًا في الدُّنيا أو في الآخِرَةِ؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرون الحشرَ، فتَخْويفُهم بعذابِ الدُّنيا أوقَعُ في نُفوسِهم، ووَصفُه بالكبيرِ؛ لِزيادةِ تَهويلِه(٣).

- وقَدَّم بِشارةَ المُؤمِنينَ، وأخَّرَ إنذارَ الكافرينَ المُصرِّينَ؛ تأليفًا لهم، لأنَّ تواليَ الإنذارِ مُنفِّرٌ من الاستماعِ، مُغرٍ بالتَّولِّي والإعراضِ(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٩).

- قولُه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، جملةٌ في موضعِ التَّعليلِ للخَوفِ عليهم؛ فلذلك فُصِلَت، أي:لم تُعطَفْ بالواوِ على الَّتي قبلَها[١].

وتضَمَّنَت هذه الجملةُ تهديدًا عظيمًا، حيثُ صرَّح بالبعثِ، وذكَر أنَّ قُدرتَه عامَّةٌ لجميعِ ما يَشاءُ- ومِن ذلك البعثُ- فهو لا يُعجِزُه ما شاء مِن عَذابِهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ تقديمُ المجرورِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ على عامِلِه: ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ للاهتمامِ والتَّقوِّي، وليس المرادُ منه الحَصْرَ؛ إذ هم لا يَحسَبون أنَّهم مُرجَعون بعدَ الموتِ، فضلًا عن أن يَرجِعوا إلى غيرِه[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تقريرٌ لِما سلَف مِن كِبَرِ اليومِ، وتعليلٌ للخوفِ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾، فيه افتِتاحُ الكلامِ بحَرفِ التَّنبيهِ: ﴿أَلَآ﴾؛ للاهتمامِ بمَضمونِه؛ لِغَرابةِ أمْرِهم المحكيِّ، وللعنايةِ بتَعليمِ إحاطةِ علمِ اللهِ تعالى[٥]، وإشعارًا بأنَّ ما يَعقُبها من هَناتِهم[٦] أمرٌ يَجِبُ أن يُفهَمَ، ويُتعجَّبَ منه؛ لأنه لَمَّا أُلقِيَ إليهم فحْوَى الكِتابِ على لِسانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وسِيقَ إليهم ما يَنبغي أن يُساقَ من التَّرغيبِ والتَّرهيبِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٤- ١٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢٠).
(٦) هَنات: أي: خِصالُ سُوءٍ. يُنظر: ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٣٨١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٣٦٦).

وقَعَ في ذِهنِ السَّامعِ أنَّهم بعدَ سماعِهم مِثلَ هذا المقالِ الذي تخِرُّ له صُمُّ الجبالِ؛ هل قابَلُوه بالإقبالِ أم تَمادَوْا فيما كانُوا عليهِ من الإعراضِ والضلالِ؛ فقيل لذلك: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ مُصدَّرًا بكلمة التَّنبيهِ[١]؛ ليتأمَّلَ السَّامعُ حالَ المشركينَ، وصِفتَهم عندَ تبليغِهم الدَّعوةَ، وإقامة الحجَّة، ويتصوَّرَها في صِفتِها الغَريبةِ الدَّالَّةِ على أعراضِ الحَيرةِ والعَجزِ، ومنتهى الجَهلِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ ...﴾ تمثيلٌ لحالةِ إضمارِهم العداوَةَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في نُفوسِهم، وتمويهُ ذلك عليه وعلى المؤمنين به بحالِ مَن يَثْني صَدرَه لِيُخفِيَه، ومَن يَستَغْشي ثوبَه على ما يُريد أن يَستُرَه به[٣]. وذلك على أحدِ أوجُهِ تأويلِ الآيةِ.

- قولُه: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ فيه تقديمُ السِّرِّ على العلَنِ؛ نعيًا عليهم من أوَّلِ الأمرِ ما صنَعوا، وإيذانًا بافتِضاحِهم ووقوعِ ما يَحذَرونه، وتحقيقًا للمُساواةِ بين العِلْمَين على أبلَغِ وجهٍ؛ فكأنَّ عِلمَه بما يُسِرُّونه أقدَمُ منه بما يُعلِنونه[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليلٌ لما سبَق، وتقريرٌ له، وفي صِيغةِ الفَعيلِ ﴿عَلِيمُۢ﴾، وتَحْليةِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ بلامِ الاستغراقِ، والتَّعبيرِ عن الضَّمائرِ بعنوانِ صاحِبيَّتِها -فالضمائرُ لا تكادُ تفارقُ الصدورَ بل تلازمُها وتصاحبُها-: منَ البراعةِ ما لا يَصِفُه الواصِفون، كأنَّه قيلَ: إنَّه مبالِغٌ في الإحاطةِ بمُضمَراتِ جميعِ النَّاسِ، وأسرارِهم الخفيةِ المستكنَّةِ في صُدورِهم، بحيثُ لا تُفارِقُها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٤- ١٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٦).

أصلًا؛ فكيف يَخْفى عليه ما يُسِرُّون وما يُعلِنونَ[١]؟!



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٦) و (٢/ ١٠٢).

الآيتان (٦-٧)

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ
كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ
وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم
مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾: أي: مأواها الذي تأوي إليه ليلًا أو نهارًا، وأصلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ[1].

﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾: أي: الموضِعَ الذي يُودِعُها، إمَّا بِمَوتِها فيه، أو دَفنِها، وأصلُ (ودع): يدُلُّ على تَركٍ وتخليةٍ[2].

المعنَى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ الله تعالى أنَّه ما من حيٍّ يدِبُّ على الأرضِ إلَّا على الله تعالى غِذاؤُه ومَعاشُه، فضلًا منه سبحانه، وكَرمًا، ويعلَمُ مكان استقرارِ كلِّ دابَّةٍ، والموضِعَ الذي تموتُ فيه، كلُّ ذلك مكتوبٌ في كتابٍ عندَ الله مُبينٍ عن جميع ذلك، ثمَّ يخبرُ سُبحانه أنَّه هو الذي خلقَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّام، وكان عرشُه على الماءِ قبل ذلك؛ لِيَختبرَ النَّاسَ أيُّهم أحسَنُ له طاعةً وعَملًا. وخاطَب نبيَّه قائلًا له: ولَئِن قلتَ -أيُّها الرَّسولُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: إنَّكم مبعوثونَ أحياءً بعدَ مَوتِكم، لَسارعوا إلى التَّكذيبِ، وقالوا: ما هذا القرآنُ الذي تَتلوه علينا إلَّا سِحرٌ بيِّنٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ في الآيةِ الأولى أنَّه يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنونَ، أردَفَه بما يدُلُّ على كونِه تعالى عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ، فبيَّن أنَّ رِزقَ كُلِّ حَيوانٍ إنَّما يَصِلُ إليه مِنَ الله تعالى، فلو لم يكُنْ عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ لَما حصَلَت هذه الـمُهِمَّات(١).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾.

أي: وما مِن دابةٍ تدبُّ على الأرضِ -مِن آدميٍّ، أو حيوانٍ؛ بريٍّ أو بحريٍّ، أو طائرٍ أو زاحفٍ، أو كبيرٍ أو صغيرٍ- إلَّا وقد تكفَّل اللهُ بقُوتِها وغِذائِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ مَأوى كُلِّ دابَّةٍ في اللَّيلِ أو في النَّهارِ، ويَعلَمُ المَوضِعَ الذي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

قال الرازي في قوله: ﴿دَآبَّةٖ﴾: (المرادُ بهذا اللفظِ في هذه الآيةِ الموضوعُ الأصليُّ اللغويُّ، فيدخلُ فيه جميعُ الحيواناتِ، وهذا متفقٌ عليه بينَ المفسِّرين). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٨).

تموتُ فيه أو تُدفَنُ(١).

﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: كلُّ الدوابِّ مُثبَتٌ تفاصيلُ أحوالِها- في أرزاقِها ومستَقَرِّها ومُستودَعِها- في اللَّوحِ المَحفوظِ المُظهرِ لكلِّ ما قدَّره اللهُ لجَميعِ الخَلقِ بالتَّفصيلِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨).

وهذا المعنى المذكور للمستقرِّ والمستودَعِ هو اختيارُ الفرَّاءِ، وابنِ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأبو صالحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٤٠٢).

وقيل: مستقرُّها: منتهَى سيرِها في الأرضِ، ومستودُعها ما تأوي إليه مِن أوكارِها. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥).

وقيل: مستقرُّ هذه الدوابِّ هو: المكانُ الذي تُقيم فيه وتستقرُّ، وتأوي إليه، ومستودعُها: المكانُ الذي تنتقلُ إليه في ذهابِها ومجيئِها، وعوارضِ أحوالِها. وممَّن قال بذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

وقيل: مستقرُّها في الرحمِ، ومستودعُها في الصلبِ. وممن رُوِي عنه القولُ بذلك: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

قال ابنُ جرير: (وهذا إخبارٌ منَ اللهِ جلَّ ثناؤه الذين كانوا يَثنونَ صُدورَهم لِيَستَخفوا منه: أنَّه قد عَلِمَ الأشياءَ كُلَّها، وأثبَتَها في كتابٍ عِندَه قبل أن يخلُقَها ويُوجِدَها؛ يقولُ لهم تعالى ذِكرُه: فمن كان قد عَلِمَ ذلك منهم قبل أن يُوجِدَهم، فكيف يخفى عليه ما تنطوي عليه نفوسُهم إذا ثَنَوا به صدورَهم واستغشَوا عليه ثيابهم؟!). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨).

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمعتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يقولُ: ((كتبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ))(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أثبت بالدَّليلِ المتقدِّمِ كَونَه عالِمًا بالمعلوماتِ؛ أثبَتَ بهذا الدَّليلِ كونَه تعالى قادرًا على كلِّ المَقدوراتِ(٢).

وأيضًا لَمَّا كان خلقُ ما منه الرِّزقُ أعظمَ مِن خَلقِ الرِّزقِ وتوزيعِه في شمولِ العِلمِ والقدرةِ معًا؛ تلاه بقَولِه تعالى(٣):

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٣٨).

أي: واللهُ هو الذي خلق السَّمواتِ السَّبعَ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ[١].

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

أي: وكان عَرشُ اللهِ على الماءِ قبل أن يخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ[٢].

عن عمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((دخلتُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعقَلتُ ناقَتي بالبابِ، فأتاه ناسٌ مِن بني تميمٍ، فقال: اقبَلوا البُشرى يا بني تميمٍ، قالوا: قد بشَّرْتَنا فأعْطِنا -مَرَّتينِ- ثمَّ دخل عليه ناسٌ مِن أهلِ اليَمَنِ، فقال: اقبَلوا البُشرى يا أهلَ اليَمَنِ إذ لم يَقبَلْها بنو تميمٍ، قالوا: قد قَبِلْنا يا رسولَ اللهِ، قالوا: جِئناك نسألُك عن هذا الأمرِ؟ قال: كان اللهُ ولم يكنْ شَيءٌ غيرُه، وكان عرشُه على الماءِ، وكتب في الذِّكرِ كلَّ شَيءٍ، وخلَقَ السَّمواتِ والأرضَ))[٣].

وعن عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((كتَب الله مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، قال: وعرشُه على الماءِ))[٤].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: خلقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ، وخَلقَكم- أيُّها النَّاسُ- ليَختبِرَكم، فينظُرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: الله الذي إليه مَرجِعُكم أيُّها النَّاسُ جميعًا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقول: أفيَعجِزُ مَن خلقَ ذلك من غيرِ شَيءٍ أن يُعيدَكم أحياءً بعد أن يُميتَكم؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٦)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

أيُّكم أحسَنُ طاعةً للهِ بالإخلاصِ له، واتِّباعِ شَريعتِه(١).

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

ولما كان الابتلاءُ يتضمَّنُ حديثَ البعثِ؛ أتبَعَ ذلك بذكرِه(٢).

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿سِحْرٌ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿سَاحِرٌ﴾ على أنَّ مرادَهم بذلك: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم(٣).

٢- قراءةُ ﴿سِحْرٌ﴾ على أنَّ مرادَهم بذلك: القرآنُ الكريمُ(٤).

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: ولَئِنْ قُلتَ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّ اللهَ سَيبعَثُكم يومَ القيامةِ أحياءً بعد مَوتِكم، فتَلَوتَ عليهم القرآنَ بذلك؛ لَيقولُنَّ تكذيبًا وعنادًا: ما هذا القرآنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((فتح البيان)) للقنوجي (٦/ ١٤٥).

(٣) قرأ بها: حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٦).

(٤) قرأ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٦).

الذي تَتلوه علينا إلَّا سِحرٌ واضِحٌ، يَظهَرُ لِمَن يستمِعُه أنَّه سِحرٌ[(١)]!!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾، وقال تعالى في أولِ سورةِ الكهفِ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الكهف: ٧]، وقال في أولِ سورةِ الملك: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾، ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك: ٢] ولم يقُلْ: أكثرُ عملًا، فإذا عَرَف العبدُ أنَّه خُلِق لأجلِ أن يُختبَرَ في إحسانِ العملِ كان حريصًا على الحالةِ التي ينجحُ بها في هذا الاختبارِ؛ لأنَّ اختبارَ ربِّ العالمينَ يومَ القيامةِ مَنْ لم ينجَحْ فيه جُرَّ إلى النَّارِ، فعدمُ النجاحِ فيه مهلكةٌ[(٢)]، ففي ذلك الحثُّ على محاسنِ الأعمالِ، والترقِّي دائمًا في مراتبِ الكمالِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((أضواء القرآن)) للشنقيطي (٧/ ٢١٤).
ومِمَّن اختار عودَ اسمِ الإشارةِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ﴾ على القرآنِ: ابن جرير، والشنقيطي. يُنظر: المصدران السابقان.
وبعضُ المفَسِّرينَ جعل اسمَ الإشارةِ عائدًا على القَولِ بالبعثِ بعد الموتِ عُمومًا دون تَخصيصِ ذلك بآياتِ القُرآنِ، ومنهم: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩).
وقال ابن عاشور: (وَقَرَأَ حَمْزَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: ﴿إِلَّا سِحۡرٞ﴾ فالإشارةُ بقولِه هذا إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم المفهومِ مِن ضميرِ ﴿قُلۡتَ﴾ أي: أنَّه يقولُ كلامًا يَسْحَرُنا بذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩).
قال ابنُ كثيرٍ: (وقولُهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: يقولونَ كفرًا وعنادًا: ما نصدِّقُك على وقوعِ البعثِ، وما يَذكرُ ذلك إلا مَن سَحرتَه، فهو يتَّبِعُك على ما تقولُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٠).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن حِكمةِ خَلقِ الأرضِ صدورَ الأعمالِ الفاضلةِ مِن أشرَفِ المخلوقاتِ فيها، ثمَّ إنَّ ذلك يقتضي الجزاءَ على الأعمالِ؛ إكمالًا لمُقتضى الحِكمةِ؛ ولذلك أُعقِبَت بقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾[(١)].

٣- قال تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال الفضيلُ بنُ عياضٍ: أخلصُه وأصوبُه. والخالصُ أن يكونَ لله، والصوابُ أن يكونَ على السنةِ، وهما أصلانِ عظيمانِ: أحدُهما: أن لا نعبدَ إلا الله، والثاني: أن لا نعبدَه إلا بما شرَع، لا نعبدُه بعبادةٍ مبتدعةٍ، وهذان الأصلانِ هما تحقيقُ شهادةِ أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله[(٢)].

٤- قال تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والعملُ الأحسنُ هو الأخلصُ والأصوبُ، وهو الموافقُ لمرضاتِه ومحبتِه، دونَ الأكثرِ الخالي مِن ذلك، فهو سبحانَه وتعالى يحبُّ أن يتعبدَ له بالأرضَى له، وإن كان قليلًا دونَ الأكثرِ الذي لا يُرضيه، والأكثرِ الذي غيرُه أرضَى له منه، ولهذا يكونُ العملانِ في الصورةِ واحدًا، وبينَهما في الفضلِ، بل بينَ قليلِ أحدِهما وكثيرِ الآخرِ في الفضلِ أعظمُ مما بينَ السماءِ والأرضِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ لم يقُل (على الأرضِ)، مع أنَّه أنسَبُ بتَفسيرِ الدابَّةِ لغةً -لأنَّها ما يدِبُّ على الأرضِ- لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((المنار المنيف)) لابن القيم (ص: ٣١).

(في) أعمُّ مِن (على)؛ لأنَّها تتناوَلُ من الدوابِّ ما على ظَهرِ الأرضِ، وما في بَطنِها[١].

٢- الرِّزقُ مَقسومٌ لكلِّ أحَدٍ مِن بَرٍّ وفاجرٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ هذا مع ضَعفِ كَثيرٍ مِن الدوابِّ، وعَجزِها عن السَّعيِ في طلَبِ الرِّزقِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٠] فما دام العبدُ حيًّا، فرِزقُه على اللهِ، وقد يُيَسِّرُه الله له بكَسبٍ وبِغَيرِ كَسبٍ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ ظاهِرٌ في الوجوبِ، بينما رِزقُ اللهِ لكُلِّ ما دبَّ على الأرضِ هو تفَضُّلٌ، وللعُلماءِ في التَّوفيقِ بين ذلك وجوهٌ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا ضَمِنَ تعالى أن يتفضَّلَ به عليهم، أبرَزَه في حيِّزِ الوُجوبِ[٣]. فكأنَّه لضمانتِه، وعدمِ تخلُّفِه كأنَّه واجِبٌ عليه.

الوجه الثاني: أنَّ المرادَ بالوجوبِ هنا وجوبُ اختيارٍ، لا وجوبُ إلزامٍ، كقولِ الإنسانِ لصاحِبِه: حقُّك واجِبٌ عليَّ.

الوجه الثالث: أنَّ (على) بمعنى (مِن)، كما في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾[٤] [المطففين: ٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ رُدَّ به على المُعتزلةِ في قولِهم: (إنَّ الحرامَ ليس برزقٍ)؛ لأنَّه يلزمُ عليه أنَّ من تغذَّى طولَ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٤).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٨-٢٥٩).

عُمُرِه بالحرامِ لم يرزُقْه اللهُ، وهو خلافُ ما في الآيةِ؛ لأنَّه تعالى لا يترُكُ ما أخبَرَ بأنَّه عليه[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف قيل: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وأعمالُ المؤمنينَ هي التي تتفاوتُ إلى حسَنٍ وأحسَنَ، فأمَّا أعمالُ المؤمنينَ والكافرينَ فتفاوُتُها إلى حَسَنٍ وقبيحٍ؟

الجوابُ: أنَّ الذين هم أحسَنُ عملًا هم المتَّقونَ، وهم الذين استبَقوا إلى تحصيلِ ما هو مقصودُ اللهِ مِن عبادِه، فخَصَّهم بالذِّكرِ، واطَّرَح ذِكرَ مَن وراءَهم؛ تشريفًا لهم، وتنبيهًا على مكانِهم منه، وليكون ذلك تيقُّظًا للسَّامعينَ، وتَرغيبًا في حيازةِ فَضلِهم[٢]، وأيضًا للتَّحريضِ على أحاسِنِ المَحاسنِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فيه أنَّ العَرشَ ذاتٌ مَخلوقةٌ فوق السَّمَواتِ، وذلك يقتضي أنَّ العَرشَ مخلوقٌ قبل السَّمَواتِ والأرضِ، وكذلك الماءُ[٤] فالله تعالى أخْبَرَ أنَّ عرشَه كان على الماءِ قبلَ خلقِ السمواتِ والأرضِ، وثَبَت ذلك في ((صحيح البخاريِّ))[٥] عن عِمرانَ بنِ حُصينٍ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم قال: ((كان

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٠).

وينقسمُ الرزقُ إلى قسمينِ: عامٍّ وخاصٍّ، فالعامُّ: كلُّ ما ينتفعُ به البدنُ، سواءٌ كان حلالًا أو حرامًا، وسواءٌ كان المرزوقُ مسلمًا أو كافرًا، أمَّا الرزقُ الخاصُّ، فهو ما يقومُ به الدينُ مِن العلمِ النافعِ، والعملِ الصالحِ، والرزقِ الحلالِ المعينِ على طاعةِ الله. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧).

(٥) ((صحيح البخاري)) (٧٤١٨).

اللَّهُ ولا شيءَ غيرُه، وكان عرشُه على الماءِ، وكَتَب في الذِّكرِ كلَّ شيءٍ، ثُمَّ خَلَق السَّمواتِ والأرضَ))[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لِيبتليَ عبادَه بأمْرِه ونَهيِه، وهذا مِن الحَقِّ الذي خلَقَ به خلْقَه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قال أهل المعاني: وفي وقوفِ العَرشِ على الماءِ -والماءُ غيرُ قرارٍ- أعظَمُ الاعتبارِ لأهلِ الأفكارِ[٣].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فيه زيادةُ قولِه: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تأكيدًا لمعنَى ﴿دَآبَّةٍ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ العُمومَ مُسْتَعملٌ في حقيقتِه[٤].

- وتقديمُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ قبْلَ ﴿رِزْقُهَا﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ؛ أي: على اللهِ لا على

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٤٥).
قال ابنُ حجر: (وقد وقَع... بلفظ: «كان عرشُه على الماءِ، ثمَّ خلَق القلمَ، فقال: اكتبْ ما هو كائنٌ ثم خلَق السمواتِ والأرضَ وما فيهنَّ»، فصرَّح بترتيبِ المخلوقاتِ بعدَ الماءِ والعرشِ... ولم يقعْ بلفظِ: «ثم» إلَّا في ذكرِ خلقِ السمواتِ والأرض، وقد روَى مسلمٌ مِن حديثِ عبدِ الله بن عمرو مرفوعًا: «أنَّ الله قدَّر مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنَةٍ، وكان عرشُه على الماءِ»، وهذا الحديثُ يؤيدُ روايةَ مَن روَى: «ثمَّ خلَق السمواتِ والأرضَ» باللفظِ الدالِّ على الترتيبِ). ((فتح الباري)) (٦/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٥).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥).

غيرِه، وأيضًا التَّركيبُ ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ يُفيدُ معنى أنَّ اللهَ تكفَّل برِزْقِها ولم يُهْمِلْه(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أنَّ الحِكمةَ في خَلقِ ذلك أنَّه يَخْتَبِركم، ودلَّ على شِدَّةِ الاهتمامِ بذلك بسَوقِه مَساقَ الاستفهامِ في قَولِه: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟...﴾ فيه تأكيدُ الجملةِ باللَّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ في ﴿وَلَئِن﴾ وما يَتْبَعُه مِن نونِ التوَّكيدِ في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ لِتنزيلِ السَّامعِ مَنزِلةَ المتردِّدِ في صُدورِ هذا القولِ مِنهم؛ لِغَرابةِ صُدورِه مِن العاقلِ؛ فيكونُ التَّأكيدُ القويُّ والتَّنزيلُ مُستعمَلًا في التَّعجُّبِ مِن حالِ الَّذين كفَروا أن يُحيلوا إعادةَ الخلقَ، وقد شاهَدوا آثارَ بدْءِ الخلقِ، وهو أعظَمُ وأبدَعُ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥-٦)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩).

الآيات (٨-١١)

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أُمَّةٍ ﴾: الأُمَّةُ: الحينُ والزمانُ[١].

﴿ يَحْبِسُهُۥٓ ﴾: أي: يَمنَعُه أو يؤخِّرُه، وأصلُ (حبس): يدلُّ على المَنعِ[٢].

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾: أي: نزل بهم وأصابَهم، وأصلُ (حيق): يدلُّ على نزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[٣].

المعنَى الإجماليُّ:

يُقسِمُ الله تعالى قائلًا: ولئن أخَّرْنا عن هؤلاء المُشرِكينَ العذابَ إلى أجَلٍ معلومٍ فاستبطَؤوه، ليقولُنَّ استهزاءً وتكذيبًا: أيُّ شيءٍ يمنَعُ هذا العذابَ مِن الوقوعِ إن كان حقًّا؟ ألا يومَ يأتيهم ذلك العذابُ لا يستطيعُ أن يَصرِفَه عنهم صارِفٌ، ولا يَدفَعَه دافِعٌ، وأحاط بهم مِن كُلِّ جانبٍ العذابُ الذي كانوا يَستَهزئونَ به قبلَ وقوعِه بهم، ولَئِن أعطَينا الإنسانَ مِنَّا نِعمةً مِن صِحَّةٍ وأمنٍ وغَيرِهما، ثمَّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٢/ ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦).

سَلَبْناها منه؛ إنَّه لَشديدُ اليأسِ مِن رَحمةِ الله، جَحودٌ بالنِّعَمِ التي أنعَمَ اللهُ بها عليه، ولَئِن بسَطْنا للإنسانِ في دُنياه، ووسَّعْنا عليه في رِزقِه بعد ضِيقٍ مِن العَيشِ، ليقولَنَّ عند ذلك: ذهب الضِّيقُ عني، وزالت الشَّدائِدُ، إنَّه لشديدُ الفَرحِ بالنِّعَمِ، مُبالِغٌ في الفَخرِ والتَّعالي على النَّاسِ بها، لكنِ الذين صبَروا وعَمِلوا الصَّالحاتِ شُكرًا لله على نِعَمِه، هؤلاء لهم مغفرةٌ لذُنوبِهم، وأجرٌ كبيرٌ في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان ما تقدَّم عن المُشركينَ مِن الأفعالِ، ومضَى مِن الأقوالِ مَظِنَّةً لِمُعاجلتِهم بالأخذِ، وكان الواقِعُ أنَّه تعالى يعامِلُهم بالإمهالِ فَضلًا منه وكَرَمًا- حكَى مقالتَهم في مُقابَلةِ رَحمتِه تعالى لهم[(١)].

وأيضًا فمُناسبةُ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها: أنَّ في كِلتَيهما وَصْفَ فَنٍّ مِن أفانينِ عِنادِ المُشرِكينَ وتهَكُّمِهم بالدَّعوةِ الإسلاميَّةِ؛ فإذا خبَّرهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالبَعثِ، وأنَّ شِركَهم سبَبٌ لتَعذيبِهم، جعلوا كلامَه سِحرًا، وإذا أنذَرَهم بعقوبةِ العَذابِ على الإشراكِ، استَعجَلوه، فإذا تأخَّر عنهم إلى أجَلٍ اقتَضَتْه الحِكمةُ الرَّبانيَّةُ، استفهَموا عن سبَبِ حَبسِه عنهم استِفهامَ تهكُّمٍ؛ ظنًّا أنَّ تأخُّرَه عَجزٌ[(٢)].

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾.

أي: ولَئِنْ أخَّرْنا عن هؤلاءِ المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ- العذابَ إلى مُدَّةٍ معلومةٍ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠).

فلم نُعجِّلْه لهم؛ لَيقولُنَّ تكذيبًا واستهزاءً: أيُّ شيءٍ يحبِسُ عنَّا نزولَ العذابِ[١]؟!

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾.

أي: ألَا يومَ يأتيهم ذلك العذابُ- الذي كذَّبوا به- لا يَرُدُّه شَيءٌ، فلا يَصرِفُه عنهم صارِفٌ، ولا يدفَعُه عنهم دافِعٌ[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

أي: ونزل بالمُشرِكينَ وأحاط بهم العذابُ الذي كانوا يستهزِئونَ به، ويَستعجِلونَه[٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا وما بَعدَه بيانٌ لحالِ الإنسانِ في اختبارِ اللهِ له في قَولِه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤] [هود: ٧].

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جملةِ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾؛ فإنَّه لَمَّا ذكرَ تعالى عن المُشرِكينَ أنَّ ما هم فيه متاعٌ إلى أجَلٍ مَعلوم عنده، وأنَّهم بَطِروا نعمةَ التَّمتيعِ، فسَخِروا بتأخيرِ العذابِ، فبَيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ أهلَ الضَّلالةِ راسِخونَ في ذلك؛ لأنَّهم لا يفكِّرونَ في غيرِ اللَّذَّاتِ الدُّنيويَّةِ، فتجري انفعالاتُهم على حسَبِ ذلك دونَ رجاءٍ لتغيُّرِ الحالِ، ولا يتفكَّرونَ في أسبابِ النَّعيمِ والبُؤسِ، وتصَرُّفاتِ خالقِ النَّاسِ، ومُقَدِّرِ أحوالِهم، ولا يتَّعِظون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٦، ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩، ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٤).

بتقلُّباتِ أحوالِ الأمَمِ، فشأنُ أهلِ الضَّلالةِ أنَّهم إن حلَّت بهم الضَّراءُ بعد النِّعمةِ ملَكَهم اليأسُ مِن الخيرِ، ونَسُوا النِّعمةَ فجَحَدوها وكَفَروا مُنعِمَها، فإنَّ تأخيرَ العذابِ رَحمةٌ، وإتيانَ العذابِ نَزعٌ لتلك الرَّحمةِ[١].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾.

أي: ولَئِن أعطَينا الإنسانَ[٢] منَّا نِعمةً- كالعافيةِ وسَعةِ الرِّزقِ وطِيبِ العَيشِ- فوجدَ لذَّتَها، ثمَّ سَلَبْناها منه؛ يظلُّ شديدَ اليأسِ مِن حصولِ الخَيرِ له في المُستقبَلِ، جَحُودًا نِعَمَ اللهِ عليه، قَلِيلَ الشُّكرِ لرَبِّه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الجُملةَ تَتميمٌ للتي قبلَها؛ لأنَّها حكَت حالةً ضِدَّ الحالةِ في التي قبلَها[٤].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢).

(٢) المرادُ بالإنسانِ هنا جنسُ الإنسانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٢٠-١٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣).

أي: ولَئِن أذَقْنا الإنسانَ نِعمةً بعدَ ضيقٍ كان فيه، ليقولَنَّ غِرَّةً باللهِ عزَّ وجلَّ، وجرأةً عليه، وجهلًا بإنعامِه: ذهبَ الضِّيقُ والشِّدَّةُ والمكروهُ عنِّي، ولن يُصيبَني بعد ذلك سوءٌ[(١)]!!

كما قال الله سبحانَه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٤٩-٥١].

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

أي: إنَّه لشديدُ الفرحِ بنِعَمِ اللهِ عليه، فخورٌ على غيرِه بها، ولا يشكُرُ اللهَ عليها، وينسى تقلُّباتِ أحوالِ الدُّنيا ونكَدَها، وينسى طلَبَ النَّعيمِ الباقي، والسُّرورِ الدَّائمِ في الآخرة[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ [الروم: ٣٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: إلَّا[(٣)] الذين صَبَروا عند الضَّرَّاءِ، ونزولِ الشدائدِ والمكارِه، وعَمِلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

(٣) الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ استثناءٌ متصلٌ، وقيل: منقطعٌ. وهذا بناءً على

الصَّالحاتِ فِي السرَّاءِ، وحلولِ الرَّخاءِ والعافيةِ؛ شكرًا لله على نعمائِه، أولئك لهم مَغفِرةٌ من اللهِ لِذُنوبِهم، ولهم جزاءٌ عظيمٌ[١].

كما قال سُبحانه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ، وأبي هريرةَ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما يُصيبُ المُسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ[٢]، ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذًى ولا غَمٍّ، حتى الشَّوكةُ يُشاكُها، إلَّا كفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه))[٣].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((عجبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلَّا للمؤمِنِ؛ إن أصابَته سرَّاءُ شكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَته ضرَّاءُ صبَرَ فكان خيرًا له))[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ * وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ لفظُ الإذاقةِ والذَّوقِ يفيدُ أقَلَّ ما يوجَدُ به الطَّعمُ، فكان المرادُ أنَّ الإنسانَ بِوِجدانِ أقَلِّ القليلِ مِن الخيراتِ العاجلةِ يقَعُ في التمَرُّدِ والطُّغيانِ، وبإدراكِ أقَلِّ القليلِ مِن المِحنةِ والبَليَّةِ يقَعُ في اليأسِ والقُنوطِ والكُفرانِ، فالدُّنيا

كونِ المرادِ بالإنسانِ في قولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الإنسانَ الكافرَ، أو إنسانًا معينًا. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٩).

(٢) الوصَبُ: الألَمُ اللازِمُ، والسَّقَمُ الدَّائِمُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

في نَفسِها قليلةٌ، والحاصِلُ منها للإنسانِ الواحدِ قَليلٌ، والإذاقةُ من ذلك المقدارِ خَيرٌ قليلٌ، ثمَّ إنَّه في سرعةِ الزَّوالِ يُشبِهُ أحلامَ النَّائمينَ، وخَيالاتِ المُوَسوِسينَ، فهذه الإذاقةُ مِن قليلٍ، ومع ذلك فإنَّ الإنسانَ لا طاقةَ له بتحَمُّلِها، ولا صَبرَ له على الإتيانِ بالطَّريقِ الحَسَنِ معها[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ بيَّن سُبحانه وتعالى في هذه الآيةِ أنَّ أحوالَ الدُّنيا غيرُ باقيةٍ، بل هي أبدًا في التغَيُّرِ والزَّوالِ والتحوُّلِ والانتقالِ؛ فإنَّ الإنسانَ إمَّا أن يتحوَّلَ مِن النِّعمةِ إلى المِحنة، ومن اللَّذَّاتِ إلى الآفاتِ كالقِسمِ الأوَّلِ، وإمَّا أن يكونَ بالعَكسِ مِن ذلك، وهو أن ينتَقِلَ مِن المكروهِ إلى المَحبوبِ كالقِسمِ الثَّاني[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- اليومُ قد يعبَّرُ به عن الوقتِ قَلَّ أو كثُرَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ والمرادُ: وقتُ مَجيءِ العذابِ، وقد يكونُ ليلًا ويكون نهارًا، وقد يستمِرُّ وقد لا يستَمِرُّ[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ لم يُسنِدِ (المسَّ) إليه سبحانَه، كما فعل في (النَّعماءِ)؛ تعليمًا للأدبِ[٤]. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ في اختلافِ الفِعلينِ- وهما أذقناه ومَسَّته- من حيث الإسنادُ إليه تعالى في الأوَّلِ، وإلى الضَّرَّاء في الثَّاني؛ نكتةً: وهي أنَّ النِّعمةَ صادرةٌ مِن اللهِ تعالى تفضُّلًا منه، وأمَّا الضَّررُ فالسَّببُ فيه هو العبدُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٨٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٥٢٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٣).

باجتلابِه إيَّاه بالمعاصي غالبًا، ولا ينافي ذلك قَولَه تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]؛ فإنَّ الكُلَّ منه إيجادًا، غيرَ أنَّ الحَسَنةَ إحسانٌ وامتحانٌ، والسَّيِّئةَ مُجازاةٌ وانتقامٌ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ استفهامٌ، غرَضُهم منه إنكارُ المجيءِ والحبْسِ رأسًا، لا الاعترافُ به والاستفسارُ عن حابِسِه؛ كأنَّهم يَقولونَه بطريقِ الاستعجالِ؛ استِهْزاءً(٢).

- قولُه: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ واقعٌ موقعَ الجوابِ عن كلامِهم؛ إذ يَقولون: ما يَحبِسُ عنَّا العذابَ؟ فلذلك فُصِلَتْ- لم تُعطَف- كما تُفصَلُ المحاوَرةُ، وفيه تهديدٌ وتخويفٌ بأنَّه لا يُصرَفُ عنهم، ولكنَّه مؤخَّرٌ(٣).

- وافتُتِح الكلامُ بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ للاهتمامِ بالخبَرِ؛ لتحقيقِه، وإدخالِ الرَّوعِ في ضَمائرِهم(٤).

- وتقديمُ الظَّرفِ ﴿يَوْمَ﴾؛ للإيماءِ بأنَّ إتيانَ العذابِ لا شكَّ فيه حتَّى إنَّه يوقَّتُ بوقتٍ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالماضي ﴿وَحَاقَ﴾، والمعنى: (ويَحيقُ بهم)، إلَّا أنَّه جاء على عادةِ اللهِ في أخبارِه؛ لأنَّها في تَحقُّقِها وتَيَقُّنِها بمنزلةِ الكائنةِ الموجودةِ، وفي ذلك مِن الفَخامةِ والدَّلالةِ على عُلوِّ شأنِ المخبِرِ، وتقريرِ وقوعِ المخبَرِ به ما لا يَخْفى[١].

- وفي قولِه: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ قدَّمَ الظَّرفَ (به)؛ إشارةً إلى شدَّةِ إقبالِهم على الهُزءِ به، حتى كأنَّهم لا يَهزؤونَ بغيرِه[٢].

- وفيه الإتيانُ بالموصولِ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ في مَوضِعِ الضَّميرِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ استِهْزاءَهم كان مِن أسبابِ غضَبِ اللهِ عليهم، وتَقْديره إحاطةَ العذابِ بهم؛ بحيثُ لا يَجِدون منه مَخلَصًا[٣]، والمرادُ بقولِه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ العذابُ الَّذي كانوا به يَستعجِلون، وإنَّما وضَعَ ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ موضِعَ (يَستعجِلون)؛ لأنَّ استِعْجالَهم كان على جِهَةِ الاستهزاءِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾

- فيه تأكيدُ الجملةِ باللَّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ في ﴿وَلَئِنۡ﴾ وبـ (إنَّ) واللَّامِ في جُملةِ جوابِ القَسَمِ ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾؛ لقصْدِ تحقيقِ مَضمونِها، وأنَّه حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مُبالَغةَ فيها ولا تَغليبَ[٥].

- واخْتيرَتْ مادَّةُ الإذاقةِ في ﴿أَذَقۡنَا﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به من إدراكِ أمرٍ محبوبٍ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣).

لأنَّ المرْءَ لا يَذوقُ إلَّا ما يَشتَهيه[١]، ومادَّةُ النَّزْعِ في ﴿نَزَعْنَـٰهَا﴾؛ للإشعارِ بشِدَّةِ تَعلُّقِ الإنسانِ بها وحِرْصِه عليها[٢].

– ولَمَّا كانت النِّعمُ عَواريَّ مِن اللهِ يمنَحُها مَن شاء مِن عِبادِه، قدَّمَ الصِّلةَ دليلًا على العاريَّةِ، فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾[٣].

– وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النَّزْعَ إنَّما كان بسَببِ كُفْرانِهم بما كانوا يتَقلَّبون فيه مِن نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٣- قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾

– قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّر عن مُلابَسةِ الرَّحمةِ والنَّعماءِ بالذَّوقِ ﴿أَذَقْنَـٰهُ﴾ المؤذِنِ بلَذَّتِهما، وكَونِهما مِمَّا يُرغَبُ فيه، وعن مُلابَسةِ الضَّرَّاءِ بالمَسِّ ﴿مَسَّتْهُ﴾ المشعِرِ بكونِها في أدنى ما يُطلَقُ عليه اسْمُ الملاقاةِ مِن مَراتبِها[٥]؛ فاختيارُ فعلِ المسِّ في ﴿مَسَّتْهُ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ إصابةَ الضَّرَّاءِ أخَفُّ مِن إصابةِ النَّعْماءِ، وأنَّ لُطْفَ اللهِ شاملٌ لعبادِه في كلِّ حالٍ[٦].

– وجعَل جوابَ القسَمِ (القَوْلَ) في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه تبَجُّحٌ وتَفاخُرٌ؛ فالخبَرُ في قولِه: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ مُستعمَلٌ في الازْدِهاءِ والإعجابِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤).

وذلك هو مُقتَضى زيادةِ ﴿عَنِّيٓ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿ذَهَبَ﴾؛ للإشارةِ إلى اعْتِقادِ كلِّ واحدٍ أنَّه حَقيقٌ بأن تَذهَبَ عنه السَّيِّئاتُ غُرورًا منه بنَفسِه، كما في قولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾[1] [فصلت: ٥٠].

- وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّعجُّبِ مِن حالِه، و﴿فَرِحٞ﴾ و﴿فَخُورٌ﴾ مِن أوزانِ المبالَغةِ، أي: لَشَديدُ الفرَحِ، شَديدُ الفَخرِ[2].

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا في سورةِ هودٍ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، وقال في سورةِ فُصِّلَت: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [فصلت: ٥٠]؛ ففيه زيادةُ (مِنَّا) وزيادةُ (مِن) في سورةِ فُصِّلَت عمَّا في سورةِ هودٍ؛ ووجهُ ذلك أنَّه لم يَرِد في هودٍ ما يَستدعي تلك الزِّيادةَ، وأمَّا سورةُ فُصِّلَت فتقدَّم فيها قولُه: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ [فصلت: ٤٧]؛ قَطعًا بهم، وتَنبيهًا على سوءِ مُرتكَبِهم، وقد عايَنوا الحقَّ، وضلَّ عنهم ما كانوا يَدَّعون مِن قَبلُ مِن شُركاءِ اللهِ سبحانه، وأيقَنوا وعَلِموا أنَّه لا مَحيصَ لهم ولا مَفرَّ؛ فلمَّا تَقدَّم ذِكْرُ الشُّرَكاءِ قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [فصلت: ٥٠]، فنَبَّه تعالى بقولِه: ﴿مِّنَّا﴾ على أنْ لا شَريكَ له، ولا مُعطِيَ غيرُه، وأنَّه لا يأتي العبدَ شيءٌ مِن أحَدٍ سِواه سُبحانه. ولَمَّا لم يتقدَّمْ في سورةِ هودٍ ذِكرٌ لذلك لم يَرِد فيها التَّنبيهُ بقولِه: ﴿مِّنَّا﴾. وأمَّا زيادةُ: (مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ [فصلت: ٥٠]؛ فمُناسِبٌ لإطنابِ هذا الغَرَضِ في هذه السُّورةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فناسَب ذلك الزِّيادةَ، ولإيجازِ هذا القصدِ في سورةِ هودٍ ناسَبه سُقوطُ (مِن)؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه في سورةِ فُصِّلَت بيَّن تعالى جِهةَ الرَّحمةِ، بقولِه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]؛ فناسَب ذِكْرُ ﴿مِّنَّا﴾، وحَذَفَه هنا اكتفاءً بقولِه قبلُ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩]، وزاد (مِن) في سورةِ فُصِّلَت؛ لأنَّه لَمَّا حدَّ الرَّحمةَ وجِهَتَها حدَّ الظَّرْفَ بعْدَها؛ لِيَتَشاكَلا في التَّحديدِ، وهنا لَمَّا لم يَذكُرِ الأوَّلَ، لم يَذكُرِ الثَّانيَ لِيَتَشاكَلا[2].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٥٩-٢٦٠).

الآيات (١٢-١٤)

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾.

المعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: فلعلَّك- أيُّها الرَّسولُ- تارِكٌ بعضَ ما يُوحَى إليك ممَّا أنزَلَه اللهُ عليك، وأمَرَك بتبليغِه، وضائِقٌ به صَدرُك؛ خَشيةَ أن يطلُبوا منك بعضَ المَطالبِ على وجهِ التَّعنُّتِ، كأنْ يقولوا: لو لا أُنزِلَ عليه مالٌ كثيرٌ، أو جاء معه ملَكٌ يصَدِّقُه في رسالتِه، فبَلِّغْهم ما أوحيتُه إليك؛ فإنَّه ليس عليك إلَّا الإنذارُ بما أُوحيَ إليك، واللهُ على كلِّ شَيءٍ حَفيظٌ، يدَبِّرُ جميعَ شُؤونِ خَلقِه. بل أيقولُ هؤلاء المُشركونَ: إنَّ مُحمدًا قد افترى هذا القُرآنَ؟ قلْ لهم: إن كان الأمرُ كما تَزعمونَ، فأْتُوا بعَشرِ سُوَرٍ مِثلِه مُفترَياتٍ، وادعُوا من استطعتُم مِن جميعِ خَلقِ الله؛ لِيُساعِدوكم على الإتيانِ بهذه السُّوَرِ العَشرِ، إنْ كنتُم صادقينَ في دَعواكم. فإن لم يَأتوا بمُعارضةِ ما دَعَوْتُموهم إليه، فأيقِنوا أنَّما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ الله، مشتملًا على عِلْمه، ومُتَضَمِّنًا أمرَه وَنَهْيَه، وأيقِنوا أنْ لا إلهَ يُعبَدُ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، فهل أنتم- بعد قيامِ هذه الحُجَّةِ عليكم- مُسلِمونَ مُنقادونَ لله ورَسولِه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا تفريعٌ على قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ إلى قَولِه ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن ذِكرِ تكذيبِهم وعِنادِهم، ويشيرُ هذا التَّفريعُ إلى أنَّ مَضمونَ الكلامِ المفرَّعِ عليه سببٌ لِتَوجيهِ هذا التوقُّعِ؛ لأنَّ مِن شأنِ المفرَّعِ عليه اليأسُ من ارعوائِهم لتكرُّرِ التَّكذيبِ والاستهزاءِ يأسًا قد يبعَثُ على تَركِ دُعائِهم(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا استثنى اللهُ تعالى مِن الجارينَ مع الطَّبعِ، الطَّائشينَ في الهَوى، مَن تحلَّى برَزانةِ الصَّبرِ النَّاشئِ عن وَقارِ العِلمِ، المُثمرِ لصالحِ العمَلِ، وكان صلَّى الله عليه وسلم رأسَ الصَّابرينَ، وكان ما مضى مِن أقوالِهم وأفعالِهم ربَّما كان مَظِنَّةً لرَجائِهم تَرْكَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعضَ ما يُوحى إليه؛ مِن عَيبِ آلهتِهم، وتضليلِ آبائِهم، وتسفيهِ أحلامِهم، وغيرِ ذلك ممَّا يشُقُّ عليهم؛ طمعًا في إقبالِهم أو خوفًا من إدبارِهم- قال تعالى مسبِّبًا عن ذلك، ناهيًا في صيغةِ الخَبرِ(٢):

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾.

أي: فلعلَّك -يا مُحمَّدُ- تاركٌ تبليغَ قَومِك بعضَ ما أوحَى اللهُ إليك مِن القُرآنِ، وضائِقٌ صَدرُك بما أمَرَك اللهُ أن تبلِّغَهم؛ كراهةَ أن يقولَ المُشرِكونَ: لولا أنزَلَ اللهُ عليه كنزًا، أو جاء معه ملَكٌ؛ لنؤمِنَ بأنَّه رَسولُ الله، فاصبِرْ على تكذيبِهم، واستمِرَّ في دَعوتِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥-١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

قال الشوكاني: (قيل: وهذا الكلامُ خارجٌ مخرجَ الاستفهامِ، أي: هل أنت تاركٌ؟ وقيل: هو في معنى النَّفيِ مع الاستبعادِ أي: لا يكونُ منك ذلك، بل تُبَلِّغُهم جميعَ ما أنزلَ الله عليك، أحَبُّوا

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا * وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا * أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا * أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا * ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٧-٩].

وقال سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

ذلك أم كَرِهوه، شاؤوا أم أبوا). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢).

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾.

أي: إنَّما أنت- يا محمَّدُ- نذيرٌ لقَومِك تُنذِرُهم عِقابي، وليس عليك أن تأتيَهم بما يقترِحونَه مِن الآياتِ(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قيِّمٌ، بِيَدِه تدبيرُ الأمورِ، وهو حافِظٌ يحفَظُ أعمالَ عبادِه، ويُجازيهم بها(٢).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ القَومَ لَمَّا طَلَبوا من النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُعجِزَ؛ قال: مُعجزي هذا القُرآنُ، ولَمَّا حصل المُعجِزُ الواحِدُ، كان طلَبُ الزيادةِ بَغيًا وجهلًا، ثم قرَّرَ كَونَه مُعجِزًا بأنْ تحدَّاهم بالمُعارَضةِ(٣).

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾.

أي: بل أيقولُ المُشرِكونَ: افترى محمَّدٌ القُرآنَ، وليس هو مِن عندِ اللهِ(٤)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩).

﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾.

أي: قل لهم- يا مُحمَّدُ-: فإن كنتُ افتريتُ القُرآنَ كما تَزعُمونَ، فأْتُوا أنتم بعَشرِ سُوَرٍ مِثلِه مُختَلَقاتٍ مِن عندِ أنفُسِكم(١).

﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: وادعُوا- أيُّها المُشرِكونَ- مَنْ تستَطيعونَ دَعوتَه، من الإنسِ والجِنِّ، وآلهتِكم المزعومةِ؛ لِيُعينكم على اختلاقِ عَشرِ سُوَرٍ مِن القُرآنِ، إن كنتُم صادقينَ في أنِّي افتريتُ هذا القُرآنَ(٢).

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كفاك حجَّةً على حقيقةِ ما أتيتَهم به ودلالةً على صحَّةِ نبوَّتِك، هذا القرآنُ مِن سائرِ الآياتِ غَيرِه؛ إذ كانت الآياتُ إنَّما تكونُ لِمَن أعطِيَها دلالةً على صِدقِه، لعَجزِ جميعِ الخَلقِ عن أن يأتوا بمِثلِها، وهذا القرآنُ جميعُ الخَلقِ عَجَزةٌ عن أن يأتوا بمِثلِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٨).

قال ابن عاشور: (قال ابنُ عباسٍ وجمهورُ المفسرين: كان التحدِّي أوَّل الأمرِ بأن يأتوا بعشرِ سُور مثلِ القرآنِ، وهو ما وقَع في سورةِ هودٍ، ثم نُسِخ بأن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ، كما وقَع في سورةِ البقرةِ، وسورةِ يونس. فتخطَّى أصحابُ هذا القولِ إلى أن قالوا: إنَّ سورةَ هودٍ نزلَت قبلَ سورةِ يونسَ، وهو الذي يُعتمدُ عليه.

وقال المبردُ: تحدَّاهم أولًا بسورةٍ ثم تحدَّاهم هنا بعشرِ سورٍ؛ لأنَّهم قد وُسِّع عليهم هنا بالاكتفاءِ بسورٍ مفترياتٍ، فلمَّا وُسِّع عليهم في صفتِها أُكثر عليهم عددُها، وما وقَع مِن التحدِّي بسورةٍ اعتُبر فيه مماثلتُها لسورِ القرآنِ في كمالِ المعاني، وليس بالقويِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠).

وذهَب محمد رشيد رضا إلى أنَّ جميعَ آياتِ التحدِّي لم يكنْ مراعًى بها الترتيبُ التاريخيُّ في مخاطبةِ المشركينَ -كما ذهَب جمهورُ المفسِّرين- بل ذُكر كلٌّ منها بمناسبةِ سياقِ سورتِه. يُنظر: ((تفسير المنار)) (١٢/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان أدنَى دَرَجاتِ الافتراءِ إتيانَ الإنسانِ بكلامِ غَيرِه من غيرِ عِلمِه، وكان عَجزُهم عن المُعارَضةِ دليلًا قاطعًا على أنَّهم لم يَصِلوا إلى شيءٍ مِن كَلامِه تعالى بغيرِ عِلمِه، ولا وجَدوا مُكافِئًا له يأتيهم بمِثلِه- ثبت قطعًا أنَّ هذا القرآنَ غيرُ مُفترًى، فقال تعالى مُخاطبًا للجميعِ إشارةً إلى وضوحِ الأمرِ -لا سيَّما في الافتراءِ عند كلِّ أحدٍ- وأنَّ المُشرِكينَ قد وصَلوا من ذلِّ التَّبكيتِ بالتَّحدِّي مَرَّةً بعد مَرَّة، وزورِهم لأنفُسِهم في ذلك المضمارِ كَرَّةً في إثرِ كَرَّة، إلى حدٍّ مِن العَجزِ لا يَقدِرونَ معه على النُّطقِ في ذلك ببِنتِ شَفةٍ[1]، قال:

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: فإن لم يَأتوا بمُعارضةِ ما دَعَوْتُموهم إليه[2] فاعْلَموا وأيقِنوا أنَّما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ الله، مشتملًا على عِلْمه، ومُتَضَمِّنًا أمرَه وَنَهْيَه، واعلَموا أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ وَحدَه[3].

كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).
قال الواحدي: (هذا الذي ذكرنا من أن قولَه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ خطابٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، مذهبُ المفسِّرين وأصحابِ المعاني). ((البسيط)) (١١/ ٣٦٥).
وقيل: الخطابُ فيه للمشركين؛ أي: فإن لم يستجيبوا لكم مَن تدعونهم إلى المعاونةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾.

أي: فهل أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- مُستَسلِمونَ لله بالتَّوحيدِ، مُنقادونَ له بالطَّاعةِ، بعد ثُبوتِ الحُجَّةِ عليكم بعَجزِكم عن الإتيانِ بمِثلِ هذا القرآنِ، وتحَقُّقِكم أنَّه مِن عندِ الله[1]؟

كما قال الله سبحانه: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

الفَوائِد التربويَّة:

قال الله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ * أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ في هذه الآياتِ إرشادٌ إلى أنَّه لا ينبغي للدَّاعي إلى اللهِ أن يَصُدَّه اعتراضُ المُعترِضينَ، ولا قَدحُ القادحينَ -خصوصًا إذا كان القَدحُ لا مُستنَدَ له، ولا يَقدَحُ فيما دعا إليه- وأنَّه لا يَضيقُ صَدرُه، بل يطمئِنُّ بذلك، ماضيًا على أمرِه، مُقبِلًا على شأنِه، وأنَّه لا يجِبُ إجابةُ اقتراحاتِ المُقترِحينَ للأدلَّةِ التي يختارونَها؛ بل يكفي إقامةُ الدَّليلِ السَّالمِ عن المُعارِضِ، على جميعِ المَسائلِ والمَطالبِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢).

قال الواحدي: (﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ استفهامٌ معناه الأمرُ، كَقَولِه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾). ((الوجيز)) (ص: ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ لَمَّا كان المُوحَى به قد صار معلومًا لهم -وإن نازعوا فيه- بنى للمَفعولِ قولَه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ بَنَوه للمَفعولِ؛ لأنَّ المَقصودَ مُطلَقُ حُصولِه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ دلالةٌ على ثبوتِ الرِّسالةِ والقُرآنِ والتَّوحيدِ، ووجهُ ذلك: أنَّه لَمَّا تحدَّاهم سُبحانه بالإتيانِ بعَشرِ سُوَرٍ مِثلِه مُفتَرياتٍ- هم وجميعَ مَن يستطيعونَ مِن دونِه- فكان في مضمونِ تحدِّيه أنَّ هذا لا يقْدِرُ أحدٌ على الإتيان بمِثلِه مِن دونِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ وحينئذٍ فَعُلِمَ أنَّ ذلك مِن خصائصِ مَن أرسلَه اللهُ، وما كان مختصًّا بنوعٍ فهو دليلٌ عليه؛ فإنَّه مُستلزِمٌ له، وكلُّ مَلزومٍ دليلٌ على لازِمه -كآياتِ الأنبياء كلِّها؛ فإنَّها مختصَّةٌ بجِنسِهم- وهذا القرآنُ مختصٌّ بجِنسِهم، ومِن بينِ الجنسِ خاتَمُهم ،لا يمكِنُ أن يأتيَ به غيرُه، وكان ذلك برهانًا بيِّنًا على أنَّ اللهَ أنزله؛ وأنَّه نَزلَ بعِلمِ الله، فهو الذي أخبرَ بخبَرِه، وأمرَ بما أمرَ به، كما قال سُبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، وثبوتُ الرسالةِ ملزومٌ لثبوتِ التَّوحيدِ؛ وأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ، مِن جهة أنَّ الرسولَ أخبرَ بذلك، ومِن جهةِ أنَّه لا يقدِرُ أحدٌ على الإتيانِ بهذا القرآنِ إلَّا اللهُ، فإنَّ مِن العِلم ما لا يعلَمُه إلَّا اللهُ[٣].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٦).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ لم يُكلِّفْهم نَفْسَ الإحداثِ، بل طالَبَهم بالإتيانِ بمِثلِه، إمَّا إحداثًا، وإمَّا تبليغًا عن اللهِ أو عن مخلوقٍ. والإتيانُ بالشَّيءِ: جَلبُه، سواءٌ كان بالاسترفادِ مِن الغَيرِ أم بالاختراعِ مِن الجالبِ، وهذا توسِعةٌ عليهم في التَّحدِّي؛ ليُظْهِرَ عجزَهم مِن جميعِ الجِهاتِ[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وَصفٌ لـ ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ ونكتةُ ذِكرِ هذا الوَصفِ: التَّذكيرُ بأنَّهم أنكَروا أن يكونَ مِن عندِ اللهِ، فلمَّا عمَّم لهم في الاستعانةِ بمَن استطاعوا، أكَّدَ أنَّهم دونَ اللهِ تعالى، فإن عَجَزوا عن الإتيانِ بعَشرِ سُورٍ مِثلِه- مع تمكُّنِهم من الاستعانةِ بكُلِّ مَن عدا اللهَ- تبيَّن أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله تعالى[2].

٦- قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ فيه أنَّ هذا القُرآنَ مُعجِزٌ بنَفسِه، لا يَقدِرُ أحدٌ مِن البَشَرِ أن يأتيَ بمِثلِه، ولا بعَشرِ سُوَرٍ من مِثلِه، بل ولا بسُورةٍ مِن مِثلِه؛ لأنَّ الأعداءَ البُلَغاءَ الفُصَحاءَ تحدَّاهم اللهُ بذلك، فلم يُعارِضوه؛ لعِلمِهم أنَّهم لا قُدرةَ فيهم على ذلك[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

- قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾، التَّوقُّعُ المستَفادُ مِن (لعلَّ) مُستعمَلٌ في تحذيرِ مَن شأنُه التَّبليغُ، وعلى القول بتَقديرِ استِفهامٍ

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠-٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٨).

حُذِفَت أداتُه، والتَّقديرُ: أَلَعلَّك تارِكٌ؟! فيكونُ الاستفهامُ مُستعمَلًا في النَّفْيِ للتَّحذيرِ[1].

- قولُه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ...﴾ فيه اختيارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ضَآئِقُۢ﴾ بدلَ (ضيِّقٌ)؛ لِمُوافَقةِ قولِه قبلَه: ﴿تَارِكُۢ﴾، ولِيَدُلَّ على أنَّه ضِيقٌ عارِضٌ لا ثابتٌ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم كان أوْسَعَ النَّاسِ صدرًا، ونظيرُه قولُ القائلِ: زيدٌ سائدٌ وجائدٌ، يُريدُ به أنَّه حَدَثَ فيه السِّيادةُ والجودُ، فإنْ أُرِيدَ وصْفُه بثُبوتِهما، قيل: زيدٌ سيِّدٌ وجَوَادٌ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞ﴾ في موقِعِ العِلَّةِ للتَّحذيرِ مِن ترْكِه بعْضَ ما يُوحى إليه، وضِيقِ صَدْرِه مِن مَقالَتِهم؛ فكأنَّه قيل: لا تَترُكْ إبلاغَهم بعْضَ ما يُوحَى إليك، ولا يَضِقْ صدْرُك مِن مَقالِهم؛ لأنَّك نذيرٌ، لا وكيلٌ على تَحصيلِ إيمانِهم؛ حتَّى يترَتَّبَ على يَأسِك مِن إيمانِهم ترْكُ دعوتِهم[3].

- والقَصْرُ فيه بـ﴿إِنَّمَآ﴾ قصرٌ إضافيٌّ؛ أي: أنتَ نذيرٌ، لا موكَّلٌ بإيقاعِ الإيمانِ في قُلوبِهم؛ إذْ ليس ذلك إليكَ بل هو للَّه[4].

- واقتصَرَ على النِّذارةِ؛ لأنَّ المقامَ يقتضيها؛ من أجلِ أنَّهم أهلٌ لها[5].

- وجملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ تذييلٌ لقولِه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، وهي مَعطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞ﴾؛ لِما اقتَضاه القَصرُ مِن إبطالِ أن يكونَ وَكيلًا على إلجائِهم للإيمانِ، ومِمَّا شَمِلَه عُمومُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٧).

﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ أنَّ اللهَ وكيلٌ على قلوبِ المكذِّبين، وهم المقصودُ، وإنَّما جاء الكلامُ بصِيغةِ العُمومِ؛ لِيَكونَ تَذييلًا، وإتيانًا للغرَضِ بما هو كالدَّليلِ[(١)].

- ولَمَّا كان السِّياقُ لإحاطتِه سُبحانه، قدَّمَ قولَه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾[(٢)].

٢- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ للتَّوبيخِ والإنكارِ والتَّعجُّبِ، والتَّقديرُ: بل أيَقولون: افتَراه؟! والإضرابُ بقولِه: ﴿أَمْ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ في قُوَّةِ الاستئنافِ الابتدائيِّ، فلِلجُملَةِ حُكمُ الاستئنافِ، والمناسَبةُ ظاهرةٌ؛ لأنَّ الكلامَ في إبطالِ مَزاعِمِ المشرِكين- فإنَّهم قالوا: هذا كلامٌ مُفترًى- وقَرْعِهم بالحُجَّةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾، ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ أي: أمثالِه، وعُبِّرَ بالمُفردِ إمَّا باعتبارِ مُماثَلةِ كلِّ واحدٍ منها، أو لأنَّ المطابقةَ ليسَت بشَرطٍ حتَّى يُوصَف المثنَّى بالمفرَدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾، أو للإيماءِ إلى أنَّ وجهَ الشَّبَهِ ومَدارَ المماثلةِ في الجميعِ شيءٌ واحدٌ؛ هو البلاغةُ المؤدِّيةُ إلى مَرتَبةِ الإعجازِ، فكأنَّ الجميعَ واحدٌ[(٤)].

- وقولُه: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صِفةٌ أُخرَى لـ﴿سُوَرٍ﴾، وأُخِّرَت عن وصْفِها بالمماثَلةِ لِما يُوحَى؛ لأنَّ المماثلةَ هي الصِّفةُ المقصودةُ بالتَّكليفِ؛ إذْ بها يَظهَرُ عجزُهم وقُعودُهم عن المعارَضةِ، وأمَّا وصفُ الافتراءِ فلا يتَعلَّقُ به غرَضٌ يَدورُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١).

شيءٌ في مَقامِ التَّحدِّي، وإنَّما ذُكِر على نَهْجِ المُساهَلةِ، وإرخاءِ العِنانِ، ولأنَّه لو عُكِس التَّرتيبُ لرُبَّما تُوُهِّم أنَّ المرادَ هو المماثلةُ في الافتراءِ[١].

- وجوابُ الشَّرطِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المذكورِ عليه، وهو قولُه: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾، ووجهُ الملازَمةِ بينَ الشَّرطِ وجَزائِه أنَّه إذا كان الافتراءُ يأتي بهذا القرآنِ؛ فما لكم لا تَفترون أنتم مِثلَه، فتَنهَضَ حُجَّتُكم[٢]؟!

٣- قولُه تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ تفريعٌ على ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾، والاستجابةُ: الإجابةُ، والسِّينُ والتَّاءُ فيه للتَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ فيه جمعُ الخطابِ بعدَ إفرادِه في قولِه: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مَعْناه: فإنْ لَم يَستَجيبوا لك وللمُؤمِنين؛ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم والمؤمنين كانوا يَتَحَدَّوْنهم[٤]، أو لأنَّهم أتباعٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأمْرِ بالتَّحدِّي، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ حقَّهم أنْ لا يَنفَكُّوا عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُناصِبوا معه لِمُعارَضةِ المعارِضينَ كما كان يَفعَلونه في الجِهادِ، وإرشادٌ إلى أنَّ ذلك مِمَّا يُفيدُ الرُّسوخَ في الإيمانِ، والطُّمأنينةَ في الإيقانِ، ولذلك رُتِّب عليه قولُه عزَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٣).

وجلَّ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ ...﴾[(١)].

- وعلى القول بأنَّ المعنى: فإن لم تستَجِبْ لكم آلهتُكم، وسائرُ مَنْ إليهم تَجْأَرون في مُهِمَّاتِكم ومُلِمَّاتِكم إلى المعاوَنةِ والمظاهَرَةِ؛ فاعلَموا أنَّ ذلك خارِجٌ عن دائرةِ قُدْرةِ البشَرِ، وأنَّه مُنزَّلٌ مِن خالِقِ القُوى والقُدَرِ؛ فيكونُ إيرادُ كَلِمةِ الشَّكِّ حينَئذٍ مع الجزْمِ بعدَمِ الاستجابةِ من جِهَةِ آلهتِكم تهكُّمًا بهم، وتَسجيلًا عليهم بكمالِ سَخافةِ العقلِ[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ بحَذفِ النُّونِ والجَمعِ، وأمَّا في سورةِ القَصصِ فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ﴾ [القصص: ٥٠] على الواحِدِ؛ ووجهُ جمعِ الخِطابِ هاهنا وتوحيدِه في القصَصِ: أنَّ ما في هذه السُّورةِ خِطابٌ للرَّسولِ وللمؤمنِينَ، ويجوز أنْ يكون الجمعُ لتَعظيم رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. وقيل: لأنَّه خِطابٌ للكفَّارِ، والفعلَ يَعودُ لـ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ - على أحد أوجه التفسير - وأمَّا ما في القَصصِ فهو خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، والفِعلُ للكفَّارِ[(٣)].

- والفاءُ في ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ للتَّفْريعِ على ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في الحثِّ على الفعلِ وعدَمِ تأخيرِه، والمعنى: فهل تُسْلِمون بعدَ تَحقُّقِكم أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ[(٤)]؟ وقيل: قَولُ الله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: أسلِموا، وفي مثلِ هذا الاستفهامِ إيجابٌ بليغٌ؛ لِما فيه من

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٠٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢).

معنى الطَّلَبِ، والتنبيهِ على قيامِ المُوجِبِ، وزوالِ العُذرِ[١].

- وجِيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ الدَّالةِ على دَوامِ الفعلِ وثَباتِه؛ لِتأكيدِ الطَّلَبِ لهذا الوصفِ؛ فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ أدَلُّ على حُصولِ المطلوبِ وثُبوتِه، وهو أدَلُّ على طلَبِه، ولَم يَقُلْ: (فهَل تُسلِمون)؛ لأنَّ حالةَ عدَمِ الاستجابةِ تُكسِبُ اليقينَ بصِحَّةِ الإسلامِ، فتَقْتَضي تَمكُّنَه مِن النُّفوسِ، وذلك التَّمكُّنُ تَدُلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢).

الآيات (١٥-١٧)

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا
يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا
وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ
مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ
ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ﴾: أي: نُوصِلْها إليهم وافيةً كاملةً، وأصلُ (وفي): يدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[(١)].

﴿يُبۡخَسُونَ﴾: أي: يُنقصونَ، والبخسُ: نقصُ الشيءِ على سبيلِ الظُّلم، وأصلُ (بخس): النَّقصُ[(٢)].

﴿مِرۡيَةٖ﴾: أي: شكٍّ، وقيل: المريةُ: التردُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِن الشكِّ[(٣)].

المعنَى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ سُبحانه سوءَ مَصيرِ الذين لا يُريدونَ بأقوالِهم وأعمالِهم وجهَ اللهِ تعالى،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

فيقولُ: من كان يُريدُ بعَمَلِه الحياةَ الدُّنيا ومُتَعَها، نُعطِهم ما قُسِمَ لهم مِن ثوابِ أعمالِهم في الحياةِ الدُّنيا، كاملًا غيرَ مَنقوصٍ، أولئك ليس لهم في الآخرةِ إلَّا نارُ جهنَّمَ، يُقاسونَ حَرَّها، وذهَب عنهم نَفْعُ ما عَمِلوه، وباطلٌ ما كانوا يعملون مِن الخيرِ؛ لأنَّه لم يكُن لِوَجهِ الله.

ثم يقولُ تعالى: أفمَن كان على بينةٍ مِن رَبِّه، ويَتْبَعُه شاهِدٌ آخَرُ مِن اللهِ، يوافِقُ هذه البينةَ ويَتْبَعُها -وهو القُرآن- وشاهِدٌ آخَرُ مِن قَبلِ القرآنِ، وهو التَّوراةُ- الكتابُ الذي أُنزِلَ على موسى إمامًا ورحمةً لِمَن آمن به- كمن كان همُّه الحياةَ الفانيةَ بزينتِها؟ أولئك يصدِّقونَ بهذا القُرآنِ، ويَعمَلونَ بأحكامِه، ومَن يكفُرْ بهذا القرآنِ مِن الذين تحزَّبوا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فجزاؤه النَّارُ يَرِدُها لا محالةَ، فلا تكُنْ- أيُّها الرَّسولُ- في شَكٍّ مِن أمرِ القُرآنِ، وكَونِه مِن عندِ الله تعالى بعد ما شَهِدَت بذلك الأدلَّةُ والحُجَجُ، واعلَمْ أنَّ هذا القرآنَ هو الحَقُّ مِن ربِّك، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمنونَ بأنَّه حَقٌّ مِن عندِ الله؛ عنادًا واستكبارًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سبق فيه مِن الحَثِّ على الثَّباتِ على الإسلامِ والدُّخولِ فيه، والوعيدِ على التقاعُسِ عنه ما مِن حَقِّ السَّامعِ أن يُبادِرَ إليه، وكان حقُّ المُسلِمِ الإعراضَ عن الدُّنيا؛ لسُوءِ عاقِبتِها، وكان أعظَمُ الموانعِ للمُشرِكينَ مِن التَّصديقِ استيلاءَ أحوالِ الدُّنيا عليهم، ولذلك تعنَّتوا بالكَنزِ- أشار هنا إلى عواقبِ ذلك[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥١).

وأيضًا فإنَّه بعدَ أن قامت الحُجَّةُ القَطعيَّةُ على إعجازِ القُرآنِ، وحقِّيَّةِ دعوةِ الإسلامِ، بما يقطَعُ ألسِنةَ المُفترَينَ، ويُبطِلُ مَعاذيرَهم؛ بيَّن لهم في هذه الآيةِ والتي تليها الصَّارِفَ النَّفسيَّ لهم عنه، وكونَه شَرًّا لهم لا خيرًا، وهو أنَّه لا حَظَّ لهم من حياتِهم إلَّا شَهواتُ الدُّنيا وزينتُها، والإسلامُ يَدعوهم إلى إيثارِ الآخرةِ على الأُولَى(١).

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾.

أي: من كان يَقصِدُ بسَعيِه وأعمالِه الصَّالحةِ الحياةَ الدُّنيا وزِينتَها، نُعطِه ثوابَ أعمالِه فيها كامِلًا، كسَعةِ الرِّزقِ، ودَفعِ المَكارِه وغيرِ ذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾[الإسراء: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[الشورى: ٢٠].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٧٦)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٣، ١٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٢).
ذهَب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ هذه الآيةَ خاصَّةٌ بالكُفَّارِ الذين يريدونَ بأعمالِهم الدُّنيا وزينَتَها، وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزيٍّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).
وممن قال به مِن السلفِ: قتادةُ والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦).
وقيل: الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ مَن ينوي بعَمَلِه غيرَ الله تعالى، سواء كان معه أصلُ إيمانٍ أو لم يكُن. قاله مجاهد وميمون بن مهران، وإليه ذهب معاوية وقال ابنُ الجوزي: (وهو قولُ الأكثرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مُؤمِنًا حَسَنةً؛ يُعطَى بها في الدُّنيا، ويُجزَى بها في الآخرةِ، وأمَّا الكافِرُ فيُطعَمُ بحَسَناتِ ما عَمِلَ بها لله في الدُّنيا، حتى إذا أفضَى إلى الآخرةِ لم تكُن له حَسَنةٌ يُجزى بها))[1].

وعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه، أنَّ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أولَ الناسِ يُقضى[2] يومَ القيامَةِ عليه، رجُلٌ استُشهِد، فأتى به فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: قاتَلتُ فِيكَ حتى استُشهِدتُ، قال: كذَبتَ، ولكنَّكَ قاتَلتَ لِأَنْ يُقالَ: جَريءٌ. فقد قيل، ثم أمَر به فسُحِب على وجهِه حتى أُلقِيَ في النارِ. ورجُلٌ تعلَّم العِلمَ وعلَّمه، وقرَأ القرآنَ، فأُتِي به، فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلمَ وعلَّمتُه، وقرَأتُ فيكَ القرآنَ، قال: كذَبتَ، ولكنَّكَ تعلَّمتَ العِلمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقرَأتَ القُرآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقد قيل، ثم أمَر به فسُحِبَ على وجهِه حتى أُلقِيَ في النارِ. ورجُلٌ وسَّع اللهُ عليه، وأعطاه مِن أصنافِ المالِ كلِّه، فأتَى به فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: ما ترَكتُ مِن سبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنفَقَ فيها إلَّا أنفقتُ فيها لكَ، قال: كذَبتَ، ولكنَّكَ فعَلتَ لِيُقالَ هو جَوَادٌ، فقد قيل، ثم أمَر به فسُحِب على وجهِه، ثم أُلقِي في النارِ))[3].

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

أي: ولا يَنقُصُهم اللهُ ثوابَ أعمالِهم الصَّالحةِ في الدُّنيا[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٨).

(٢) يُقضَى: أي: يُحاسَبُ، ويُسألُ عن أفعالِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حال من يريدُ الحياةَ الدُّنيا في الدُّنيا؛ بيَّنَ حالَهم في الأُخرَى[1]، فقال:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾.

أي: أولئك الذين يُريدونَ بأعمالِهم الصَّالحةِ الحياةَ الدُّنيا وزِينتَها، لا يكونُ لهم في الآخرةِ إلَّا النَّارُ، فيصلَونَها[2].

عن أُبيِّ بنِ كعبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ[3] والرِّفعةِ، والدِّينِ والنَّصرِ، والتَّمكينِ في الأرضِ، فمَن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٤).

قال الشوكاني: (الإشارةُ إلى المُريدينَ المذكورينَ، ولا بدَّ مِن تقييدِ هذا بأنَّهم لم يُريدوا الآخرةَ بشَيءٍ من الأعمالِ المعتَدِّ بها المُوجبةِ للجَزاءِ الحسَن في الدار الآخرةِ، أو تكونُ الآيةُ خاصَّةً بالكفَّار). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٤).

قال ابنُ القيم بعد أن ذكَر أنَّ هذه الآيةَ أشكَل فهمُها على كثيرٍ مِن الناسِ، وذكَر الخلافَ في معناها، قال: (والآيةُ بحمدِ الله لا إشكالَ فيها، والله سبحانه ذكر جزاءَ من يريدُ بعَمَله الحياةَ الدُّنيا وزينتها- وهو النَّارُ- وأخبَرَ بحُبوطِ عَمَله وبُطلانِه، فإذا أُحبِط ما ينجو به وبطل، لم يبقَ معه ما يُنجيه، فإن كان معه إيمانٌ لم يُرِدْ به الدُّنيا وزينتَها، بل أراد اللهَ به والدارَ الآخرة، لم يدخُل هذا الإيمانُ في العمل الذي حَبِطَ وبطل، وأنجاه إيمانُه من الخلودِ في النار، وإن دخلها بحُبوطِ عَمَلِه الذي به النَّجاةُ المُطلقةُ، والإيمانُ إيمانان: إيمانٌ يمنع من دخول النَّارِ، وهو الإيمانُ الباعِثُ على أن تكونَ الأعمالُ لله، يُبتغى بها وجهُه وثوابُه، وإيمانٌ يمنع الخلودَ في النارِ، وإن كان مع المرائي شيءٌ منه، وإلَّا كان من أهل الخلودِ، فالآية لها حُكم نظائِرِها من آياتِ الوعيدِ، والله الموفِّق). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦٥- ١٦٦).

(٣) بالسَّناءِ:أي: بارتِفاعِ المَنزلةِ والقَدْرِ عند الله تعالى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٤).

عَمِلَ منهم عمَلَ الآخرةِ للدُّنيا، لم يكُن له في الآخرةِ نَصيبٌ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من تعلَّم علمًا ممَّا يُبتَغَى به وجهُ الله، لا يتعلَّمُه إلاَّ ليُصيبَ به عرَضًا(٢) منَ الدُّنيا؛ لم يجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ)) يعني: رِيحَها(٣).

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾.

أي: وذهبَ وبطَلَ ما عَمِلوا من الأعمالِ الصَّالحةِ في الدُّنيا، فلا يُثابون عليها في الآخرةِ(٤).

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وباطلٌ ما كانوا يعملونَه مِن الخيرِ لغَيرِ اللهِ، فلا ينفَعُهم عندَ الله(٥).

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: سمعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما الأعمالُ بالنيَّةِ، وإنَّما لامرئٍ ما نوى، فمن كانت هِجرتُه إلى اللهِ ورَسولِه فهِجرتُه إلى الله ورسولِه، ومن كانت هِجرتُه لدنيا يصيبُها أو امرأةٍ

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) واللفظ له، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٧٨٦٢).
قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): رجالُه رجالُ الصحيحِ، ووثَّق رواته البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥).

(٢) عَرَضًا: العَرَضُ: مَتاعُ الدُّنيا وحُطامُها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢١٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد (٨٤٥٧).
صحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (١/ ٢٣)، وابنُ تيمية في ((شرح حديثِ جبريلَ)) (٥٨٥)، والذهبيُّ في ((الكبائر)) (٢٨٤)، وجوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٨٩)، وصحَّح إسناده الهيتميُّ المكي في ((الزواجر)) (١/ ٤١)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٤).

يتزَوَّجُها فهِجرتُه إلى ما هاجرَ إليه))(١).

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

تعَلُّقُ هذه الآيةِ بما قَبلَها ظاهِرٌ، فالتَّقديرُ: أفمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه، كمَن يريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها وليس لهم في الآخرةِ إلَّا النَّارُ، إلَّا أنَّه حُذِف الجوابُ لِظُهورِه(٢).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ من يريدُ الحياةَ الدُّنيا، ذكَرَ حالَ مَن يريدُ وَجهَ اللهِ تعالى بأعمالِه الصَّالحةِ(٣).

وأيضًا لَمَّا اتَّضَحت الحُجَجُ، وانتهَضَت الدَّلائلُ، كان ذلك موضِعَ الإنكارِ على مَن يُسَوِّي بينَ المُهتَدي والمُعتَدي(٤).

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾.

أي: أفمَن(٥) كان على بيِّنةٍ(٦) مِن رَبِّه، ويَتبَعُه شاهِدٌ آخَرُ مِن اللهِ يوافِقُ هذه

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)، واللفظ له.
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥٢).
(٥) قال ابنُ تيمية: (أمَّا مَن قال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: إنَّه محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم -كما قاله طائفةٌ مِن السلفِ- فقد يريدون بذلك التمثيلَ لا التخصيص؛ فإنَّ المفسرينَ كثيرًا ما يريدونَ ذلك، ومحمدٌ هو أولُ مَن كان على بينةٍ مِن ربِّه، وتلاه شاهدٌ منه، وكذلك الأنبياءُ، وهو أفضلُهم وإمامُهم، والمؤمنونَ تبعٌ له، وبه صاروا على بينةٍ مِن ربِّهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٨١).
(٦) قيل: المرادُ بها: الفطرةُ على التوحيدِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير))

البينةَ ويَتْبَعُها، وهو القرآنُ الذي شَهِدَ اللهُ فيه بِمْثلِ ما عليه المؤمِنُ من بيِّنةٍ[(١)].

(٤/ ٣١١).

وقيل: المرادُ بها: القرآنُ. وممن قال بذلك: ابنُ القيم، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وقيل: المرادُ بالبينةِ: هدَى الإيمانِ، والبصيرةُ في الدينِ، والعلمُ النافع. وهذا محصلةُ ما قاله ابنُ تيميةَ عن البينةِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٦٩) و (١٥/ ٦٢، ٧١، ٧٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٦٩) و (١٥/ ٦٤ – ٦٨، ٧١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١١).

وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ مِن أنَّ المرادَ بالشاهِدِ: هو القرآنُ: ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

ومِن المفسِّرين مَن جعَل الشاهدَ هو جبريلَ عليه السلامُ. ومنهم: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٢).

ومنهم مَن جعَل الشاهدَ هو الفطرةُ المستقيمةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وقيل: الشاهدُ هو القرآنُ يشهدُ بكونِه مِن عندِ الله تعالى. وممن قال بذلك: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٣).

ومثله قولُ ابن القيم حيث قال: (القرآنُ العظيمُ قد اجتَمع فيه ما لم يجتمعْ في غيرِه، فإنَّه هو الدعوةُ والحجةُ، وهو الدليلُ والمدلولُ عليه، وهو الشاهدُ والمشهودُ له، وهو الحكمُ والدليلُ، وهو الدعوَى والبينةُ، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: مِن ربِّه، وهو القرآنُ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٣٥).

قال الواحدي: (قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧] يعني النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِ عامةِ المفسِّرين، قال ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ على يقينٍ وبيانٍ. ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] وهو جبريلُ عليه السلامُ في قولِ أكثرِ المفسِّرين، قال ابنُ قتيبةَ: والشاهدُ مِن الله لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كِتابُ مُوسَى. يعني: التوراةَ، يتلوه أيضًا في التصديقِ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشَّر به موسى في التوراةِ). ((الوسيط)) (٢/ ٥٦٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: وجاءَه شاهدٌ مِن الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياءِ مِن الشرائعِ المطهرةِ المكملةِ المعظَّمةِ، المختتمةِ بشريعةِ محمَّد، صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو العاليةِ، والضحَّاك، وإبراهيمُ النخعيُّ، والسُّديُّ، وغيرُ واحد في قولِه تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: إنَّه جبريلُ عليه السلامُ. وعن عليٍّ، والحسنِ، وقتادةَ: هو محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. وكلاهما قريبٌ في المعنى؛ لأنَّ كلًّا من جبريلَ ومحمدٍ صلواتُ الله عليهما، بلَّغ رسالةَ الله تعالى، فجبريلُ

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.

أي: وشاهدٌ آخَرُ مِن قَبلِ القُرآنِ، وهو التَّوراةُ التي أنزَلَها اللهُ على نبيِّه موسى إمامًا لبني إسرائيلَ؛ يَأْتمُّونَ بها ويَتَّبِعونها، ورحمةً مِن الله بهم(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: أولئك الذين على بيِّنةٍ من ربِّهم يُؤمِنونَ بالقُرآنِ حقًّا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

أي: ومَن يكفُرْ بالقُرآنِ مِن أهلِ المِلَلِ كُلِّها، فالنَّارُ مَوعِدُه يومَ القيامةِ، فيكونُ مِن أهلِها(٣).

إلى محمدٍ، ومحمدٌ إلى الأمةِ. وقيل: هو عليٌّ. وهو ضعيفٌ لا يثبتُ له قائلٌ، والأوَّل والثاني هو الحقُّ؛ وذلك أنَّ المؤمن عنده مِن الفطرة ما يشهدُ للشريعةِ مِن حيثُ الجملةُ، والتفاصيلُ تؤخذُ مِن الشريعةِ، والفطرةُ تصدِّقُها وتؤمنُ بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وهو القرآنُ، بلَّغه جبريلُ إلى النبيِّ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبلَّغه النبيُّ محمدٌ إلى أمتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

قال ابنُ جرير: (وفي الكلامِ مَحذوفٌ قد تُرِكَ ذِكرُه؛ اكتفاءً بدَلالةِ ما ذُكِرَ عليه منه، وهو: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ كمَن هو في الضَّلالةِ مُتَردِّدٌ، لا يهتدي لرُشدٍ، ولا يعرِفُ حَقًّا مِن باطلٍ، ولا يطلبُ بعَمَلِه إلَّا الحياةَ الدُّنيا وزينتَها؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٥، ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧)، ((مجموع الفتاوى))

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((والذي نفسُ محمَّدٍ بيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرسِلتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النَّارِ))(١).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾.

أي: فلا تكنْ في شكٍّ- يا محمَّدُ- مِن أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، وأنَّ مَن كذَّب به فالنَّارُ مَوعِدُه(٢).

كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢].

﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ الذي أنزَلْناه إليك -يا محمَّدُ- حقٌّ من عندِ رَبِّك، لا شكَّ في ذلك(٣).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بأنَّ القُرآنَ حقٌّ مِن عندِ اللهِ، إمَّا جهلًا

لابن تيمية (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤٥).

قال ابنُ قتيبة: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ غيرُه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٢٧).

وقال القرطبي: (والخِطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ جميعُ المُكلَّفين). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٥).

وتقليدًا للمَتبوعينَ، وإمَّا عِنادًا واستكبارًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن كانتِ الدُّنيا مُرادَه ولها يَعمَلُ، وهي غايةُ كَدْحِه؛ لم يكنْ له في الآخرةِ نَصيبٌ، ومَن كانتِ الآخرةُ مرادَه ولها عمَلُه، وهي غايةُ سَعيِه؛ فهي له[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الناويَ الجازِمَ، الآتيَ بما يُمكِنُه؛ فإنَّه بمنزلةِ الفاعلِ التَّامِّ، وقد دلَّ قولُه: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾، وقولُه: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ على أنَّه كان لهم أعمالٌ بطلتْ، وعُوقِبوا على أعمالٍ أُخرَى عمِلوها، وأنَّ الإرادةَ هنا مستلزمةٌ للعملِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لما كان الذي يمنعُ الإنسانَ مِن اتباعِ الرسولِ شيئانِ: إمَّا الجهلُ، وإمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٤٤).

فسادُ القصدِ؛ ذكَر ما يزيلُ الجهلَ، وهو الآياتُ الدالةُ على صدقِه، بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ...﴾ ثمَّ ذكَر أهلَ فسادِ القصدِ بقولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ...﴾ فهؤلاء أهلُ فسادِ القصدِ، فهذان الأمرانِ هما المانعانِ للخلقِ مِن اتباعِ هذا الرسولِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: معنى هذه الآيةِ قَولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ))[٢]، وفيها دلالةٌ على أنَّ مَن صام في رمضانَ لا عن رمضانَ، لا يقَعُ عن رَمَضانَ، وعلى أنَّ من توضَّأَ للتبَرُّدِ والتنظُّفِ، لا يقَعُ قُربةً عن جهةِ الصَّلاةِ، وهكذا كلُّ ما كان في معناه[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ أي: هُدَى الإيمانِ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: القرآنُ شاهدٌ مِن الله يُوافقُ الإيمانَ ويتبعُه؛ لذا قال: (يَتْلُوهُ)؛ لأنَّ الإيمانَ هو المقصودُ؛ لأنَّه إنَّما يُراد بإنزالِ القرآنِ الإيمانُ وزيادتُه، ولهذا كان الإيمانُ بدونِ قراءةِ القرآنِ ينفعُ صاحبَه، ويدخلُ به الجنةَ، والقرآنُ بلا إيمانٍ لا ينفعُ في الآخرةِ، بل صاحبُه منافقٌ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ لَمَّا كان كتابُ موسى سببًا للرَّحمةِ، أطلَق اسمَ الرَّحمةِ عليه إطلاقًا لاسمِ المُسبَّبِ على السَّبَبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (١) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٠).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: لَمَّا دلَّت الآيةُ على أنَّ من يكفُر به كانت النَّارُ مَوعِدَه، دلَّ على أنَّ مَن لا يكفُر به كانت الجنَّةُ مَوعِدَه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾

- قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ فيه إدخالُ (كان) عليه؛ للدَّلالةِ على استِمْرارِها منهم بحيثُ لا يَكادون يُريدون الآخِرةَ أصلًا(٢)، وفِعلُ الشَّرطِ في المَقامِ الخِطابيِّ يُفيدُ اقتِصارَ الفاعِلِ على ذلك الفِعْلِ، فالمعنى: مَن كان يُريدُ الحياةَ الدُّنْيا فقَط؛ بقرينةِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾؛ إذْ حصَر أمْرَهم في استحقاقِ النَّارِ، وهو مَعْنى الخلودِ(٣)، وهذا على أحدِ القولين في الآيةِ.

- قولُه تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ فيه إطلاقُ الأعمالِ في ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وإرادةُ ثَمراتِها؛ فالمعنى: نُوصِلُ إليهم ثَمراتِ أعمالِهم في الحياةِ الدُّنيا كامِلةً(٤).

- ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن النَّقصِ بالبَخْسِ -حيث قال: ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ بدَلَ (لا يُنقَصون)- وإنَّما عبَّر عن ذلك بالبَخْسِ الَّذي هو نَقْصُ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).

الحقِّ، مع أنَّه ليس لهم شائِبةُ حقٍّ فيما أُوتوه، كما عبَّر عن إعطائِه بالتَّوْفيَةِ الَّتي هي إعطاءُ الحقوقِ، مع أنَّ أعمالَهم بمَعزِلٍ عن كونِها مُستوجِبةً لذلك؛ بِناءً للأمرِ على ظاهِرِ الحالِ، ومُحافَظةً على صُوَرِ الأعمالِ، ومُبالَغةً في نفْيِ النَّقْصِ؛ كأنَّ ذلك نقصٌ لحُقوقِهم، فلا يَدخُلُ تحتَ الوُقوعِ والصُّدورِ عن الكريمِ أصلًا[١].

- وكرَّرَ لفظَ (فيها) للتَّأكيدِ والإعلامِ بأنَّ الآخرةَ ليست كالدُّنيا في وفاءِ كَيلِ الجزاءِ وفي بَخسِه؛ فإنَّه فيها مَنوطٌ بأمرينِ: كسبُ الإنسانِ، ونِظامُ الأقدارِ، وقد يتعارضانِ، وأمَّا جزاءُ الآخرةِ فهو بفِعلِ اللهِ تعالى مباشرةً: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٢] [الكهف: ٤٩].

٢- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ مُستأنَفةٌ، ولكنَّ اسْمَ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يَربِطُ بينَ الجُملتَينِ، وأُتي باسْمِ الإشارةِ؛ لِتَمييزِهم بتلك الصِّفاتِ المذكورةِ قبْلَ اسْمِ الإشارةِ. وأيضًا في اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المشارَ إليه استَحقَّ ما يُذكَرُ بعدَه مِن الحُكْمِ، مِن أجْلِ الصِّفاتِ الَّتي ذُكِرت قبلَ اسْمِ الإشارةِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزِلَتِهم في سوءِ الحالِ، أي: أولئك المُريدون للحياةِ الدُّنيا وزينَتِها المُوَفَّوْن فيها ثَمراتِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤، ٢٥).

أعمالِهم مِن غَيرِ بَخْسٍ[(١)].

- وفي زِيادةِ (كان) في الثاني ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ الأوَّلِ ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ صُدورَ أعمالِ البِرِّ منهم وإنْ كان لغَرَضٍ فاسدٍ، ليس في الاستمرارِ والدَّوامِ كصُدورِ الأعمالِ التي هي مِن مُقدِّماتِ مَطالبِهم الدَّنيَّة[(٢)].

٣- قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فيه إيرادُ الفاءِ بعدَ الهمزةِ في ﴿أَفَمَن﴾؛ لإنكارِ تَرتُّبِ توهُّمِ المماثَلةِ على ما ذُكِرَ مِن صِفاتِهم وعُدِّدَ مِن هَنَاتِهم؛ كأنَّه قيل: أبَعْدَ ظُهورِ حالِهم في الدُّنيا والآخِرَةِ كما وُصِف يُتَوهَّمُ المماثَلةُ بينَهم وبينَ مَن كان على أحسَنِ ما يكونُ في العاجلِ والآجلِ[(٣)]؟!

- قولُه: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ فيه تخصيصُ التَّوراةِ بالذِّكْرِ؛ قيل: وذلك لأنَّ المِلَّتَين (اليَهودَ والنَّصارى) مُجتمِعتانِ على أنَّها مِن عندِ اللهِ، والإنجيلُ يُخالِفُ فيه اليهودُ؛ فكان الاستِشهادُ بما تقومُ به الحُجَّةُ على الفَريقين أَوْلى[(٤)]، وأيضًا لأنَّ التوراةَ هي الأصلُ، والإنجيلُ تبعٌ لها في كثيرٍ مِن الأحكامِ، وإن كان مغايِرًا لبعضِها[(٥)].

- وذكرُ اسمِ الإشارةِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يُشبِهُ ذكرَ ضَميرِ الفصلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٥).

وفيه تَنبيهٌ على أنَّ ما بعدَه من الخبرِ مُسبَّبٌ على ما قبل اسمِ الإشارةِ من الأوصافِ، وهي كونُهم على بيِّنةٍ مِن ربِّهم مُعضَّدةٍ بشواهدَ من الإنجيلِ والتوراةِ[١].

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تفريعٌ على جُملةِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾، والخطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، والنَّهيُ مُستعمَلٌ كنايةً تَعريضيَّةً بالكافِرين بالقُرآنِ؛ لأنَّ النَّهيَ يَقْتَضي فَسادَ المنهيِّ عنه ونَقْصَه، فمِن لَوازِمِه ذَمُّ المتلبِّسِ بالمنهيِّ عنه، ولَمَّا كان المخاطَبُ غيرَ مَظِنَّةٍ للتَّلبُّسِ بالمنهيِّ عنه فيُطلَبَ مِنه تَرْكُه، ويَكونُ النَّهيُ طلَبَ تَحصيلِ الحاصلِ، تَعيَّنَ أن يَكونَ النَّهيُ غيرَ مُرادٍ به الكَفُّ والإقلاعُ عن المنهيِّ عنه، فيكونُ مُستعمَلًا في لازِمِ ذلك بقرينةِ المَقامِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مُستأنَفٌ تأكيدًا لِما دلَّت عليه جُملةُ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، مِن أنَّه لِوُضوحِ حَقيقتِه لا يَنبَغي أن يُمترَى في صِدْقِه، وحَرفُ التَّأكيدِ يقومُ مقامَ الأمرِ باعتقادِ حَقيَّتِه؛ لِمَا يَدُلُّ عليه التَّأكيدُ مِن الاهتمامِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، اخْتِيرَ النَّهيُ عن المِرْيَةِ دونَ النَّهيِ عن اعتِقادِ أنَّه كذِبٌ، كما هو حالُ المشرِكين؛ لأنَّ النَّهيَ عنِ الامْتِراءِ فيه يقتَضي النَّهيَ عن الجزْمِ بالكذِبِ بالأَوْلى، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما فيه المشرِكون مِن اليقينِ بكَذِبِ القرآنِ أشَدُّ ذمًّا وشَناعةً[٤].

- وتعريفُ ﴿الْحَقُّ﴾؛ لإفادةِ قَصْرِ جِنْسِ الحقِّ على القرآنِ، وهو قَصرُ مُبالَغةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لكمالِ جِنسِ الحقِّ فيه، حتَّى كأنَّه لا يوجَدُ حقٌّ غيرُه، مثلَ قولِك: حاتِمٌ الجَوادُ(١).

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ استدراكٌ ناشئٌ على حُكمِ الحصْرِ؛ فإنَّ الحصْرَ يَقتَضي أن يُؤمِنَ به كلُّ مَن بلَغَه، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يؤمنون، وحذَف مُتعلِّقَ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ المرادَ انتفاءُ حقيقةِ الإيمانِ عنهم في كلِّ ما طُلِب الإيمانُ به مِن الحقِّ(٢).

- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في آخِرِ هذه السُّورةِ -بعدَ قولِه: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨]-: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ﴾ [هود: ١٠٩]، وقال في سورةِ السَّجدةِ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة: ٢٣]، بإثباتِ نونِ (تكُنْ)، وحذْفِها في آيَتَيْ سورةِ هودٍ، ومناسَبةُ هذا الاختلافِ: أنَّ العرَبَ تصرَّفَت في (يَكونُ) عِندَ دُخولِ الجازِمِ عليها تَصرُّفًا لم تَفعَلْه في نَظائِرِها وما يُشبِهُها، فيَكونُ الوجهُ في (يكونُ) عندَ دخولِ الجازمِ عليها تَسْكينَ النُّونِ؛ فتُحذَفُ الواوُ عندَ الْتِقاءِ السَّاكِنَينِ كما ورَد في سورةِ السَّجدةِ، إلَّا أنَّ حذْفَ النُّونِ في (يكونُ) مِن فَصيحِ كَلامِهم ما لم تَكُنْ مُتحرِّكةً، فإن كانت مُتحرِّكةً لم تُحذَفْ لِقُوَّتِها بالحرَكةِ، وإن كانت عارِضةً كقولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة: ١]، ولا تُحذَفُ هذه إلَّا في الشِّعرِ؛ فورَد في سورةِ هودٍ على ما اعتَمَدوه مِن تخفيفِ هذا اللَّفظِ؛ لِيُناسِبَ بذلك إيجازَ الكلامِ المتعلِّقِ بقولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [هود: ١٧]، والمتَّصِلِ به تَمامُه تمامُ مَعنى المقصودِ، وذلك

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣١).

قولُه: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وكذلك قولُه في آخِرِ السُّورةِ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: ١٠٩] إلى قولِه: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]. وورَد في سورةِ السَّجدةِ على أصْلِ الكلمةِ قبلَ حذْفِها، فقيل: ﴿فَلَا تَكُن﴾؛ لِيَجري ذلك مع ما ورَد في هذه السُّورةِ مِن طولِ الكلامِ المتعلِّقِ بقولِه: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة: ٢٣]؛ فنُوسِبَ الإيجازُ بالإيجازِ والطُّولُ بالطُّولِ[١].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).

الآيات (١٨-٢٤)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ
وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ
(١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (١٩)
أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ
يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ (٢٠)
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟
إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٣) ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ
كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصُدُّونَ﴾: أي: يُعرِضون وينصرِفون، أو يصرِفون غيرَهم، والصدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غير مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى يصَدُّون غيرَهم، وأصلُ (صدد): إعراضٌ وعدولٌ[(١)].

﴿عِوَجًا﴾: أي: زيغًا وتحريفًا وضلالًا، واعوجاجًا في الدِّين، وأصل (عوج): الميلُ في الشيءِ[(٢)].

﴿لَا جَرَمَ﴾: أي: حقًّا، وأصلُ (جرم): قطع[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨ب/ ١٣٩).

(٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤)، ((غريب

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾: أي: تواضَعوا، وخَضَعوا، والإخباتُ: التواضُعُ واللِّينُ، وأصلُ (خبت): يدلُّ على خُشوعٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمةُ جزمٍ ويقينٍ جَرَت مجرى المَثَل. وفي هذا التَّركيبِ أقوالٌ: أحدها: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى (لا بُدَّ ولا محالةَ)، فـ(لا) نافيةٌ للجِنسِ، و(جَرَم) اسمُها مبنيٌّ على الفَتحِ في محلِّ نَصبٍ، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها في محلِّ جَرٍّ بحَرفِ جَرٍّ محذوفٍ، فيصيرُ المعنى: لا بدَّ مِن خُسرانِهم ولا محالةَ فيه. الثاني: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةٌ واحِدةٌ مركَّبةٌ تركيبَ خَمسةَ عشَرَ، وبعد التَّركيبِ صار معناها معنى فعلٍ، وهو (حَقَّ)، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها فاعِلٌ لمَجموعِ ﴿لَا جَرَمَ﴾ لتأويله بالفعلِ (حقَّ)، وقيل: مُؤَوَّلٌ بمصدرٍ قائمٍ مقامَه، وهو (حَقًّا) فيصيرُ المعنى: حَقَّ ووجَبَ خُسرانُهم. الثالث: أنَّ (لا) نافيةٌ لكلامٍ سابقٍ مُقَدَّرٍ، والوقفُ على (لا) تامٌّ، ثم قال: (جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ)، أي: حَقَّ ووجب خُسرانُهم، وعليه فالمصدرُ المؤوَّلُ مِن أنَّ ومَعمولَيها في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ لـ﴿جَرَمَ﴾. وقيل غيرُ ذلك[2].

القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٩٣)، ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٣٤٧)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٤١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٠٣)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣١٤)، ((ارتشاف الضرب)) لأبي حيان الأندلسي (٣/ ١٢٦١)،

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلقَ على اللهِ كذبًا، وأنَّ أولئك سيُعرَضونَ على ربِّهم يومَ القيامةِ؛ ليُحاسِبَهم على أعمالِهم، ويقولُ الأشهادُ مِن الملائكةِ والنبيِّينَ والمُؤمِنينَ: هؤلاء الذين كَذَبوا على ربِّهم في الدُّنيا، ألا لعنةُ اللهِ على هؤلاء الظَّالِمينَ الذين يَمنَعونَ النَّاسَ عن دينِ الله، ويُريدونَ أن يكونَ مائلًا، وهم كافرونَ بالآخرةِ، لا يُؤمِنونَ ببعثٍ ولا جزاءٍ. أولئك الكافرونَ لم يكونوا لِيَفوتوا اللهَ في الدُّنيا هَربًا، وما كان لهم مِن أنصارٍ يَمنَعونَهم مِن عِقابِه، يُضاعَفُ لهم العذابُ في جهنَّمَ؛ فقد كانوا لا يَستطيعونَ أن يسمَعوا القرآنَ سَماعَ مُنتَفِعٍ، أو يُبصِروا آياتِ اللهِ في هذا الكونِ إبصارَ مُهتَدٍ. أولئك الذين خَسِروا أنفُسَهم بافترائِهم على اللهِ، وذهب عنهم ما كانوا يفترونَ مِن الآلهةِ التي يدَّعونَ أنَّها تشفَعُ لهم. حقًّا أنَّهم في الآخرةِ أخسَرُ النَّاسِ صَفقةً؛ لأنَّهم استبدلوا الدَّرَكاتِ بالدَّرَجاتِ، فكانوا في جهنَّم، وذلك هو الخُسرانُ المُبينُ.

إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ، وخَضَعوا لله وخَشَعوا، أولئك هم أهلُ الجنَّة، لا يموتونَ فيها، ولا يُخرجونَ منها أبدًا.

ثمَّ ضرَب الله مَثَلًا لفريقِ الكافرينَ ولفريقِ المؤمنينَ، فقال: مثَلُ فريقَي الكُفرِ والإيمانِ كمَثَلِ الأعمى الذي لا يرى، والأصَمِّ الذي لا يسمَعُ، والبصيرِ والسَّميعِ: ففريقُ الكُفرِ لا يُبصِرُ الحَقَّ فيَتَّبِعَه، ولا يسمَعُ داعيَ اللهِ فيهتديَ به، أمَّا فريقُ الإيمانِ فقد أبصر الحَقَّ، وسَمِعَ داعيَ اللهِ فأجابه، هل يستوي هذان الفَريقانِ؟ أفلا تَعتَبِرونَ وتتفَكَّرونَ؟

((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٨).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكُفَّارَ كانت لهم عاداتٌ كثيرةٌ، وطُرُقٌ مُختَلِفةٌ، فمنها شِدَّةُ حِرصِهم على الدُّنيا، ورغبتُهم في تَحصيلِها، وقد أبطَلَ اللهُ هذه الطَّريقةَ بقَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ... ﴾ [هود: ١٥]، ومنها أنَّهم كانوا يُنكِرون نبُوَّةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَقدَحونَ في مُعجِزاتِه، وقد أبطَلَ اللهُ تعالى ذلك بِقَولِه تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ... ﴾ [هود: ١٧]، ومنها أنَّهم كانوا يَزعُمونَ في الأصنامِ أنَّها شُفَعاؤهم عند الله، وقد أبطل اللهُ تعالى ذلك بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّ هذا الكلامَ افتراءٌ على اللهِ تعالى، فلمَّا بيَّنَ وعيدَ المُفترينَ على الله، فقد دخل فيه هذا الكلامُ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا سبق قَولُهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ ذكَرَ أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن افترى على اللهِ كَذِبًا، وهم المُفتَرون الذين نَسَبوا إلى اللهِ الوَلَدَ، واتَّخَذوا معه آلهةً، وحَرَّموا وحَلَّلوا من غيرِ شَرعِ اللهِ[٢].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

أي: لا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلقَ على اللهِ الكَذِبَ، كمن زعم أنَّ لله ولدًا، أو شريكًا في العبادةِ أو التَّشريعِ، أو نسَبَ القُرآنَ لِغَيرِ اللهِ، أو ادَّعى النبُوَّةَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

أي: أولئك - الذين يَفتَرونَ على اللهِ الكَذِبَ - يُعرَضونَ يومَ القيامةِ على اللهِ، فيُحاسِبُهم على أعمالِهم، ويُجازيهم بظُلمِهم[1].

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ويقولُ الملائكةُ والأنبياءُ والمُؤمنونَ يومَ القيامةِ: هؤلاء الذين كَذَبوا في الدُّنيا على ربِّهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

ومِمن اختار أنَّ الأشهادَ هم الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنونَ: الواحديُّ، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥١٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤٧).

وقيل: الأشهادُ هم الملائكةُ والأنبياءُ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والزمخشري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٥).

وقيل: هم الملائكةُ والأنبياءُ والجوارحُ. وممن قال بذلك: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٤).

وقيل: هم الأنبياءُ والمؤمنون. وممن ذهب إلى ذلك: الزجاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ٤٤).

وقيل: هم الملائكةُ. وممن اختار ذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٣).

وقال أبو حيان: (الأشهادُ الملائكةُ الذين يحفظونَ عليهم أعمالَهم في الدُّنيا، أو الأنبياءُ، أو هما والمؤمنون، أو ما يشهدُ عليهم مِن أعضائِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٦).

وقال ابنُ كثيرٍ: (يبينُ تعالى حالَ المفترين عليه وفضيحتَهم في الدارِ الآخرةِ على رؤوسِ

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُدنَى المؤمنُ يومَ القيامةِ من ربِّه عزَّ وجلَّ، حتى يضعَ عليه كنَفَه[١]، فيقَرِّرُه بذُنوبِه، فيقولُ: هل تَعرِفُ؟ فيقولُ: أي ربِّ، أعرِفُ. قال: فإنِّي قد سَترتُها عليك في الدُّنيا، وإنِّي أغفِرُها لك اليومَ، فيُعطَى صحيفةَ حَسَناتِه، وأمَّا الكُفَّارُ والمُنافِقونَ فيُنادَى بهم على رؤوسِ الخلائقِ: هؤلاء الذين كَذَبوا على اللهِ))[٢].

﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: ألا سخَطُ اللهِ الدَّائمُ وإبعادُه مِن رَحمتِه، على المُعتَدينَ الذين وَضَعوا العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكافرينَ كما ظَلَموا أنفُسَهم بالتزامِ الكُفرِ والضَّلالِ، فقد أضافوا إليه المَنعَ مِن الدِّينِ الحَقِّ، وإلقاءَ الشُّبُهاتِ، وتعويجَ الدَّلائلِ المُستَقيمةِ[٤].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَر تعالى الظَّالمين، وصَفَ ظُلمَهم، فقال[٥]:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾.

أي: الذين يَردُّونَ النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ويمنعونَهم مِن الدخولِ فيه، ويُريدونَ

الخلائقِ؛ مِن الملائكةِ، والرسلِ، والأنبياءِ، وسائرِ البشرِ والجانِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٣).

(١) كَنَفَه: أي: حِفْظَه وسِتْرَه. يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٤/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨)، واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٩).

أن يكونَ دينُ اللهِ مائلًا زائغًا عن الحقِّ، ويُنفِّرونَ النَّاسَ عنه، ويُزيِّنون لهم الباطِلَ(١).

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم مكذبونَ بيَومِ القِيامةِ، منكرونَ لوقوعِه، لا يُؤمنون بالبَعثِ بعد الموتِ(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا هدَّد تعالى الكافرينَ بأمورِ الآخرةِ، أشار إلى بيانِ قُدرتِه على ذلك في الدَّارينِ(٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ لا يُعجِزونَ اللهَ في الأرضِ بالهَرَبِ إن أراد عذابَهم في الدُّنيا؛ فهم في مُلكِه، وتحتَ قَهرِه وتَصَرُّفِه(٤).

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: ولم يكُنْ لهم- إذا جاءهم العذابُ- أنصارٌ مِن دونِ اللهِ ينصُرونَهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).
وذكَر القرطبيُّ والسعدي أنَّهم يصدُّون أنفسَهم عن سبيلِ الله، ويصدون غيرَهم عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

ويَدفَعونَ عنهم عذابَه[١].

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾.

أي: يُزادُ في عذابِهم، ويُغلَّظُ عليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾.

أي: ما كانوا يستطيعونَ سَماعَ الحَقِّ سَماعَ انتفاعٍ به، ولا يُبصِرونَه إبصارَ مُهتَدٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠، ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٥).
قال ابنُ كثير: (أي: يُضاعَفُ عليهم العذابُ، وذلك لأنَّ الله تعالى جعَل لهم سمعًا، وأبصارًا، وأفئدةً، فما أَغْنَى عنهم سمعُهم، ولا أبصارُهم، ولا أفئدتُهم مِن شيءٍ، بل كانوا صمًّا عن سماعِ الحقِّ، عُميًا عن اتِّباعِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤).
وفي قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ أوجهٌ:
منها: أنَّ عدمَ الاستطاعةِ المذكور في الآية إنَّما هو لاشتغالِهم بالكفرِ الذي كانوا عليه مقيمينَ عن استعمالِ جوارحِهم في طاعةِ الله تعالى. وممَّن اختاره: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (١٢/ ٣٧١).
ومنها: أنَّ عدمَ الاستطاعةِ المذكورَ في الآيةِ إنَّما هو للختمِ الذي ختَم الله على قلوبِهم وأسماعِهم، والغشاوةِ التي جعَل على أبصارِهم. وممَّن اختاره: الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (٢/ ١٧٥).
ومنها: أنَّ المعنى: ما كانوا يستطيعونَ السَّمعَ، أي: لشدةِ كراهيتِهم لكلامِ الرسلِ، على عادةِ

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦- ٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ * وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢- ٤٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

أي: هؤلاء- الذين تلك صفاتُهم- همُ الذينَ أضاعوا حظَّ أنفُسِهم من الثَّوابِ، وأهلَكوها بالعَذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

أي: اضمحلَّ دينُهم الذي كانوا يَدعونَ إليه، وبطَل كَذِبُهم وفريتُهم على الله بادِّعائِهم له شُركاءَ، وذَهَبتْ عنهم آلهتُهم التي عبَدوها مِن دونِ الله، ولم تُغنِ

العربِ في قولِهم: لا أستطيعُ أن أسمعَ كذا: إذا كان شديدَ الكراهيةِ والبغضِ له، وممَّن اختاره: الزجاجُ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

عنهم شيئًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾.

أي: حقًّا وصِدقًا أنَّهم يومَ القيامةِ هم أخسَرُ النَّاسِ؛ لاستبدالِهم دَركاتِ النَّارِ بمنازلِ الجنَّة(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ الأشقياءِ، ثنَّى بذِكرِ السُّعَداءِ، فقال تعالى(٣):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ -فأتَوا بالطَّاعاتِ، وتَركوا المُنكَراتِ- وتواضَعوا لله وخَشَعوا واطمأنُّوا إليه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٣، ٣٧٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك أهلُ الجنَّةِ، هم فيها لابِثونَ أبدًا، لا يُخرَجونَ منها ولا يَموتونَ[1].

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن تبيَّنَ الاختلافُ بينَ حالِ المُشرِكينَ المُفتَرينَ على اللهِ كَذِبًا، وبين حالِ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ في منازِلِ الآخرةِ؛ أعقبَ ببيانِ التَّنظيرِ بين حالَي الفَريقَينِ: المُشرِكينَ والمؤمنينَ، بطريقةِ تَمثيلِ ما تستحِقُّه مِن ذَمٍّ ومدحٍ[2].

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾.

أي: مثَلُ الكافرينَ والمؤمنينَ كمَن لا يرى ولا يسمَعُ، ومَن يرَى ويسمَعُ؛ فالكافِرُ لا يرى الحقَّ فيهتديَ به، ولا يسمَعُ الحقَّ سماعًا ينتَفِعُ به، والمؤمِنُ يرى الحقَّ ويتَّبِعُه، ويَسمَعُه، وينتَفِعُ به[3].

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((الأمثال في القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٢).

أي: هل يستوي هذان الفَريقانِ عندكم، أيُّها النَّاسُ؟! فكذلك الكافِرُ والمؤمِنُ، لا يستويان عند اللهِ، أفلا تَعتَبِرونَ وتتفكَّرونَ في حالِ الكافرينَ والمؤمنينَ، فتترُكوا الكُفرَ والعِصيانَ، وتُؤمِنوا باللهِ وتَعمَلوا الصَّالحاتِ(١)؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، قَولُه تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوا﴾ فيه إشارةٌ إلى أعمالِ القُلوبِ، وهي الخُشوعُ والخضوعُ لله تعالى، وأنَّ هذه الأعمالَ الصَّالحةَ لا تنفَعُ في الآخرةِ إلَّا بحُصولِ أعمالِ القَلبِ، وهي الخُشوعُ والخُضوعُ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ عدَمُ هذه الاستطاعةِ كان بتَفريطِه وعُدوانِه، ومَن كان تَركُه للمأمورِ بذَنبٍ منه، أو صَيرورتُه إلى المحظورِ بذَنبٍ منه؛ لم يكُن ذلك مانعًا مِن ذَمِّه وعقابِه(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ وعدمُ الاستطاعةِ هنا -على أحدِ الأوجهِ- إنَّما هو للختمِ على قلوبِهم وأسماعِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٤٦).

والغشاوةِ التي جُعِلت على أبصارِهم، وذلك الخَتمُ والأكِنَّةُ على القلوبِ جزاءٌ مِن اللهِ تعالى لهم على مبادَرتِهم إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ باختيارِهم ومَشيئتِهم، كما دلَّت عليه آياتٌ كثيرةٌ، كقولِه تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ(١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جاء ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ليُنَبِّهَ على أنَّه يمكِنُ زوالُ هذا العمَى وهذا الصَّمَم، فيجبُ على العاقِلِ أن يتذكَّرَ ما هو فيه، ويسعَى في هدايةِ نَفسِه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الافتراءَ على اللهِ تعالى أعظَمُ أنواعِ الظُّلمِ(٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ خَصَّهم بهذا العَرضِ -وإن كان العَرضُ عامًّا في كلِّ العِبادِ- لأنَّهم يُعرَضونَ فيُفتَضَحونَ بأنْ يقولَ الأشهادُ عند عَرضِهم: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٥-١٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣١).

عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ فيلحَقُهم مِن الخزيِ والنَّكالِ ما لا مَزيدَ عليه[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ... ﴾ هذه الآياتُ، وإن كانت في حَقِّ المُشرِكينَ والكُفَّارِ، فإنَّها مُتناوِلةٌ لِمَن كذَبَ على اللهِ في توحيدِه ودينِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ولا تتناوَلُ المُخطِئَ المأجورَ إذا بذَل جُهدَه، واستفرغَ وُسعَه في إصابةِ حُكمِ اللهِ وشَرعِه؛ فإنَّ هذا هو الذي فرَضَه اللهُ عليه، فلا يتناوَلُ المطيعَ للهِ وإن أخطأ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الفائدةُ في إخبارِ الأشهادِ بما اللهُ يَعلَمُه: تعظيمُ الأمرِ على المشهودِ عليه، وحَسمُ طَمَعِه مِن أن يَجِدَ سبيلًا إلى التخلُّصِ، بمُجاحَدةٍ أو مُدافعةٍ، وقيل: هو توبيخٌ لهم مِن الشُّهَداءِ، وهَتكُ سِترِهم، وإظهارُ فَضيحتِهم[٣].

٥- الكَذِبُ على الله أشدُّ مِن الكَذِبِ على المَخلوقينَ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤].

٦- أهلُ العِلمِ يَختارونَ فيمن عُرِفَ بالظُّلمِ ونَحوِه مع أنَّه مُسلِمٌ له أعمالٌ صالحةٌ في الظَّاهرِ- كالحجَّاج بنِ يوسفَ وأمثالِه - أنَّهم لا يَلعَنونَ أحدًا منهم بعَينِه، بل يقولونَ كما قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيَلعنونَ مَن لعَنَه اللهُ ورسولُه عامًّا، ولا يلعنونَ المعَيَّنَ، فقد ثبَت: ((أنَّ رَجُلًا كان يُدعَى حمارًا، وكان يشرَبُ الخمرَ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يجلِدُه، فأُتيَ به مرَّةً فلَعَنَه رجلٌ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تلعَنْه؛ فإنَّه يحِبُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٧٩- ٣٨٠).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ٤٢٨).

اللهَ ورَسولَه))[١]؛ وذلك لأنَّ اللَّعنةَ مِن بابِ الوعيدِ، والوعيدُ العامُّ لا يُقطَعُ به للشَّخصِ المُعَيَّنِ؛ لأحدِ الأسبابِ المذكورةِ: من توبةٍ، أو حسَناتٍ ماحيةٍ، أو مصائِبَ مُكَفِّرةٍ، أو شفاعةٍ مَقبولةٍ، وغيرِ ذلك[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأرضُ: الدُّنيا، وفائدةُ ذِكرِها أنَّهم لا ملجأَ لهم مِن اللهِ لو أراد الانتقامَ منهم، فلا يجِدونَ مَوضِعًا من الأرضِ يَستَعصِمونَ به، فهذا نفيٌ للملاجئِ والمعاقِلِ التي يستعصِمُ فيها الهارِبُ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ذكَرَ المؤمنينَ، ووصَفَهم بالإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالحِ، والإخباتِ إلى ربِّهم، فوصَفَهم بعبوديَّةِ الظَّاهِرِ والباطِنِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ مُستأنَفةٌ، وتصديرُها باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحْرِياءُ بما سَيَرِدُ بعدَ اسْمِ الإشارةِ مِن الخبَرِ؛ بسبَبِ ما قبْلَ اسْمِ الإشارةِ مِن الوصفِ[٥]، وفيه أيضًا أنَّ عَرْضَهم على ربِّهم عرضُ زجرٍ وانتقامٍ؛ وذلك لِمَا يُؤْذِنُ به اسْمُ الإشارةِ مِن مَعنى تعليلِ ما قَبلَه

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) بنحوه.
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٥).
(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٢-٣٣).

فيما بعدَه[١].

- وقولُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيه إشارةٌ إلى تَحقيرِهم وإصغارِهم بسوءِ مُرتَكَبِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ في الإتيانِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ في الخبَرِ عنهم: إيماءٌ إلى سبَبيَّةِ ذلك الوصفِ الَّذي في الصِّلَةِ - وهو الكَذِبُ على ربِّهم - فيما يَرِدُ عليهم من الحُكمِ، وهو ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه الافتتاحُ بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ وذلك مُناسَبَةً لِمَقامِ التَّشهيرِ، والخبرُ هنا مُستعمَلٌ في الدُّعاءِ؛ خِزيًا وتَحقيرًا لهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ اختُصَّتْ هذه الآيةُ على نَظيرَتِها في الأعرافِ، وهي قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾[الأعراف: ٤٥]- بزِيادَةِ (هُمْ) في قولِه: ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وهو توكيدٌ يُفيدُ تَقوِّيَ الحُكمِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تسجيلِ إنكارِهم البَعْثَ وتَقريرِه؛ إشعارًا بما يترقَّبُهم مِن العقابِ المناسِبِ؛ فحُكِي به مِن كَلامِ الأشهادِ ما يُناسِبُ هذا، وما في سورةِ الأعرافِ حكايةٌ لِمَا قيل في شأنِ قومٍ أُدخِلوا النَّارَ، وظهَر عِقابُهم، فلا غرَضَ لِحكايةِ ما فيه تأكيدٌ مِن كلامِ الأشهادِ، وكِلا المَقالَين واقعٌ؛ وإنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٢-٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣٣).

يَحكي البليغُ فيما يَحْكيه ما له مُناسَبةٌ لِمَقامِ الحِكايةِ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن الاقتِصارِ في تَهْديدِهم على وصْفِ بعضِ عِقابِهم في الآخِرَةِ؛ فإنَّ ذلك يُثيرُ في نَفْسِ السَّامعِ أن يَسأَلَ: هل هم سالِمون مِن عذابِ الدُّنيا؟ فأُجيبَ بأنَّهم لم يَكونوا مُعجِزين في الدُّنيا، أي: لا يَخرُجون عن مَقدِرةِ اللهِ على تَعذيبِهم في الدُّنيا إذا اقتَضَتْ حِكمتُه تَعجيلَ عَذابِهم(٢).

- وإعادةُ الإشارةِ إليهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعدَ أن أُشيرَ إليهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: ١٨]؛ لتقريرِ فائدةِ اسمِ الإشارةِ السَّابقِ(٣).

- وقولُه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ كنايةٌ عن عدَمِ قَبولِهم للحَقِّ، ونفيُ الاستطاعةِ أعرَقُ في العَيبِ، وأدَلُّ على النَّقصِ، وأنكى مِن نفيِ السَّمعِ؛ لأنَّهم قد يَحمِلونَه على الإجابةِ(٤).

- قولُه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ فيه تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ لأنَّه تشبيهُ مركَّبٍ بمركَّبٍ، شبَّهَهم في فرْطِ تَصامِّهم عن استماعِ الحقِّ، ونُبُوِّ أسماعِهم عنه بمَن لا يَستَطيعُ السَّمعَ، وفي إعراضِهم عن نُذُرِ الآياتِ بأنَّ أبصارَهم لم تَنفَعْهم، فكأنَّهم لم يُبصِروا(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٧)،

- ولمَّا كان قُبحُ حالِهم في عدم إذعانِهم للقرآن الذي طريقُ تلقِّيه السمعُ أشدَّ منه في عدم قَبولِهم لسائرِ الآياتِ المنوطةِ بالإبصارِ؛ بالغَ في نفْي الأولِ عنهم حيثُ نفَى عنهم الاستطاعةَ، واكتفَى في الثاني بنَفْي الإبصارِ[1]. وقيل: لأنَّ الإبصارَ المنفيَّ هو النظرُ في المصنوعاتِ الدالةِ على الوحدانيةِ، أي: ما كانوا يُوجِّهون أنظارَهم إلى المصنوعاتِ توجيهَ تأملٍ واعتبارٍ، ولذلك لم يقلْ هنا: (وما كانوا يَسْتطيعونَ أن يُبْصِروا)؛ لأنَّهم كانوا يُبصرونَها، ولكنَّ مجرَّدَ الإبصارِ غيرُ كافٍ في حُصولِ الاستِدْلالِ حتَّى يُضَمَّ إليه عمَلُ الفِكْرِ، بخلافِ السَّمعِ في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾[2].

- والإتيانُ بأفعالِ الكَوْنِ في هذه الجُمَلِ أربعَ مرَّاتٍ ابتداءً مِن قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾؛ لإفادةِ ما يَدُلُّ عليه فعلُ الكَونِ مِن تَمكُّنِ الحدَثِ المخبَرِ به؛ فقولُه: ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ آكَدُ مِن: (لا يُعجِزون)، وكذلك أخواتُه[3].

٤- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ استِئْنافٌ، واسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هنا تأكيدٌ ثانٍ لاسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾[4] [هود: ١٨].

((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٣١- ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) ٤/ ١٩٧.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٦-٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٨).

- قولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ فيه إسنادُ الضَّلالِ إلى الأصنامِ؛ تَهكُّمًا على أصحابِها، حيث شُبِّهَت أصنامُهم بمن سلَك طَريقًا لِيَلحَقَ بمَن استَنْجَد به، فضَلَّ في طَريقِه[1].

٥- قولُه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ، وهي فَذْلَكةٌ[2] ونَتيجةٌ للجُمَلِ المتقدِّمةِ مِن قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنَّ ما جُمِع لهم مِن الزَّجِّ للعُقوبةِ، ومِن افتِضاحِ أمْرِهم، ومِن إعراضِهم عَن استِماعِ النُّذُرِ، وعن النَّظَرِ في دَلائلِ الوحدانيَّةِ يُوجِبُ اليَقينَ بأنَّهم الأخسَرون في الآخِرةِ[3].

- والضَّميرُ في ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ ضميرُ فصلٍ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ[4]؛ لأنَّهم بلَغوا الحَدَّ الأقصى في الخَسارةِ، فكأنَّهم انفَرَدوا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) الفَذْلكة: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ، من قولهم: (فذَلِك كذا)، ومعناها: ذكرُ مُجمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٨).

(٤) القصر في اصطلاح البلاغيين: هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأولُ: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ: فالحقيقي: هو أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَب الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيره أصلًا، مِثل: لا إله إلا الله، حيثُ قُصِر وصف الإلَهيَّة الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحده، وهذا مِن قصرِ الصِّفة على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والادِّعائي: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدم، وقصرِ الشيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن

بالأخسَريَّةِ[1].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]، وقال في سورةِ النَّحلِ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]؛ فخَصَّ سورةَ هودٍ بـ(الأَخْسَرون)، وسورةَ النَّحلِ بـ (الخاسِرون)، ووجهُ هذا الاختلافِ: أنَّ الآيةَ الَّتي في سورةِ هودٍ قد تَقدَّمَها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وإنَّما قال: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ لأنَّه خبرٌ عن قوم أخبَرَ عنهم بالفِعلِ الَّذي استَحَقُّوا به مُضاعَفةَ العذابِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٩]، فإذا صُدُّوا هم عن الدِّينِ صُدودًا، وصَدُّوا غيرَهم عنه صَدًّا استحَقُّوا مُضاعَفةَ العذابِ؛ لأنَّهم ضَلُّوا وأضَلُّوا، فهذا لـ (الأَخْسرون) دونَ (الخاسِرون) مِن طريقِ المعنى، وهاهنا ما يُضامُّه من طريقِ اللَّفظِ، وهو أنَّ ما قبْلَه مِن الفَواصِلِ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [هود: ٢١]؛ فاجتِماعُ المعنى والتَّوفِقَةِ بينَ الفواصِلِ أوْجَبا اختِيَارَ (الأَخْسَرون) في هذا الموضِعِ على (الخاسِرون). وأمَّا في سورةِ النَّحْلِ فإنَّ الآيةَ لم يُخبِرْ فيها عن الكفَّارِ بأنَّهم معَ ضَلالِهم أضَلُّوا مَن سِواهم، وإنَّما قال فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، فلم يَذكُرْ ما يُوجِبُ مُضاعَفةَ العذابِ، ثمَّ كانت الفَواصِلُ الَّتي حُمِلَت هذه عليها وِزانَ (الكافِرينَ) و(الغافِلِينَ)؛

حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧- ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٩).

فاقتَضى هذانِ الشَّيئانِ أن يُقالَ: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، كما اقْتَضى السَّبَبانِ في الأُولَى المخالِفان للسَّببَينِ هُنا أنْ قال: ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾[1].

وفيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ آيةَ هودٍ تَقدَّمَها ما يُفهِمُ المفاضَلةَ؛ فقولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ...﴾ الآيةَ [هود: ١٧]، يُفهَمُ مِنه: أفَمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه كمَن كفَر وجحَد وكذَّب الرُّسلَ؟ ثمَّ أتبعَ هذا بقولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: ١٨]؛ فهذا صَريحُ مُفاضَلةٍ، ثمَّ استمرَّتِ الآياتُ في وصْفِ مَن ذُكِر، واستَمرَّ ذِكرُهم إلى قولِه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾؛ فناسَب لَفظُ (الأَخْسَرون) بصيغةِ التَّفْضيلِ، ولو ورَد هنا ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مَكانَ ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ لتَنافَى النَّظْمُ، وتَبايَنَ السِّياقُ ولم يتناسَبْ. وأمَّا آيةُ النَّحلِ فلم يقَعْ قَبْلَها (أفعَلُ) الَّتي للمُفاضَلةِ والتَّفاوُتِ، ولا ما يُفهِمُهما، وإنَّما قَبْلَها: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وبعدَ هذا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، وبعدَ هذا: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]؛ فجاءت هذه الفَواصِلُ مُتَّفِقةً في اسْمِ الفاعِلِ المجموعِ جمْعَ السَّلامةِ، إلى أن خَتَم وصْفَهم وما قصَد مِن ذِكْرِهم بقولِه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]؛ فتناسبَت الآيُ في السِّياقِ والفَواصلِ، وخُتِمَت بمِثلِ ما به بُدِئَت، ولم يَكُن ليناسِبَ ما ورَد هنا لفْظُ المفاضلةِ؛ إذ ليس في الكلامِ ما يَستَدْعي ذلك لا مِن لَفْظِه ولا مَعناه[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٥٣-٧٥٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٣-١٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٤-٢٥٥).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ النُّفوسَ تَشرئِبُّ عندَ سماعِ حُكمِ الشَّيءِ إلى معرفةِ حُكمِ ضِدِّه، وجملةُ ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مُستأنَفةٌ لبيانِ ما قبلَها؛ فمَنزِلتُها منزلةُ عطفِ البيانِ، ولا تُعرَبُ في موضِعِ خبَرٍ ثانٍ عن اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[1].

- تعديةُ (الخَبْتِ) -وهو التَّواضُعُ- بـ (إلى) في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تَضمينٌ لمعنى الطُّمأنينةِ والإنابةِ والسُّكونِ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[2].

٧- قولُه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- الجملةُ فَذلكةٌ لما تقدَّم مِن بيانِ الاختلافِ بينَ حالِ المشركينَ والمؤمنينَ في منازلِ الآخرةِ، وتحصيلٌ له، وللتَّحذيرِ مِن مُواقعةِ سَبَبِه[3].

- فيه تشبيهٌ؛ حيثُ شبَّه حالَ الفَريقَين- المشرِكين والمؤمِنين- بحالِ الأعمى الأصمِّ مِن جهةٍ، وحالِ البصيرِ السَّميعِ من الجهةِ الأخرى؛ فَشَبَّه حالَ فريقِ الكفَّارِ في عدَمِ الانتفاعِ بالنَّظرِ في دلائلِ وَحْدانيَّةِ اللهِ الواضحةِ مِن مَخلوقاتِه بحالِ الأعمى، وشَبَّههم في عدَمِ الانتفاعِ بأدلَّةِ القرآنِ بحالِ مَن هو أصَمُّ، وشبَّه حالَ فَريقِ المؤمِنين في ضدِّ ذلك بحالِ مَن كان سَليمَ البصَرِ، سَليمَ السَّمعِ؛ فهو في هُدًى ويقينٍ مِن مُدرَكاتِه، وترتيبُ الحالَين المشبَّهِ بهما في الذِّكْرِ على ترتيبِ ذِكْرِ الفَريقين فيما تقدَّم- يُنبِئُ بالمرادِ من كلِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٩- ٤٠).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٠).

فريق على طَريقة النَّشرِ المرتَّبِ[١]، فشبَّه فريقَ الكافِرين بالأعمَى والأصَمِّ، وفريقَ المؤمِنين بالبصيرِ والسَّميعِ، وهو مِن اللَّفِّ والطِّباقِ، ومِن بابِ تَشْبيهِ اثنَينِ باثنَين؛ فقُوبِلَ الأعمى بالبصيرِ وهو طباقٌ، وقوبِلَ الأصَمُّ بالسَّميعِ وهو طِباقٌ أيضًا، والعَمى والصَّمَمُ آفَتان تَمنَعانِ مِن البصَرِ والسَّمعِ، وليسَتا بضِدَّينِ؛ لأنَّه لا تَعاقُبَ بينَهما، ويحتملُ أن يَكونَ مِن تشبيهِ واحدٍ بوصفَيْهِ بواحدٍ بوصْفَيه، فيكونَ مِن عطْفِ الصِّفاتِ، ولم يَجِئِ التَّركيبُ: (كالأعْمى والبصيرِ، والأصَمِّ والسَّميع)، فيكونُ مُقابَلَةً في لفظِ الأعمَى وضدِّه، وفي لفظةِ الأصَمِّ وضدِّه؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ذكَر انْسِدادَ العينِ؛ أتْبَعَه بانسدادِ السَّمعِ، ولَمَّا ذكَرَ انفِتاحَ البصَرِ أتْبَعه بانفِتاحِ السَّمعِ؛ وذلك هو الأسلوبُ في المقابَلةِ، والأتَمُّ في الإعجازِ[٢].

- وجملةُ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ واقعةٌ مَوقِعَ البيانِ للغرَضِ مِن التَّشبيهِ، وهو

---

(١) اللَّف والنَّشر إمَّا مُرتَّب، وإمَّا غيرُ مُرتَّب؛ فاللَّف والنشرُ المُرتَّب، هو أن يأتي النشر على وفق ترتيب اللَّف؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ، ويُضافُ إلى كلٍّ ما يليقُ به على الترتيب، كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارة ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفقَ توزيعٍ مُرتَّب؛ فقوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيل، وقوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهار.
وغيرُ المرتَّب: هو أن يأتيَ النشرُ على غَير ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨]، فهذه الجُمَل لفٌّ مُفصَّل، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّب؛ فجملة: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمة للجملة الأُولى ومتعلِّقةٌ بها. وجُملَةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثالثة ومُتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثانيةِ ومتعلِّقةٌ بها.
يُنظر: ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠- ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٨- ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٢-٤١).

نفْيُ استِواءِ حالِهما، والاستِفْهامُ فيها إنكاريٌّ[١].

- وجملةُ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيها استفهامٌ غرَضُه إنكارُ انتِفاءِ تَذكُّرِهم، واستِمْرارِهم في ضَلالِهم[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٥-٣١)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا
ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن
قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا
بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا
وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾
وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ
لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَرَاذِلُنَا ﴾: أي: سَفِلَتُنا وأخِسَّاؤُنا، والرَّذلُ: المرغوبُ عنه لرَداءتِه، والدُّونُ مِن كلِّ شَيءٍ في مَنظَرِه وحالاتِه[١].

﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾: أي: في ظاهِرِ الرَّأيِ والنَّظَرِ؛ مِن قَولِهم: بدا الشَّيءُ يَبدو: إذا ظهرَ، وأصلُ (بدو): يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[٢].

﴿ فَعُمِّيَتْ ﴾: أي: أُخفِيَت، وأصلُ (عمي): يدلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٧)، ((مقاييس

﴿تَزۡدَرِيٓ﴾: أي: تحتَقِر وتَعيبُ، وأصلُ (زري): يدلُّ على احتقارِ الشَّيءِ، والتَّهاوُنِ به[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾

﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ بادِيَ: ظرفُ زَمانٍ منصوبٌ، والعامِلُ فيه ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ أي: اتَّبَعوك في أوَّلِ الرأيِ، أو فيما ظهَرَ منه مِن غَيرِ أن يَبحَثوا. أو العاملُ فيه ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ أي: هم أراذِلُنا بظاهِرِ الرَّأيِ نَعلَمُ ذلك. وإضافةُ (بادي) إلى (الرأي) مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: في الرأيِ البادي. وقيل: ﴿بَادِيَ﴾ حالٌ مِن مفعولِ «اتَّبَعَكَ»، أي: اتَّبَعوك وأنت مكشوفُ الرأيِ، لا حصافةَ لك. وقيل غير ذلك[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ جملةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ، معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾، كأنَّه أخبَرَ عن نفسِه بهذه الجُمَل، وليس معطوفًا على قَولِه: ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه يؤدِّي إلى أن يصيرَ التَّقديرُ: ولا أقولُ لكم لا أَعْلَمُ الغيبَ، فيَفسُد المعنى[3].

اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٦٩).

المَعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ تعالى أنَّه أرسلَ نوحًا إلى قومِه، فقال لهم: إنِّي نذيرٌ لكم مِن عذابِ اللهِ، مُبيِّنٌ ما أُرسِلتُ به إليكم مِن أمرِ اللهِ ونَهيِه، بألَّا تعبدُوا إلَّا اللهَ، إنِّي أخافُ عليكم- إن لم تُفرِدوا اللهَ وحْدَه بالعبادةِ- عذابَ يومٍ مُوجِعٍ، فقال رؤساءُ الكُفرِ مِن قَومِه: ما نراك -يا نوحُ- إلَّا بشرًا مِثلَنا، ولستَ بمَلَكٍ، فكيف أُوحِيَ إليك مِن دُونِنا؟! وما نراك اتَّبَعَك إلَّا الذين هم أسافِلُنا، وإنَّما اتَّبعوك مِن غيرِ تفكُّرٍ ولا رويَّةٍ، وما نرى لكم مِن شَرَفٍ ومزيَّةٍ علينا حينَ دخَلتُم في دينِكم، فنَتَّبِعَكم، بل نعتَقِدُ أنَّكم كاذبونَ فيما تدَّعونَ، قال نوحٌ: يا قومي أرأيتُم إن كنتُ على حُجَّةٍ ظاهرةٍ مِن ربِّي فيما جئتُكم به، وآتاني رحمةً مِن عندِه- وهي النبوَّةُ والرِّسالةُ- فأخفاها عليكم عقابًا لكم، أنُلزِمُكم إيَّاها بالإكراهِ، وأنتم جاحِدونَ بها؟ لا نفعَلُ ذلك، ولكِنْ نَكِلُ أمرَكم إلى اللهِ حتى يقضيَ في أمرِكم ما يشاءُ.

قال نوحٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه: يا قومِ لا أسألُكم على دَعوتِكم لتوحيدِ اللهِ مالًا، ولكِن ثوابُ نُصحي لكم على اللهِ وَحدَه، وليس مِن شأني أن أطرُدَ المُؤمِنينَ؛ فإنَّهم مُلاقو ربِّهم يومَ القيامةِ، ولكِنِّي أراكم قومًا تَجهَلونَ؛ إذ تأمرونَني بطَردِ أولياءِ اللهِ، وإبعادِهم عنِّي، ويا قومِ مَن يمنَعُني مِن عِقابِ اللهِ إن عاقَبَني على طَردي المؤمنينَ؟ أفلا تتدبَّرونَ الأمورَ فتَنتَهوا عن جهلِكم وضَلالِكم؟ ولا أقولُ لكم: إنِّي أملِكُ التصرُّفَ في خزائنِ اللهِ، ولا أدَّعي علمَ الغيبِ، ولستُ بمَلَكٍ مِن الملائكةِ، ولا أقولُ لهؤلاء الذين تحتَقِرونَ مِن ضُعَفاءِ المؤمنينَ لن يؤتِيَهم اللهُ ثوابًا على إيمانِهم؛ فاللهُ وَحدَه أعلَمُ بما في قلوبِهم، ولئن فعلتُ ذلك إنِّي إذًا لَمِنَ الظَّالمينَ لأنفُسِهم ولغَيرِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه قد جَرَت العادةُ بأنَّ اللهَ تعالى إذا أوردَ على الكافِرِ أنواعَ الدَّلائلِ أتبَعَها بالقَصَصِ؛ ليصيرَ ذِكرُها مُؤَكِّدًا لتلك الدَّلائلِ، وفي هذه السُّورةِ ذَكَرَ أنواعًا مِن القَصَصِ؛ القِصَّةُ الأولى قِصَّةُ نوحٍ عليه السَّلامُ[(١)].

وأيضًا فإنَّ هذا انتِقالٌ مِن إنذارِ المُشرِكينَ ووَصفِ أحوالِهم وما ناسبَ ذلك، إلى مَوعِظتِهم بما أصاب المكَذِّبينَ قَبلَهم من المصائبِ، وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما لاقاه الرُّسُلُ عليهم السَّلامُ قَبلَه مِن أقوامِهم[(٢)].

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥﴾.

أي: ولقد بعَثْنا نبيَّنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ، فقال لهم: إنِّي نذيرٌ لكم، أُخوِّفُكم عذابَ اللهِ إن عبَدتُم غيرَه، وأُبيِّنُ لكم ما أرسَلَني اللهُ به مِن أمرِه ونَهيِه[(٣)].

﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾.

﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: أرسَلْناه إلى قَومِه بأنْ لا تعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه[(٤)].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾.

أي: إنِّي أخافُ عليكم -يا قَومِ- إن لم توحدوا اللهَ، وتَتركوا عِبادةَ الأصنامِ-

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٥-٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).
ومن المفسرين من جعل كلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ وصفًا للنذارة. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

أن يُعَذِّبَكم عذابًا مُؤلِمًا مُوجعًا يومَ القيامةِ[(١)].

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه دعا قَومَه إلى عبادةِ الله تعالى؛ حكَى عنهم أنَّهم طَعَنوا في نبوَّتِه بثلاثةِ أنواعٍ مِن الشُّبُهاتِ[(٢)].

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾.

أي: فقال الأشرافُ والكُبَراءُ الكافرونَ مِن قَومِ نُوحٍ: ما نراك -يا نوحُ- إلَّا آدميًّا مِثلَنا، ولستَ مِن الملائكةِ، فكيف يُرسِلُك اللهُ مِن دُونِنا[(٣)]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿بَادِئَ﴾ بهَمزةٍ في آخِرِه، أي: ابتداءَ الرَّأيِ، والمعنى: اتَّبَعوك ابتداءَ الرَّأيِ مِن غيرِ أن يتدَبَّروا ما قُلتَ، ولم يتفكَّروا فيه، ولو تفكَّروا وتدَبَّروا لم يتَّبِعوك(١).

٢- قراءةُ ﴿بَادِيَ﴾ بغيرِ همزٍ. مِن: بدا يبدو: إذا ظهَرَ، والمعنى: لم يتَّبِعْك إلَّا الذين هم أراذِلُنا فيما يظهرُ لنا ولا يخفَى على أحدٍ. وقيل: المعنى: اتَّبَعوك في الظَّاهِرِ وباطِنُهم على خلافِ ذلك، أي: أنَّهم أظهَروا الإسلامَ، وأبطَنوا الكُفرَ. وقيل: المعنى: اتَّبَعوك في ظاهِرِ الرَّأيِ، ولم يتدَبَّروا ما قلتَ، ولم يتفَكَّروا فيه، فتكونُ بمعنى القراءةِ الأولى(٢).

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ﴾

أي: قال الكُبَراءُ مِن قَومِ نُوحٍ: وما نراك اتَّبَعَك على دينِك إلَّا الضُّعَفاءُ الذين هم سَفِلَتُنا فيما يظهَرُ لنا ولِغَيرِنا(٣).

(١) قرأ بها أبو عمرٍو البصريُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٤٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٣١٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٤٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩٤)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٣١٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤).

(٣) هذا المعنى هو اختيارُ ابنِ جريرٍ في تفسير ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩٤).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعطاءٌ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٨).
وقيل: المعنى: وإنَّما اتَّبَعوك في ظاهِرِ الرَّأيِ، ولم يُفَكِّروا فيما دَعَوتَهم إليه، ولو تفكَّروا

كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ * وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].

وعن أبي سُفيانَ بنِ حَربٍ رَضِيَ الله عنه، في حديثِ هِرقلَ الطَّويلِ، عندَما سأله عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، وفيه: (قال: وسألْتُك عن أتباعِه: أضُعفاؤُهم أم أشرافُهم؟ فقُلتَ: بل ضُعَفاؤُهم، وهم أتباعُ الرُّسُلِ)[1].

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾.

أي: قال الكُبَراءُ مِن قَومِ نُوحٍ له ولأتباعِه المُؤمِنينَ: وما نرى أنَّه حصل لكم شَرَفٌ ومزيَّةٌ علينا حين دخَلتُم في دينِكم هذا، فتَستحقُّوا اتباعَنا لكم[2].

﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾.

أي: بل نظُنُّكم[3] كاذبينَ فيما تدَّعونَه[4].

لم يتَّبِعوك. وهو اختيار ابن كثير والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(١) أخرجه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٣) قال ابنُ عاشور: (هذا الظنُّ الذي زعموه مستندٌ إلى الدليل المحسوسِ في اعتقادهم، واستُعمل الظنُّ هنا في العلمِ، كقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾[البقرة: ٤٦]، وهو إطلاقٌ شائعٌ في الكلام). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٩). ويُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ١٥٢)، ((المخصص)) لابن سيده (٤/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٩، ٥٤٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٥، ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٠).

اختلف المفَسِّرون في تحديدِ المُخاطَب بذلك، فبَعضُهم يرى أنَّ المُخاطَب هو نوحٌ عليه السَّلامُ وحده. وممَّن اختار ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها جوابٌ عن شُبهةِ قَومِ نُوحٍ الأولى، والمعنى: أنَّ حُصولَ المُساواة في البَشريَّةِ لا يمنَعُ مِن حُصولِ المُفارَقةِ في صِفةِ النبوَّةِ والرِّسالةِ، وذكَرَ الطَّريقَ الدَّالَّ على إمكانِه، وهو كونُه على بيِّنةٍ مِن ربِّه[(١)].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾.

أي: قال نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِقَومِه: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على يقينٍ وعلمٍ مِن اللهِ، وبُرهانٍ على صحَّةِ نبوَّتي[(٢)]، وبما يجِبُ عليَّ من إخلاصِ العبادةِ له وَحْدَه سُبحانَه[(٣)].

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ بضَمِّ العينِ وتشديدِ الميمِ بالبناءِ للمَفعولِ، بمعنى: أُخفِيَت، أي: أخفاها اللهُ عليكم وخَذَلكم؛ عقوبةً لكم[(٤)].

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المخاطَبَ نُوحٌ ومن آمن مِن قَومِه. وممَّن اختار ذلك: الواحدي، والقرطبي، وهو ظاهِرُ اختيار ابن كثيرٍ، وجعله ابن عطيةَ احتمالًا. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ هذا خطابًا للأراذلِ وحدَهم. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١).

(٤) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفص عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٨).

٢- قراءةُ ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بفَتحِ العَينِ وتخفيفِ الميمِ، بمعنى: فعَمِيَت عليكم، فلم تهتَدوا إليها[1].

﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: ورَزَقني اللهُ النبوَّةَ، فخَفِيَت عليكم، ومنَعَكم اللهُ معرفةَ الحَقِّ عقوبةً لكم، فلم تهتَدوا إلى اتِّباعي[2].

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

أي: أنغصِبُكم، ونُكرِهُكم على التَّصديقِ بها واتِّباعِها، والحالُ أنَّكم تَكرهونَها، وتنفِرونَ منها[3]؟!

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٣).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧، ١٧٨).
قال القُرطبي: (﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ قيل: شهادة أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ. وقيل: الهاءُ ترجِعُ إلى الرَّحمة. وقيل: إلى البَيِّنة، أي أنُلزِمُكم قَبولَها، وأُوجِبُها عليكم؟!). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا هو الجوابُ عن الشُّبهةِ الثَّانيةِ، وهي قَولُهم: لا يتَّبِعُك إلَّا الأراذِلُ مِن النَّاسِ، وتقريرُ ذلك من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: أنا لا أطلبُ على تبليغِ دَعوةِ الرِّسالةِ مالًا حتى يتفاوتَ الحالُ بسبَبِ كَونِ المُستَجيبِ فقيرًا أو غنيًّا، وإنَّما أَجْري على هذه الطَّاعةِ الشَّاقَّةِ على ربِّ العالَمينَ، وإذا كان الأمرُ كذلك فسواءٌ كانوا فُقَراءَ أو أغنياءَ، لم يتفاوتِ الحالُ في ذلك.

الوجه الثاني: كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال لهم: إنَّكم لَمَّا نَظَرتُم إلى ظواهِرِ الأمورِ وَجَدتُموني فقيرًا، وظَنَنتُم أنِّي إنما اشتغلتُ بهذه الحِرفةِ؛ لأتوسَّلَ بها إلى أخذِ أموالِكم، وهذا الظَّنُّ منكم خطأٌ؛ فإنِّي لا أسألُكم على تبليغِ الرِّسالةِ أجرًا؛ إنْ أجريَ إلَّا على ربِّ العالَمينَ، فلا تَحرِموا أنفُسَكم من سعادةِ الدِّينِ؛ بسبب هذا الظَّنِّ الفاسدِ.

الوجه الثالث: أنَّهم قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ إلى قولِهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فهو عليه السَّلامُ بيَّنَ أنَّ اللهَ تعالى أعطاه أنواعًا كثيرةً توجِبُ فَضلَه عليهم؛ ولذلك لم يسْعَ في طلَبِ الدُّنيا، وإنَّما يسعى في طلَبِ الدِّينِ، والإعراضُ عن الدُّنيا من أُمَّهاتِ الفضائِلِ باتِّفاقِ الكُلِّ، فلعلَّ المرادَ تقريرُ حُصولِ الفَضيلةِ مِن هذا الوَجهِ[1].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ويا قَومِ لا أطلُبُ منكم مالًا أجرةً لي على تبليغي رسالةَ اللهِ، ما أجري على نَصيحَتي ودَعوتي لكم إلَّا على اللهِ الذي أرسَلَني، فهو الذي يُثيبُني[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٠٣)، ((تفسير

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

أي: وما أنا بمُقْصِ الضُّعَفاءَ المُؤمنينَ مِن قُربي وجواري؛ لاحتقارِكم لهم[1].

كما قال الله تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ناهيًا إيَّاه أن يطرُدَ جماعةً من ضُعفاءِ المؤمنينَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء المُؤمِنينَ الضُّعَفاءَ صائِرونَ إلى اللهِ يومَ القيامةِ، فيسألُهم عن أعمالِهم، لا عن شَرَفِهم وحسَبِهم، ويُثيبُهم عليها، ويُجازي مَن ظَلَمَهم[2].

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

أي: ولكِنِّي أراكم قومًا تجهلونَ كُلَّ ما تنبغي مَعرِفتُه؛ ومن ذلك عَظَمةُ اللهِ وتَوحيدُه، ومَنزلةُ المؤمنينَ عِندَه، فمِن جَهْلِكم سألتُموني طَردَهم، وهم خيرٌ منكم[3].

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾.

القرطبي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٦).

أي: قال نوح عليه الصَّلاة والسَّلام: ويا قَومِ مَن يمنَعُني مِن عذابِ اللهِ إن طَردتُ المؤمنينَ فعاقَبَني[١]؟

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: أفلا تتَفكَّرونَ وتتَّعظونَ، فتنزَجِروا عمَا تقولونَ، وتَنتَهوا عن جَهلِكم وضَلالِكم[٢]؟!

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا تفصيلٌ لِما رَدَّ به نوحٌ عليه السَّلامُ مقالةَ قَومِه إجمالًا؛ فهم استدَلُّوا على نفيِ نُبوَّتِه بأنَّهم لم يَرَوا له فضلًا عليهم، فجاء هو في جوابِهم بالقَولِ بالمُوجِبِ[٣] أنَّه لم يدَّعِ فَضلًا غيرَ الوحيِ إليه[٤].

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولا أقولُ لكم: عندي خزائِنُ رِزقِ اللهِ، أتصرَّفُ فيها بالإعطاءِ والمَنعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦١).

(٣) القولُ بالموجِبِ هو عبارةٌ عن تسليم مقتضَى ما جعَله المستدلُّ دليلًا لحكمٍ، مع بقاءِ الخلافِ بينَهما فيه، وذلك بأن يتخيَّلَ أنَّ ما ذكَره مِن النصِّ أو القياسِ مستلزمٌ لحكمِ المسألةِ المتنازَعِ فيها، مِن أنَّه غيرُ مستلزمٍ له، فلا ينقطعُ النزاعُ بتسليمِه. يُنظر: ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) (ص: ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٧).

فأدعوكم إلى اتِّباعي عليها[1].

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾.

أي: ولا أدَّعي أنِّي أعلَمُ ما غاب وخَفِيَ من السَّرائِرِ، وغير ذلك ممَّا لا يعلَمُه إلَّا اللهُ وَحْدَه[2].

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾.

أي: ولا أقولُ لكم: إنِّي مَلَكٌ مِن الملائكةِ، بل أنا بشَرٌ مِثلُكم أبلِّغُكم ما أرسَلَني اللهُ به[3].

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾.

أي: ولا أقولُ عن المؤمنينَ الذين تحتَقِرُهم أعيُنُكم: لن يُعطِيَهم اللهُ أجورَهم وثوابَهم على إيمانِهم[4].

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ بما في قلوبِ أولئك المُؤمِنينَ مِن اعتقاداتٍ ونيَّاتٍ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨).

قال البغوي: (﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ هذا جوابُ قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦). وكذا قال ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)،

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنِّي - إن ادَّعيتُ أنَّ اللهَ لن يؤتيَ المؤمنينَ خيرًا، وحكمتُ بأنَّهم يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنونَ في نفوسِهم وطَرَدتُهم - لَمِنَ المُعتَدينَ ما أمَرَهم اللهُ به، القائلينَ ما لا عِلمَ لهم به، الفاعلينَ ما ليس لهم فِعلُه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ قَولُهم هذا قَولُ مَن يعرِفُ الحَقَّ بالرِّجالِ، ولا يَعرِفُ الرِّجالَ بالحَقِّ؛ وذلك أنَّه يستدِلُّ على كونِ الشَّيءِ حَقًّا بعَظَمةِ مُتَّبِعه في الدُّنيا، وعلى كونِه باطلًا بحَقارتِه فيها[2].

٢- قولُهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ ليس بمذمةٍ ولا عيبٍ؛ لأنَّ الحقَّ إذا وضَح لا يبقَى للتروِّي ولا للفكرِ مجالٌ- وهذا على أحدِ القولين في التفسيرِ- بل لا بدَّ مِن اتباعِ الحقِّ- والحالة هذه- لكلِّ ذي زكاءٍ وذكاءٍ، ولا يفكِّر وينزوي هاهنا إلا عييٌّ أو غبيٌّ، والرسلُ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاءوا بأمرٍ

((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

قال ابنُ القيم: (والذي يظهرُ مِن الآيةِ: أنَّ الله يعلمُ ما في أنفسِهم، إذ أهَّلهم لقبولِ دينِه وتوحيدِه، وتصديقِ رسلِه، واللهُ سبحانَه وتعالَى عليمٌ حكيمٌ، يضعُ العطاءَ في مواضعِه... فإنَّهم أنكروا أن يكونَ الله سبحانَه أهَّلهم للهدَى والحقِّ، وحرَمه رؤساءَ الكفارِ وأهلَ العزةِ والثروةِ منهم، كأنَّهم استدلُّوا بعطاءِ الدُّنيا على عطاءِ الآخرةِ، فأخبَر الله سبحانه أنَّه أعلمُ بمَن يؤهِّلُه لذلك). ((مدارج السالكين)) (٣/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٠).

جليٍّ واضحٍ[(١)].

٣- إنَّ العَقلُ والشَّرعُ تطابقا على أنَّه لا بُدَّ مِن تعظيمِ المؤمِنِ البَرِّ التقيِّ، وإهانةِ الفاجرِ الكافرِ، فلو عُكِسَت القضيةُ، فقُرِّبَ الكافِرُ الفاجِرُ على سبيلِ التَّعظيمِ، وطُرِدَ المؤمِنُ التَّقيُّ على سبيلِ الإهانةِ، كان ذلك على ضِدِّ أمرِ الله تعالى، وعلى عَكسِ حُكمِه مِن إيصالِ الثَّوابِ إلى المحقِّين، والعِقابِ إلى المُبطِلينَ، قال تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السلامُ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ * وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذكَر الله سبحانَه قصصَ الأنبياءِ عليهم السَّلام للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تنبيهًا له على ملازمةِ الصبرِ على أذَى الكفارِ إلى أن يكفيَه الله أمرَهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ...﴾[(٣)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ بادرَ الملأُ- أي: الأشرافُ والزُّعَماءُ الذين كَفَروا مِن قَومِه- إلى الجوابِ؛ لِيكونَ الدَّهْماءُ تَبعًا لهم كعادَتِهم، واقتَرَن جوابُهم هنا بـ(الفاء)؛ لأنَّه هو الأصلُ في الرَّدِّ السَّريعِ[(٤)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ كرَّرَ نوحٌ عليه السَّلامُ هذه اللَّفظةَ كُلَّ قليلٍ؛ تذكيرًا لهم أنَّه منهم؛ لِتُعَطِّفَهم الأرحامُ، وتَرُدَّهم القَراباتُ عن حَسَدِه أو اتِّهامِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٥٢).

إلى قَبولِ ما يُلقي إليهم مِن الكلامِ[١].

٤- عُطِفَت جُملةُ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على جملةِ ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾؛ لأنَّ مَضمونَها كالنَّتيجةِ لِمَضمونِ المَعطوفِ عليها، لأنَّ نَفيَ طَمَعِه في المُخاطَبينَ يَقتَضي أنَّه لا يُؤذي أتباعَه لأجلِ إرضاءِ هؤلاء[٢].

٥- صِفاتُ الكَمالِ تَرجِعُ إلى ثلاثةٍ: العلمِ والقُدرةِ والغِنَى، وهذه الثَّلاثةُ لا تَصلحُ على وجهِ الكَمالِ إلَّا لله وَحدَه؛ فإنَّه الذي أحاط بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وهو غنيٌّ عن العالَمين، وقد أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يبرأَ مِن دعوى هذه الثَّلاثةِ بقَولِه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾[الأنعام: ٥٠]، وكذلك قال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ فهذا أوَّلُ أولي العَزمِ وأوَّلُ رَسولٍ بَعَثَه الله تعالى إلى أهلِ الأرضِ، وهذا خاتَمُ الرُّسُلِ وخاتَمُ أولي العَزمِ، كِلاهما يتبَرَّأُ من ذلك[٣].

٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ على أنَّه ليس مِن شَرْطِ الرَّسولِ أن يَعلمَ كلَّ ما يكونُ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ فيه تأكيدُ الجملَةِ بلامِ القسَمِ و(قَدْ)؛ لأنَّ المخاطَبين لَمَّا غفَلوا عَن الحذَرِ ممَّا بِقَومِ نوحٍ مَع مُماثَلةِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٥٩).

حالِهم؛ نُزِّلوا مَنزِلةَ المنكِرِ لوقوعِ رِسالتِه(١).

- قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اقتَصر على النذارةِ دونَ البِشارةِ؛ لأنَّ دعوتَه كانت لمجردِ الإنذارِ، أو لكونِهم لم يعمَلوا بما بشَّرهم به(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

- جملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ تَعليليَّةٌ لِمُوجِبِ النَّهيِ المستَفادِ مِن ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾، والمعنى: نَهيتُكم عن عبادةِ غيرِ اللهِ؛ لأنِّي أخافُ عليكم، وفيها تَحقيقٌ لِمَعنى الإنذارِ(٣).

- وقولُه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ فيه وصفُ اليومِ بالأليمِ؛ لِوُقوعِ الألَمِ فيه، وهو أبلَغُ مِن أن يُوصَفَ العذابُ بالأليمِ(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ فيه عطْفُ قولِ الملَأِ مِن قومِه بالفاءِ على فِعْلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم بادَروه بالتَّكذيبِ والمُجادَلةِ الباطلةِ لَمَّا قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...﴾ [هود: ٢٥] إلى آخِرِه، ولَم تقَعْ حِكايةُ ابتداءِ مُحاوَرتِهم إيَّاه بـ(قال) مجرَّدًا عن الفاءِ، كما وقَع في سورةِ الأعرافِ؛ لأنَّ ابتداءَ مُحاوَرتِه إيَّاهم هنا لم يقَعْ بلَفظِ القولِ؛ فلم يَحْكِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٠)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٤).

جَوابَهم بطَريقةِ المُحاوَراتِ بخِلافِ آيةِ الأعرافِ(١).

- قولُه: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ فيه تعريضٌ مِنهم بأنَّهم أحَقُّ منه بالنُّبوَّةِ، وأنَّ اللهَ لو أراد أن يَجعَلَها في أحَدٍ مِن البشَرِ لجعَلَها فيهم(٢).

- وقولُه: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ مُبالَغةٌ في الإخبارِ، وكأنَّه مُؤْذِنٌ بتأكيدِ حَصْرِ مَن اتَّبعه، وأنَّهم هم الأراذِلُ لم يَشرَكْهم شَريفٌ في ذلك(٣)، وعُبِّر عنهم بالموصولِ والصِّلةِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ دونَ أن يُقالَ: (إلَّا أراذِلُنا)؛ لِحكايةِ أنَّ في كلامِ الَّذين كفَروا إيماءً إلى شُهرَةِ أتباعِ نوحٍ عليه السَّلامُ بينَ قومِهم بوصفِ الرَّذالةِ والحَقارةِ، وكان أتباعُ نوحٍ عليه السَّلامُ مِن ضُعفاءِ القومِ، ولكنَّهم مِن أَزْكياءِ النُّفوسِ ممَّن سبَق لهم الهُدى(٤).

- وقولُهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ فيه جمعُ الضَّميرِ في ﴿لَكُمْ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا وصَفوا كلَّ فَريقٍ مِن التَّابعِ والمتبوعِ بما يَنْفي سِيادةَ المَتْبوعِ، وتَزْكيةَ التَّابعِ- جمَعوا الوَصْفَ الشَّاملَ لهما، وهو المقصودُ مِن الوَصْفَينِ المفرَّقَين، فنَفَوْا أن يَكونَ لنوحٍ عليه السَّلامُ وأتباعِه فضلٌ على الَّذين لم يُؤمِنوا به حتَّى يكونَ نوحٌ عليه السَّلامُ سيِّدًا لهم، ويَكونَ أتباعُه مُفضَّلين بسِيادةِ مَتْبوعِهم(٥).

٤- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٤٩).

فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾

- فُصِلَت جملةُ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ عن الَّتي قبْلَها -أي: لم تُعطَفْ عليها- على طريقةِ حِكايَةِ الأقوالِ في المحاوَراتِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فلمَّا وقَعَت هذه الجملةُ مُقابِلًا لكَلامٍ مَحْكيٍّ يُقالُ، فُصِلَت الجملةُ ولم تُعطَفْ، بخلافِ ما تقدَّم آنِفًا في قولِه: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ ﴾[1] [هود: ٢٧].

- قولُه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ فيه افتِتاحُ مُراجَعتِه عليه السَّلامُ بالنِّداءِ؛ لِطلَبِ إقبالِ أَذْهانِهم لوَعْيِ كلامِه، واختيارِ استِحْضارِهم بعُنوانِ قومِه؛ لاستِنْزالِ طَائرِ نُفورِهم؛ تَذكيرًا لهم بأنَّه مِنهم فلا يُريدُ لهم إلَّا خيرًا[2].

- قولُه: ﴿ أَرَءَيۡتُمۡ ﴾ استِفهامٌ تقريريٌّ، وهو بمعنى: أَخبِروني[3].

- قولُه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ فيه اختيارُ وَصْفِ الرَّبِّ دونَ اسْمِ الجَلالةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ إعطاءَه البيِّنةَ والرَّحمةَ فضلٌ مِن اللهِ، أراد به إظْهارَ رِفْقِه، وعِنايَتِه به[4].

- قولُه: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فيه عطفُ فِعْلِ (عُمِّيَت) بفاءِ التَّعقيبِ؛ إيماءً إلى عدَمِ الفترةِ بينَ إيتائِه البيِّنةَ والرَّحمةَ وبينَ خَفائِها عليهم، وهو تعريضٌ لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٢).

بأنَّهم بادَروا بالإنكارِ قبلَ التَّأمُّلِ[١].

- عُدِّي فِعلُ (عُمِّيَت) بحرفِ (عَلى)؛ لِتَضْمينِه مَعنى: الخَفاءِ[٢].

- ومِن بَديعِ هذا الاستِعْمالِ هنا أنَّ فيه طِباقًا؛ لِمُقابَلةِ قولِهم في مُجادَلتِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، فقابَل نوحٌ عليه السَّلامُ كَلامَهم مُقابَلةً بالمعنى واللَّفظِ؛ إذ جعَل عدَمَ رُؤيتِهم مِن قَبيلِ العَمى[٣].

- قولُه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾، الاستِفْهامُ إنكاريٌّ، أي: ما كان لنا ذلك؛ لأنَّ اللهَ لم يَأمُرْه بإكْراهِهم إعراضًا عن العنايةِ بهم، فتُرِك أمْرُهم إلى اللهِ، وذلك أشَدُّ في توقُّعِ العقابِ العظيمِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، جيءَ بضَميرِ المتكلِّمِ المشارِكِ هنا، فلم يَقُلْ: (أَأُلْزِمُكُموها)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الإلزامَ لو فُرِض وُقوعُه لكان له أعوانٌ عليه وهم أتباعُه؛ فأراد ألَّا يُهمِلَ ذِكْرَ أتباعِه، وأنَّهم أنصارٌ له، لو شاء أن يُهيبَ بهم، والقَصْدُ مِن ذلك التَّنويهُ بشَأنِهم في مُقابَلةِ تَحقيرِ الآخَرين إيَّاهم[٥].

- وتَقْديمُ المجرورِ ﴿لَهَا﴾ على ﴿كَٰرِهُونَ﴾؛ لرِعايةِ الفاصِلَةِ مع الاهتمامِ بشَأنِها، والمقصودُ مِن كَلامِه بَعْثُهم على إعادةِ التَّأمُّلِ في الآياتِ، وتَخفيضِ نُفوسِهم، واستِنْزالِهم إلى الإنصافِ، وليس المقصودُ مَعذِرَتَهم بما صنَعوا،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٢).

ولا العُدولَ عن تكْريرِ دَعوَتِهم[١].

- والتعبيرُ في قَولِ الله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ بالجُملةِ الاسميَّةِ واسمِ الفاعلِ إشارةٌ إلى أنَّ أفعالَهم أفعالُ مَن كراهتُه لها ثابتةٌ مُستحكمةٌ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا في قصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، وقال في قصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]؛ فتَساوَيا في اللَّفْظَين، واختَلفا في تقديمِ المفعولِ الثَّاني في الآيةِ الأولى على الجارِّ والمجرورِ، حيث قال: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، وتأخيره عَنهما في الآيةِ الثَّانيةِ حيث قال: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قومَ صالحٍ عليه السَّلامُ بالَغوا في إساءةِ الجوابِ حينَ قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، فرَمَوا مَقامَه النَّبويَّ بحَطِّ مَرتَبتِه عنهم، فلمَّا بالَغوا في إساءةِ الجوابِ ردَّ عليهم عليه السَّلامُ ردًّا لِمَقالِهم الشَّنيع بقولِه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ فخاطَبهم على ما يَجْري في مُناظَرةِ مَن فَرَض ما لا يَعتَقِدُه المناظِرُ على حسَبِ نُطقِه، ولكنَّه يَستنزِلُ بذلك مُناظِرَه؛ لِيُقيمَ الحُجَّةَ عليه، فيَقولُ: هَبْ كذا على ما تَقولُه، فعلى هذا جَرى قولُ النَّبيِّ الكريمِ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، أي: كيف تَرَون إنْ كنتُ على واضحةٍ وعلى يقينٍ مِن ربِّي، وآتاني مِنه رحمةً فعَصَيتُه بمُوافَقتِكم، فإن فعَلتُ ذلك فمَن يَنصُرُني ويَمنَعُني مِن عَذابِه، وأكَّد بتَقدُّمِ المجرورِ في قولِه: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾؛ لِمَا يُحرِزُ تَقديمُه من التَّأكُّدِ،

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٣-٢٧٤).

ويَعِيه مَفهومُه مِن أنَّ الرَّحمةَ مِنه سُبحانه لا يُشرَكُ فيها غيرُه، فهو مخصوصٌ لا يَحصُلُ مع تأخيرِه، فلمَّا بالَغُوا في قُبْحِ الجوابِ بالَغ عليه السَّلامُ في ردِّ مَقالِهم؛ فقدَّم المجرورَ لتأكيدِ أنَّ الرَّحمةَ مِن عندِ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾. ولَمَّا لم يَكُنْ في مُراجَعةِ قومِ نوحٍ مثلُ هذا في شَناعةِ الجوابِ؛ لأنَّ أقصى المفهومِ مِن قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، إلحاقُه بهم، ومُماثلتُه إيَّاهم، وكلُّهم يقولُ: لو كُنتَ رسولًا لكنتَ مِن الملائكةِ ولم تكُنْ لِتُماثِلَنا، فلم يَكُنْ في قولِ هؤلاء ما في قولِ قومِ صالحٍ، فجرَى جَوابُه عليه السَّلامُ على نِسْبةِ ذلك، فقال: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، فأتى بالمجرورِ مؤخَّرًا في مَحلِّه على ما يَجِبُ، حيث لا يُقصَدُ في إحرازِ المفهومِ ما قُصِد في الآيةِ الأخرى؛ فورَد كلٌّ على ما يُلائِمُ[(١)].

- وأيضًا مِن حُسْنِ المناسَبةِ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، وبعدَه: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، وبعدَهما: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨]، فقال في الأوَّلَيْن ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾، وفي الثَّالثِ: ﴿وَرَزَقَنِى﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ الثَّالثَ تَقدَّمه ذِكرُ الأموالِ، وتأخَّر عنه قولُه: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾، وهُما خاصَّان؛ فناسَبهما قولُه: ﴿وَرَزَقَنِى﴾، بِخِلافِ الأوَّلَين؛ فإنَّه تَقدَّمَهما أمورٌ عامَّةٌ، فناسَبها قولُه: ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾[(٢)].

- وأيضًا ناسبَ قولُه تعالى هنا: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، وبعدَه: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، وبعدَهما: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨]؛ لأنَّ ﴿عِندِهِۦ﴾ وإن كان ظرفًا فهو اسمٌ، فذَكَر الأُولى بالتَّصريحِ والثَّانيةَ والثَّالثةَ بالكنايةِ؛ لِتقدُّمِ ذِكْرِه، فلمَّا كَنَى عنه قدَّمَه؛ لأنَّ الكنايةَ يتقدَّمُ عليها

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٥-٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٣).

الظَّاهرُ نحوُ: ضرَب زيدٌ عَمْرًا، فإنْ كَنَيت عن عَمْرٍو قدَّمتَه، نحوُ: عَمرٌو ضرَب زيدًا، وكذلك: زيدٌ أعطاني دِرْهَمًا مِن مالِه، فإن كنَيْتَ عن المالِ قلتَ: المالُ زيدٌ أَعْطاني منه دِرهَمًا[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا﴾ في إعادةِ الخِطابِ بـ﴿يا قَوْمِ﴾ تأكيدٌ لِمَا في الخطابِ به أوَّلَ مرَّةٍ مِن المعاني، وعُطِف النِّداءُ بالواوِ- مع أنَّ المخاطَبَ به واحدٌ، وشأنُ عطفِ النِّداءِ أن يَكونَ عندَ اختلافِ المنادَى، فأمَّا إذا اتَّحد المنادى فالشَّأنُ عدَمُ العطفِ، فتَعيَّن هنا أن يَكونَ العطفُ مِن مَقولِ نوحٍ عليه السَّلامُ لا مِن حكايةِ اللهِ عنه، ويجوزُ أن يَكونَ تَنبيهًا على اتِّصالِ النِّداءاتِ بعضِها ببعضٍ، وأنَّ أحَدَها لا يُغْني عن الآخَرِ، ولا يكونُ ذلك مِن قَبيلِ الوصْلِ؛ لأنَّ النِّداءَ افتِتاحُ كلامٍ، فجُملتُه ابتدائيَّةٌ، وعَطفُها إذا عُطِفَت مجرَّدُ عطفٍ لفظيٍّ، ويجوز أيضًا أن يكونَ ذلك تَفنُّنًا عربيًّا في الكلامِ عند تَكرُّرِ النِّداءِ؛ استِحْسانًا للمُخالَفةِ بينَ التَّأكيدِ والمؤكَّدِ[٢].

- جملةُ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ احتِراسٌ؛ لأنَّه لَمَّا نفى أن يَسألَهم مالًا، والمالُ أجرٌ، نشَأ توهُّمُ أنَّه لا يَسألُ جَزاءً على الدَّعوةِ؛ فجاء بجملةِ: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ احْتِرَاسًا[٣].

- وفيه المُخالَفةُ بينَ العِبارتَينِ في قولِه: ﴿مَالًا﴾ و﴿أَجۡرِيَ﴾؛ لإفادةِ أنَّه لا

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٣- ٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٥).

يَسْأَلُ مِن اللهِ مالًا، ولكنَّه يَسأَلُ ثَوابًا[(١)].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن أَتْباعِه بطريقِ الموصوليَّةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِمَا يُؤْذِنُ به الموصولُ مِن تغليظِ قومِه في تعريضِهم له بأن يَطرُدَهم بما أنَّهم لا يُجالِسون أمثالَهم؛ إيذانًا بأنَّ إيمانَهم يوجِبُ تَفضيلَهم على غيرِهم الَّذين لم يُؤمِنوا به، والرَّغبةَ فيهم؛ فكيف يَطرُدُهم؟! وفيه أيضًا إبطالٌ لِما اقتَضاه قولُهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] مِن التَّعريضِ بأنَّهم لا يُماثِلونهم في مُتابَعتِه[(٢)].

- وجملةُ: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ في مَوضِعِ التَّعليلِ لِنَفْيِ أن يَطرُدَهم؛ بأنَّهم صائِرُون إلى اللهِ في الآخِرةِ، فمُحاسِبٌ مَن يَطرُدُهم[(٣)]، وتأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) لِرَدِّ إنكارِ قومِه البَعْثَ، أو للاهتمامِ بذلك اللِّقاءِ، وقد زِيدَ هذا التَّأكيدُ تأكيدًا بجُملَةِ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾[(٤)].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ استدراكٌ، وموقِعُ هذا الاستدراكِ هو أنَّ مضمونَ الجُملةِ ضِدُّ مَضمونِ التي قبلَها، وهي جملةُ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾، أي: لا ريبَ في ذلك، ولكنَّكم تَجهلونَ فتَحسَبونَهم لا حُضرةَ لهم، وأنْ لا تَبِعةَ في طَرْدِهم[(٥)].

- وزيادةُ لفظةِ ﴿قَوۡمٗا﴾ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على أنَّ جَهْلَهم صفةٌ لازمةٌ لهم؛ كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قوميَّتِهم، وحذَفَ مفعولَ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾؛ للعِلْمِ به، أي: تَجهَلون ذلك[1].

- وفي تَعبيرِه بـ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ دون (جاهلينَ) إشارةٌ إلى أنَّ الجَهلَ مُتجَدِّدٌ لهم، وهو غيرُ عادتِهم؛ استعطافًا لهم إلى الحِلمِ[2].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا في قصَّةِ نوحٍ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقاله بعدُ- حِكايةً عن هودٍ- بلفظِ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ [هود: ٥١]؛ وذلك لأنَّه في قصَّةِ نوحٍ وقَعَ بعدَها ﴿خَزَآئِنُ﴾ ولفظُ المالِ بالخزائنِ أَلْيَقُ[3]، أو يكونُ هذا الاختلافُ توسِعةً في التَّعبيرِ عن المرادِ بمُتساوِيَيْن[4].

- ومِن حُسْنِ المناسَبةِ كذلك قولُه أيضًا هنا: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ بالواوِ، وفي الثَّانيةِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ [هود:٥١] بدُونِها؛ وذلك لطولِ الكلامِ الواقعِ بين النِّداءَينِ في قصَّةِ نوحٍ، وقِصَرِ ما بينَهما في قصَّةِ هودٍ، فناسَب ذِكْرُ الواوِ في الأوَّلِ؛ لِتَوصيلِ ما بَعدَها بما قبلَها[5].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٣-٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ إضافةُ خَزائِنَ إلى اللهِ لاختِصاصِ اللهِ بها[١].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ القولِ؛ لأنَّه نفيٌ لِشُبهةِ قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، وإبطالُ دَعْوى أُخرَى ألصَقُوها به، وتأكيدُه بـ (إنَّ) لأنَّه قولٌ لا يَقولُه قائلُه إلَّا مؤكَّدًا؛ لشِدَّةِ إنكارِه لو ادَّعاه مُدَّعٍ؛ فلمَّا نَفاه نفَى صيغةَ إثباته[٢].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ إبطالٌ لقولِهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ بطريقةِ التَّغليطِ؛ لأنَّهم جعَلوا ضعْفَهم وفَقْرَهم سببًا لانتِفاءِ فَضْلِهم، فأبطَلَه بأنَّ ضعْفَهم ليس بحائِلٍ بينَهم وبينَ الخيرِ مِن اللهِ؛ إذْ لا ارتِبَاطَ بينَ الضَّعفِ في الأمورِ الدُّنيَويَّةِ مِن فقرٍ وقلَّةٍ، وبينَ الحرمانِ مِن نَوالِ الكمالاتِ النَّفْسانيَّةِ والدِّينيَّةِ[٣].

- وقولُه: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ فيه الإتيانُ بحرفِ النَّفيِ ﴿لَن﴾ الدَّالِّ على تأكيدِ نفْيِ الفعلِ في المستقبَلِ؛ تَعْريضًا بقومِه؛ لأنَّهم جعَلوا ضعْفَ أتباعِ نوحٍ عليه السَّلامُ وفَقْرَهم دليلًا على انتِفاءِ الخيرِ عنهم؛ فاقتَضى دَوامَ ذلك ما داموا ضُعَفاءَ فُقراءَ، فلِسانُ حالِهم يقولُ: لن يَنالوا خيرًا، فكان ردُّه عليهم بأنَّه لا يَقولُ: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾[٤].

- وجملةُ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تعليلٌ لنَفْيِ أن يَقولَ: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾؛ ولذلك فُصِلَت عن الجُملةِ قبْلَها، ولم تُعطَفْ عليها[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٩).

- وجملةُ ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ ثانٍ لِنَفيِ أن يقولَ: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾، وقد أكَّدها بثلاثِ مؤكِّداتٍ: (إنَّ)، ولامِ الابتِداءِ، وحَرْفِ الجزاءِ ﴿إِذٗا﴾؛ تحقيقًا لِظُلمِ الَّذين رمَوُا المؤمِنين بالرَّذالةِ، وسَلَبوا الفضْلَ عنهم؛ لأنَّه أرادَ التَّعريضَ بقومِه في ذلك، وقولُه: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أبلَغُ في إثباتِ الظُّلمِ مِن: (إنِّي ظالمٌ)[1].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٢-٣٥)

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: أي: يُضِلَّكم، وقيل: يُهْلِكَكم؛ لأنَّ الإضلالَ يُفْضي إلى الهلاكِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عن قومِ نُوحٍ أنَّهم قالوا له: يا نوحُ قد حاجَجْتَنا فأكثَرتَ مُحاجَّتَنا، فأْتِنا بما تَعِدُنا مِن العذابِ إن كنتَ مِن الصَّادقينَ في دعواك، فقال لهم نوحٌ: إنَّ اللهَ وَحدَه هو الذي يأتيكم بالعذابِ إن شاء، ولَستُم بفائِتيه إذا أراد أن يعَذِّبَكم؛ لأنَّه سُبحانَه لا يُعجِزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا ينفَعُكم نُصحي واجتهادي في دَعوتِكم للإيمانِ، إن كان اللهُ يريدُ أن يُضِلَّكم، هو سبحانَه مالِكُكم، وإليه تُرجَعونَ في الآخرةِ للحِسابِ والجزاءِ.

بل أيقولُ مُشرِكو قَومِك- يا مُحمَّدُ: إنَّك اختلقتَ القُرآنَ، واختلقتَ قِصَّةَ نُوحٍ مِن تِلقاءِ نَفسِك؟! قلْ لهم: إن كنتُ قد افتريتُ ذلك على اللهِ، فعليَّ وحدي إثمُ ذلك، وإذا كنتُ صادقًا فأنتم المُجرِمونَ الآثِمونَ، وأنا بريءٌ مِن كُفرِكم وتكذيبِكم وإجرامِكم.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ مِن قَومِ نوحٍ: يا نوحُ، قد حاجَجتَنا وخاصَمتَنا، فأكثَرْتَ محاجَّتَنا وخُصومَتَنا، وبالغْتَ فيها[١].

﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

أي: فعجِّلْ لنا- يا نوحُ- الذي تَعِدُنا به من العَذابِ، إن كنتَ من الصَّادقينَ في أقوالِك ودعواك أنَّك رسولُ اللهِ حقًّا[٢].

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: إنَّما يأتيكم بالعَذابِ ويُعجِّلُه لكم اللهُ وَحْدَه، إن أراد أن يُهلِكَكم[٣].

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾.

أي: ولستُم بفائتينَ اللهَ بالهَرَبِ من عقابه، ولا قدرةَ لكم على دَفعِ عَذابِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني))

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ نوحٌ عليه السَّلامُ أنَّهم إنَّما هم في قَبضتِه تعالى؛ زاد في بيانِ عَظَمتِه، وأنَّ إرادتَه تضمحِلُّ معها كلُّ إرادةٍ، في سياقٍ دالٍّ على أنَّه بذلك ناصِحٌ لهم، وأنَّ نُصحَه خاصٌّ بهم[١].

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

أي: ولا ينفَعُكم ما أبذُلُه لكم مِن نُصحٍ إن كان اللهُ يشاءُ أن يُضِلَّكم ويَخذُلَكم، ويُوقِعَ الغَوايةَ في قلوبِكم[٢].

﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: الله هو ربُّكم المتصَرِّفُ في أمورِكم بما يشاءُ، فإليه وحده الهِدايةُ والغَوايةُ، وإليه وَحدَه تصيرونَ بعد هلاكِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم[٣].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

(٢/ ٥٦٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧١، ٥٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

قال السمعاني في قوله: ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: (أَكثرُ المفَسِّرينَ على أنَّ مَعْناه: يُضلَّكم). ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها جُملةٌ مُعتَرِضةٌ بينَ جملةِ أجزاءِ القِصَّةِ، وليست مِن القِصَّةِ، ومناسَبةُ هذا الاعتراضِ أنَّ تفاصيلَ القِصَّةِ التي لا يَعلَمُها المُخاطَبونَ تفاصيلُ عَجيبةٌ تدعو المُنكِرينَ إلى أن يتذكَّروا إنكارَهم، ويُعيدوا ذِكرَه. وكونُ ذلك مطابقًا لِما حصلَ في زَمَنِ نوحٍ عليه السَّلامُ، وشاهِدةً به كُتُبُ بني إسرائيلَ، يدُلُّ على صِدقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ عِلمَه بذلك مع أميَّتِه وبُعدِ قَومِه عن أهلِ الكِتابِ، آيةٌ على أنَّه وَحيٌ مِن اللهِ لا يأتيه الباطِلُ مِن بين يَدَيه ولا مِن خَلْفِه(١).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

أي: أم يقولُ مُشرِكو قَومِك- يا مُحمَّدُ: اختلقَ محمَّدٌ هذا القُرآنَ، واختلق قِصَّةَ نوحٍ مِن تِلقاءِ نَفسِه(٢)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٣-٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٣-٦٤).

ومِمن اختار المعنَى المذكورَ؛ أنَّ الضميرَ في ﴿يَقُولُونَ﴾ لكُفَّارِ قُريشٍ، وفي ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ، وابنُ جُزي، ونسَبَه لجميعِ المفسِّرين، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

واختار أنَّها حِكايةٌ عن نوحٍ وما قاله لِقَومِه: القرطبيُّ، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٧).

قال السعدي: (﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ هذا الضميرُ محتملٌ أن يعودَ إلى نوحٍ، كما كان السياقُ في قصتِه مع قومِه، وأنَّ المعنى: أنَّ قومَه يقولونَ: افترَى على الله كذبًا، وكذَّب بالوحي الذي يزعمُ أنَّه مِن الله، وأنَّ الله أمرَه أن يقولَ: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أي: كلٌّ عليه وزرُه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

ويحتملُ أن يكونَ عائدًا إلى النبيِّ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتكونَ هذه الآيةُ معترضةً، في أثناءِ قصةِ نوحٍ وقومِه؛ لأنَّها مِن الأمورِ التي لا يعلمُها إلَّا الأنبياءُ، فلمَّا شرَع الله في قصِّها على رسولِه، وكانت مِن جملةِ الآياتِ الدالةِ على صدقِه ورسالتِه، ذكَرَ تكذيبَ قومِه له مع البيانِ

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

أي: قل -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إن اختلقْتُ القُرآنَ وافتعلتُه- كما تَزعمونَ- فعلَيَّ وحدي إثمي في كَذِبي على اللهِ، وأنا بريءٌ ممَّا تُذنِبونَ مِن الكُفرِ والكَذِبِ على اللهِ، والتَّكذيبِ بالحَقِّ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ دَلالةٌ على المُجادلةِ المَشروعةِ- وقد تجبُ وقد تُستحَبُّ- وأمَّا المذمومةُ شَرعًا فهي: الجَدلُ بالباطِلِ، والجدلُ بغيرِ عِلمٍ، والجدلُ في الحقِّ بعد ما تبيَّن[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ سَمَّوه (وَعْدًا) سُخريةً به، أي: أنَّ هذا الذي جعلْتَه وعيدًا هو عندنا وعدٌ حسَنٌ سارٌّ، باعتبارِ أنَّا نحبُّ حُلولَه، فالمعنى: أنَّك لستَ قادرًا على ذلك، ولا أنت صادِقٌ فيه، فإن كان حقًّا فائْتِنا به[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الإغواءَ بإرادةِ الله، وهي بذلك تدُلُّ على بُطلانِ مَذهَبِ المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ ومَن وافَقَهما؛ إذ زعموا أنَّ الله تعالى لا يُريدُ أن يَعصيَ العاصي، ولا يكفُرَ الكافِرُ، ولا يغويَ الغاوي، فرَدَّ الله عليهم بقَولِه تعالى: ﴿إِن

التامِّ. ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٨).

كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾، فأضاف إغواءَهم إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي والمُضِلُّ، سبحانه عمَّا يقولُ الجاحِدونَ والظَّالِمونَ عُلُوًّا كبيرًا[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ بيانُ نوعِ الإرادةِ الكونيَّةِ- وهي الإرادةُ المُستَلزِمةُ لوقوعِ المُرادِ- ويُقابِلُها الإرادةُ الدينيَّةُ الشَّرعيَّةُ- وهي محبَّةُ المرادِ ورِضاه، ومحبَّةُ أهلِه والرِّضا عنهم، وجزاؤُهم بالحُسنى- كقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[٢] [البقرة: ١٨٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قولُهم: ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ خبَرٌ مستعمَلٌ في التَّذمُّرِ والتَّضجيرِ والتَّأييسِ مِن الاقتناعِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ فيه قَصْرُ قَلْبٍ[٤]، بِناءً على ظاهِرِ طلَبِهم؛ حَملًا لِكلامِهم على ظاهِرِه، على طَريقةِ مُجاراةِ الخَصْمِ في المناظَرةِ، وإلَّا فإنَّهم جازِمون بتعذُّرِ أن يأتِيَهم بما وعَدهم؛ لأنَّهم يَحسَبونه كاذِبًا، وهم جازِمون بأنَّ اللهَ لم يتوعَّدْهم، ولعلَّهم كانوا لا يُؤمِنون بوجودِ اللهِ[٥].

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٠).
(٤) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلمُ فيه حُكمَ السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معينةٍ أو طرفٍ معينٍ، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦١).

- وقولُه: ﴿إِن شَآءَ﴾ احتراسٌ راجعٌ إلى حَملِ العذابِ على عذابِ الدُّنيا[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ فيه تعريضٌ بتَحْميقِهم، وتسفيهِ آرائِهم؛ حيث كَرِهوا النُّصْحَ الَّذي هو نفْعٌ لهم[٢].

- وجملةُ ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ ابتدائيَّةٌ لِتَعليمِهم أنَّ اللهَ ربُّهم؛ إن كانوا لا يُؤمِنون بوجودِ اللهِ، أو لِتَذكيرِهم بذلك إن كانوا يُؤمِنون بوجودِه، ويُشرِكون معه وَدًّا وسُواعًا ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا[٣].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ في ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للاهتمامِ، ولرِعايةِ الفاصلةِ[٤].

٤- قولُه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾

- لفظةُ ﴿أَمۡ﴾ هنا للإضرابِ للانتقالِ مِن غرَضٍ إلى غرضٍ، والاستفهامُ الذي يُؤْذِنُ به حرفُ ﴿أَمۡ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وموقعُ الإنكارِ بديعٌ؛ لِتَضمُّنِه الحُجَّةَ عليهم[٥].

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيَّ﴾، وهو مُؤذِنٌ بالقَصْرِ، أي: إجرامي عليَّ لا عليكم؛ فلماذا تُكثِرون ادِّعاءَ الافتِراءِ كأنَّكم ستُؤاخَذون بتَبِعَتِه؟! وهذا جارٍ على طريقةِ الاستِدْراجِ لهم،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٤).

والكلامِ المنصِفِ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٤).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ۚ
إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُۚ
قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: أي: لا تَحزَن، مِن البُؤسِ: وهو الضُّرُّ والشِّدَّةُ[١].

﴿وَوَحْيِنَا﴾: أي: أمرِنا وتعليمِنا، والوحيُ: الإشارةُ، وأيضًا: الكتابُ والرسالةُ، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرِك حتى علِمه فهو وحيٌ كيف كان، وأصلُ (وحي): يدلُّ على إلقاءِ علمٍ في إخفاءٍ[٢].

﴿مُّقِيمٌ﴾: أي: دائمٌ سرمديٌّ أبديٌّ، وأصلُ (قوم): انْتِصابٌ أو عَزْمٌ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أوحَى إلى نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه لن يؤمِنَ باللهِ مِن قومِك إلا مَن قد آمنَ مِن قبلُ، فلا تَحزَنْ على ما كانوا يفعلونَ، واصنَعِ السفينةَ بمرأًى منَّا وبأمْرِنا لك تحتَ حِفظنا وكِلاءَتِنا، ولا تطلُبْ مني العفوَ عن هؤلاء الذين

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص٨٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

ظَلَموا أنفُسَهم من قومِك بكُفرِهم؛ فإنَّهم مُغرَقون بالطُّوفانِ.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّ نوحًا عليه السلامُ شرع يَصنَعُ السفينةَ كما أُمِر، وكلَّما مرَّ عليه جماعةٌ مِن كُبَراءِ قَومِه سَخِروا منه، قال لهم نوحٌ رادًّا عليهم: إن تسخَروا منَّا اليومَ لجَهلِكم بصِدقِ وعدِ اللهِ، فإنَّا نسخَرُ منكم كما تسخرونَ منَّا، فسوف تعلمون مَن الذي يأتيه في الدُّنيا عذابُ اللهِ الذي يُهينُه، ويَنزِلُ به في الآخرةِ عذابٌ دائِمٌ لا انقِطاعَ له؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

أي: وأوحَى اللهُ إلى نبيِّه نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه لن يؤمِنَ باللهِ ويتَّبِعَك من قومِك إلَّا مَن سبق أن آمَن مِن قَبلُ[1].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

أي: فلا تَحزَنْ- يا نوحُ- بما كان يفعَلُ قَومُك من الكُفرِ والتكذيبِ، ولا يُهمَّنَّك أمرُهم؛ فإنِّي مُهلِكُهم[2].

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان نهيُه تعالى نوحًا عليه السَّلامُ عن الابتئاسِ بفِعلِهم- مع شِدَّةِ جُرمِهم-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٥).

مؤذِنًا بأنَّ الله ينتَصِرُ له؛ أعقَبَه بالأمرِ بصُنعِ الفُلكِ؛ لتهيئةِ نجاتِه، ونجاةِ مَن قد آمَنَ به من العذابِ الذي قدَّرَه الله لِقَومِه(١).

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾.

أي: واصنَعِ السَّفينةَ بمرأى منَّا، وتحت حِفْظنا، وبتعليمِنا لك كيفيَّةَ صِناعتِها(٢).

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾

أي: ولا تسألْني -يا نوحُ- العفوَ عن قَومِك المُشرِكينَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكفرِ؛ إنَّهم محكومٌ عليهم بالغَرَقِ بالطوفانِ، فلا سبيلَ إلى طلَبِ الشفاعةِ لهم(٣).

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾.

أي: وطَفِقَ نوحٌ يصنَعُ السَّفينةَ، وكلَّما مرَّ عليه جماعةٌ من كُبَراءِ قَومِه المشركينَ ورأَوْا ما يصنَعُ هَزِئوا منه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

قال القرطبي: (في سُخريَتِهم منه قولان: أحدُهما: أنَّهم كانوا يرَونَه يبني سفينتَه في البَرِّ فيسخرون به ويستهزِئونَ، ويقولون: يا نوحُ، صِرتَ بعد النبوَّةِ نجَّارًا. الثاني: لَمَّا رأوه يبني السفينةَ ولم يشاهِدوا قبلها سفينةً بُنِيَت، قالوا: يا نوحُ، ما تصنعُ؟ قال: أبني بيتًا يمشي على الماءِ، فعَجِبوا من قولِه، وسَخِروا منه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢-٣٣).

﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: إن تستَهزِئوا بنا عند بناءِ السَّفينةِ، فإنَّا نستهزِئُ بكم كما تستَهزِئونَ بنا[1].

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾.

أي: قال نوحٌ مهدِّدًا قومَه: فسوف تعلمونَ إذا نزل بكم عِقابُ اللهِ مَن يأتيه[2] عذابٌ يُهينُه في الدُّنيا[3].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٤٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٤).

اختار ابنُ جرير أنَّ المرادَ نهزأُ منكم في الآخرةِ كما تهزؤون منا في الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣).

واختار ابن عطية أنَّ المرادَ نسخَرُ منكم الآن لغفلَتِكم عما سيحُلُّ بكم من العذابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠).

واختيارُ القرطبيِّ: نسخَرُ منكم غدًا عند الغَرَق . يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣).

واختيارُ البيضاوي: إذا أخذَكم الغرَقُ في الدنيا والحَرَقُ في الآخرة. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٤).

(٢) (من) في قوله: ﴿مَن يَأۡتِيهِ﴾ فيها وجهان: أحدُهما: أن يكونَ بمعنى (الذي)، والثاني: أن يكونَ استفهامًا بمعنى (أي)، كأنَّه قيل: فسوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ... يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣، ٤٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

قال ابن عطية: (العذابُ المُخزي هو الغَرَقُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠).

أي: ومَن يَنزِلُ به في الآخرةِ عذابٌ دائِمٌ لا ينقَطِعُ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ في إسنادِ (العِلمِ) إلى ضَميرِ المخاطَبين دونَ الضَّميرِ المشارِكِ- بأن يُقالَ: (فسوف نَعلَمُ)- إيماءٌ إلى أنَّ المخاطَبين هم الأحَقُّ بِعِلْمِ ذلك، وهذا يُفيدُ أدبًا شَريفًا بأنَّ الواثِقَ بأنَّه على الحَقِّ لا يُزَعزِعُ ثِقتَه مُقابَلةُ السُّفهاءِ أعمالَه النَّافعةَ بالسُّخريةِ، وأنَّ عليه وعلى أتباعِه أن يَسْخَروا مِن السَّاخِرين[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ يدلُّ على إثباتِ القضاءِ والقَدَرِ؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ بأنَّهم لا يؤمنونَ بعدَ ذلك[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، الهاءُ في ﴿أَنَّهُ﴾ ضميرُ الشَّأنِ، وهو دالٌّ على أنَّ الجُملةَ بعدَه أمْرُها خطيرٌ؛ لأنَّها تأييسٌ له مِن إيمانِ بقيَّةِ قومِه، وذلك شديدٌ عليه؛ ولذلك عُقِّب بتَسْليتِه بجملةِ ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ فالفاءُ لِتَفريعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٨١).

التَّسليةِ على الخبَرِ المحزِنِ[١].

- قولُه: ﴿مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فيه تأكيدُ الفعلِ بـ﴿ قَدْ ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ المرادَ مَن حصَل مِنهم الإيمانُ يَقينًا دونَ الَّذين تردَّدوا[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

- قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ جملةُ ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ تعليليَّةٌ للنَّهيِ في ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾؛ عَلَّل منعَ مُخاطَبتِه بأنَّه حَكم عليهم بالغرَقِ في قولِه: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، وفيها إخبارٌ بما سيَقعُ، وبيانٌ لِسَببِ الأمرِ بصُنعِ الفُلكِ[٣].

- وقوله: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فيه مجيءُ الخبرِ إنكاريًّا مؤكَّدًا بـ (إنَّ) تأكيدًا للكلامِ، وتنزيلًا للسَّامعِ مَنزلةَ المتردِّد؛ لأنَّه للنَّفسِ اليقْظى مَظِنَّةُ التردُّدِ في حُكمِ الخَبرِ ومؤونةِ الطَّلبِ له؛ فقال أولًا: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾، أي: لا تَدْعُني يا نوحُ في استدفاعِ العذابِ عنهم، ثم قال: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ مَظِنَّةُ أنْ يَتردَّدَ نوحٌ بأنَّه هلْ يُصيبُهم بأسٌ، بل بأنَّهم هل هم مُغرَقون بملاحظةِ ما تقدَّم من قولِه: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾؛ فأوردَ الخبرَ مؤكَّدًا، فقال: إنَّهم محكومٌ عليهم بالإغراقِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٧).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٥٣).

فيه التَّعبيرُ عن صُنعِه الفُلْكَ بصيغةِ المضارِعِ في ﴿وَيَصۡنَعُ﴾؛ وذلك لاستِحْضارِ الحالةِ؛ لِتَخْييلِ السَّامعِ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ بصَدَدِ العمَلِ(١).

- وجَمْعُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِنَّا﴾ يُشيرُ إلى أنَّهم يَسْخَرون مِنه في عمَلِ السَّفينةِ، ومِن الَّذين آمَنوا به؛ إذ كانوا حوْلَه واثِقين بأنَّه يَعمَلُ عَملًا عَظيمًا، وكذلك جمعُه في قولِه: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾(٢).

- قولُه: ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ فيه تشبيهٌ، ووجهُه أنَّه تشبيهٌ في السَّببِ الباعثِ على السُّخريةِ، وإن كان بينَ السَّببَينِ بَوْنٌ، ويجوزُ أن تكونَ كافُ التَّشبيهِ مُفيدةً معنى التَّعليلِ كالَّتي في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٨]؛ فيُفيدُ التَّفاوُتَ بينَ السُّخريَتينِ؛ لأنَّ السُّخريَةَ المعلَّلَةَ أحَقُّ مِن الأُخرَى؛ فالكُفَّارُ سَخِروا مِن نوحٍ عليه السَّلامُ لِعَملٍ يَجهَلون غايتَه، ونوحٌ عليه السَّلامُ وأتباعُه سَخِروا مِن الكفَّارِ؛ لعِلْمِهم بأنَّهم جاهِلون في غُرورٍ(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ تفريعٌ على جملةِ ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، أي: سيَظهَرُ مَن هو الأحَقُّ بأن يُسخَرَ منه(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٩).

الآيات (٤٠-٤٤)

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: هو الكانونُ (الموْقِدُ) الذي يُخبَزُ فيه(١).

﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾: أي: مَسيرُها، وأصلُ (جري): يدلُّ على انسياحِ شَيءٍ(٢).

﴿وَمُرۡسَىٰهَآ﴾: أي: رُسُوُّها، وانتهاءُ سَيرِها، وأصلُ (رسو): يدلُّ على ثباتٍ(٣).

﴿مَعۡزِلٖ﴾: أي: مكانٍ مُنقَطِعٍ، وأصلُ (عزل): يدلُّ على تَنحيةٍ وإمالةٍ(٤).

﴿سَـَٔاوِيٓ﴾: أي: أَرجِعُ وألجأُ، وأصلُ (أوى): يدلُّ على تَجمُّعٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/ ٩٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٠/ ٢٩٤) (٣٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير

﴿أَقْلِعِي﴾: أي: أمسِكي عن المَطَر، وأصلُ (قلع): يدلُّ على انتزاعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[(١)].

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾: أي: غارَ في الأرضِ ونضَبَ، وأصلُ (غيض): يدلُّ على نُقصانٍ في شَيءٍ وقِلَّةٍ[(٢)].

﴿ٱلْجُودِيِّ﴾: هو اسمُ جَبَلٍ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ في هذا الاستثناءِ وَجهانِ؛ أحدهما: أنَّه مُنقَطِعٌ، و﴿مَن رَّحِمَ﴾ بمعنى (المرحوم)، أي: لكِنْ مَن رَحِمَه اللهُ مَعصومٌ. وعليه فـ﴿مَن﴾ في مَحلِّ نصبٍ على الاستِثناءِ المُنقَطِع. الثاني: أنَّه استِثناءٌ متَّصِلٌ، و﴿مَن رَّحِمَ﴾ بمعنى (الرَّاحِم)، وهو اللهُ تعالى، أي: لا عاصِمَ إلَّا الرَّاحِمُ؛ فـ﴿مَن﴾ في مَوضِع رفعٍ على البدَلِ من محلِّ ﴿عَاصِمَ﴾. وقيل: إنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى (معصوم)، أي: لا معصومَ إلَّا المرحومُ. والاستثناءُ متَّصِلٌ أيضًا. وخبرُ ﴿لَا﴾ محذوفٌ تقديرُه (مانِعٌ)، وكلٌّ مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ و﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بالخبرِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: لا عاصِمَ مانِعٌ اليومَ مِن أمرِ اللهِ[(٤)].

القرطبي)) (٩/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩، ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: حتى إذا جاء أمرُنا بإهلاكِ قومِ نوحٍ، كما وَعدْنا نوحًا بذلك، ونبَعَ الماءُ بقُوَّةٍ مِن التَّنُّورِ- وهو المكانُ الذي يُخبَزُ فيه- علامةً على مجيءِ العَذابِ؛ قُلنا لنوحٍ: احمِلْ في السَّفينةِ مِن كُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ المَخلوقاتِ ذكرًا وأُنثَى، واحمِلْ فيها أهلَ بَيتِك إلَّا مَن سبَق عليهم القَولُ بالعذابِ، واحمِلْ فيها مَن آمن معك مِن قَومِك، وما آمن معه إلَّا قليلٌ.

وقال نوحٌ لِمن آمن معه: اركبُوا في السَّفينةِ، باسمِ اللهِ يكونُ جَريُها على وجهِ الماءِ، وباسمِ اللهِ يكونُ مُنتهَى سَيرِها ورُسُوُّها، إنَّ ربِّي لَغفورٌ رحيمٌ.

ثمَّ وصَف الله تعالى جريانَ السفينةِ، فقال: وهي تجري بهم في موجٍ يعلو ويرتَفِعُ حتى يصيرَ كالجبالِ، ونادى نوحٌ ابنَه- وكان في ناحيةٍ بعيدةٍ عن السفينةِ- فقال له: يا بُنَيَّ اركبْ معنا في السَّفينةِ، ولا تكُنْ مع الكافرينَ باللهِ فتَغرقَ.

فقال له ابنُه: سألجأُ إلى جبلٍ أتحصَّنُ به من الماءِ، فيَمنَعُني من الغَرَقِ، فأجابه نوحٌ: لا مانعَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ وقَضائِه الذي قد نزل بالخَلقِ من الغَرَقِ والهلاكِ إلَّا الرَّاحِمُ، وهو اللهُ تعالى، وحال الموجُ المُرتَفِعُ بين نوحٍ وابنِه، فكان من المُغرَقينَ الهالكينَ، وقال اللهُ للأرضِ- بعد هلاكِ قَومِ نُوحٍ: يا أرضُ اشرَبي ماءَك، ويا سَماءُ أمسِكي عن المَطَر، وغار الماءُ ونَضَب، وقُضِيَ أمرُ اللهِ بهَلاكِ قَومِ نُوحٍ، ونجاةِ المؤمنينَ، ورَسَت السَّفينةُ على جَبَلِ الجُوديِّ، وقيل: هلاكًا وبُعدًا للقَومِ الظَّالمينَ.

(٢/ ٧٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٥٨-١٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٣٢-٣٣٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

أي: حتى إذا جاء أمرُ الله بعذابِ قَومِ نوحٍ وهلاكِهم بالطوفانِ، ونبَعَ الماءُ بشِدَّةٍ مِن الموضعِ الذي يُخبزُ فيه؛ علامةً على مجيءِ العذابِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١، ٤٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٧).

والمعنى المذكورُ للتنورِ هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والرازي. يُنظر: المصادر السابقة، وقد نسَبه غيرُ واحدٍ إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠).

قال الطبري: (أولَى هذه الأقوالِ عندَنا بتأويلِ قولِه: ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ قولُ من قال: هو التَّنُّورُ الَّذي يُخْبَزُ فيه؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ من كلامِ العربِ، وكلامُ اللَّهِ لا يُوَجَّه إلَّا إلى الأغلبِ الأشهرِ مِنْ معانيه عندَ العربِ إلَّا أنْ تقومَ حُجَّةٌ على شيءٍ منه بخلافِ ذلك فيسَلَّمُ لها. وذلك أنَّه جلَّ ثناؤُه إنَّما خاطَبَهم بما خاطَبَهم به لإفهامِهم معنَى ما خاطَبَهم به). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٦).

وممن قال به من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والحسنُ، ومجاهدٌ، وقتادةُ- في رواية معمرٍ عنه- ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٨٢).

وقيل: التنورُ: وجهُ الأرضِ. وممن قال به من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وعليٌّ، وعكرمةُ، والزهريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٣).

قال ابنُ كثير: (وأما قولُه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباسٍ: التنورُ: وجهُ الأرضِ، أي: صارت الأرضُ عيونًا تفورُ، حتى فار الماءُ مِن التنانيرِ التي هي مكانُ النارِ، صارت تفورُ ماءً، وهذا قولُ جمهورِ السلفِ وعلماءِ الخلفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

وقيل في المرادِ بالتنورِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧١).

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: قُلنا لنوحٍ عليه الصلاةُ والسَّلامُ حين جاء موعِدُ هلاكِ قَومِه: احمِلْ في السَّفينةِ مِن كُلِّ صنفٍ من أصنافِ المخلوقاتِ ذكَرًا وأنثى(١).

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

أي: واحمِلْ أيضًا في السفينةِ أهلَ بَيتِك إلَّا من قدَّر اللهُ هلاكَه لكُفرِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

أي: واحملْ في السفينةِ أيضًا مَن آمنَ بالله واتَّبَعَك(٣).

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وما آمنَ مع نوحٍ عليه السلامُ إلَّا نفرٌ قليلٌ مِن قَومِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

قال القرطبي: (﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني ذكرًا وأنثى؛ لبقاءِ أصلِ النَّسلِ بعد الطوفانِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

قال ابن جرير: (الصوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يقالَ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يصِفُهم بأنَّهم كانوا قليلًا، ولم يحدَّدْ عددُهم بمقدارٍ ولا خبرٍ عن رسولِ الله صلَّى الله

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾.

أي: وقال نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِمَن معه: اركَبوا في السفينةِ باسمِ الله يكونُ مسِيرُها السَّريعُ على وجهِ الماءِ، وباسمِ اللهِ يكونُ مُنتَهى سيرِها ورسوُّها على الشَّاطئِ، فهي تجري وتقِفُ بتسخيرِ اللهِ وأمْرِه(١).

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ ربِّي لَساتِرٌ ذنوبَ من تاب إليه من أصحابِ السَّفينةِ وغَيرِهم، مُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم حيث نجَّاهم من عذابِه، ومِن القومِ الظَّالمينَ(٢).

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٖ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٖ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٤٢﴾.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٖ كَٱلْجِبَالِ﴾.

أي: والسَّفينةُ تجري بنوحٍ ومَن رَكِبَ معه بإذنِ اللهِ وحِفظِه في أمواجٍ مُرتَفعةٍ كالجبالِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

عليه وسلَّم صحيح، فلا ينبغي أن يُتجاوَزَ في ذلك حَدُّ الله؛ إذ لم يكُن لمبلَغ عدَدِ ذلك حدٌّ من كتابِ اللهِ أو أثرٌ عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٣، ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

وقال سُبحانه: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٣ - ١٥].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ونادى نوحٌ ابنَه الكافِرَ[1] وكان في ناحيةٍ بعيدةٍ عن السَّفينةِ قائلًا له: يا بُنيَّ اركَبْ معنا السفينةَ، ولا تكنْ مع الكافرينَ فتغرَقَ مِثلَهم[2].

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾.

أي: قال ابنُ نوحٍ عليه السلامُ: سألجأُ إلى جبلٍ عالٍ أتحصَّنُ به، يمنَعُني من الماءِ، فلا أغرَقُ[3].

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

أي: قال نوحٌ لابنِه: لا مانِعَ اليومَ مِن عذابِ اللهِ إلَّا الرَّاحِمُ، وهو اللهُ الذي يرحَمُ من يشاءُ فيُنَجِّيه من الغَرَقِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

أي: وحال بين نوحٍ وابنِه موجُ الماءِ، فكان ممَّن أهلَكَهم الله بالغَرَقِ من قومِ نوحٍ الكافرينَ(١).

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكرَ الله تعالى وقوعَ الغَرَقِ الموعودِ به على وجهِ الإيجازِ؛ انتقل الكلامُ إلى انتهاءِ الطُّوفانِ(٢).

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾.

أي: وأمَرَ الله الأرضَ بعد غَرَقِ قَومِ نُوحٍ: أنْ يا أرضُ تشرَّبي الماءَ الذي على وَجهِك، ويا سَماءُ أمسِكي عن الإمطارِ(٣).

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

أي: نقصَ الماءُ الذي على الأرضِ حتى نضبَ، وفُرِغ من هلاكِ قَومِ نُوحٍ

قال البيضاوي: (﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ إلَّا الرَّاحِمُ، وهو الله تعالى... وقيل: الاستثناء منقطِعٌ أي: لكِنْ مَن رَحِمَه الله يعصِمُه). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

الكافرينَ، وإنجاءِ المؤمنينَ[(١)].

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾.

أي: ورَسَت السفينةُ، واستقرَّت بمن فيها على جبلِ الجُوديِّ[(٢)].

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: وقيل[(٣)]: بُعدًا وسُحقًا مِن رحمةِ اللهِ لِلقوم الكافرينَ[(٤)].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ لا ينبغي أن يَشرعَ في أمرٍ من الأمورِ إلَّا ويكونُ في وقتِ الشُّروعِ فيه ذاكِرًا لاسمِ الله تعالى بالأذكارِ المشروعة؛ حتى يكون- ببَرَكةِ ذلك الذِّكرِ- سببًا لتمام ذلك المقصودِ[(٥)].

٢- الواجِبُ ربطُ الهِمَّة، وتعليقُ القلبِ بفَضلِ الله تعالى، والبراءةُ عن الحَولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

قال البغوي: (هو جبلٌ بأرضِ الجزيرة بقُرب المَوصِل). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥١).

وكذا قال عددٌ من المفسرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) قال أبو حيَّان: (الظاهر أنَّ قَولَه: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ مِن قول الله تعالى كالأفعالِ السابقة، وبني الجميعُ للمفعولِ للعلم بالفاعل، وقيل: من قولِ نوحٍ والمؤمنين، قيل: ويحتملُ أن يكون من قولِ الملائكة). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٩).

والقوَّةِ، وقطعُ النَّظَرِ عن الأسبابِ، يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[1].

٣- قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقلْ: (معَ المغرقينَ) إشارةً إلى أنَّ مَن له عقلٌ وهمَّةٌ ينبغي أن يكونَ تحفُّظُه على صونِ دينِه آكدَ مِن تحفظِه على صونِ نفسِه؛ لأنَّ حفظَ الأديانِ آكدُ مِن حفظِ النُّفوسِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ احتُجَّ به في إثباتِ القَضاءِ اللازمِ والقدَرِ الواجبِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ كلَّ من سبق عليه القَولُ، فإنَّه لا يتغيَّرُ عن حالِه[3].

٢- قولُه: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ اعتبارُ المعيَّةِ في إيمانِهم للإيماءِ إلى المعيَّةِ في مَقرِّ الأمانِ والنَّجاةِ[4].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على ذِكرِ البسملةِ عند ابتداءِ كُلِّ فِعلٍ[5].

٤- كلُّ مَقامٍ يُقصَدُ فيه التيمُّنُ والانتسابُ إلى الربِّ الواحدِ يُعدَّى فيه الفعلُ إلى لفظِ اسمِ الله، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وكذلك المقامُ الذي يُقصَدُ فيه ذِكرُ اسم الله تعالى، كقولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: قل: سُبحانَ الله، وكلُّ مَقامٍ يُقصَدُ فيه طلبُ التَّيسيرِ والعَونِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٣٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧).

مِن الله تعالى يعَدَّى الفعلُ المسؤولُ إلى عَلَمِ الذَّاتِ باعتبارِ ما له من صفاتِ الخَلقِ والتَّكوينِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ [الإنسان: ٢٦] وقولِه في الحديث: ((اللهمَّ بك أصبحنا وبك أمسينا))[(١)] أي: بقُدرتِك ومَشيئتِك، وكذلك المقامُ الذي يُقصَدُ فيه توجُّهُ الفعلِ إلى اللهِ تعالى، كقَولِه تعالى: ﴿فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾ أي: نَزِّهْ ذاتَه وحقيقتَه عن النقائصِ[(٢)].

٥- حيلولةُ الموجِ بينَ نوحٍ عليه السلامُ وابنِه في آخِرِ المُحاوَرةِ يُشيرُ إلى سُرعةِ فَيَضانِ الماءِ في حينِ المُحاوَلةِ، قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[(٣)].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ يُقالُ: أكرمَ الله ثلاثةَ جبالٍ بثلاثةِ نَفَرٍ: الجُوديَّ بنوحٍ، وطورَ سيناءَ بموسى، وحِراءَ بمحمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعينَ[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فيه إيجازٌ بديعٌ؛ فـ (حتَّى) غايةٌ

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٨) واللفظ له، والترمذي (٣٣٩١)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٣٩٩)، وابن ماجه (٣٨٦٨) باختلاف يسير، وأحمد (٨٦٤٩) أوله.
حسَّنه الترمذيُّ، وأخرجه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (٩٦٤)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (١٠٧)، وصحَّحه ابن دقيق في ((الاقتراح)) (١١٨)، وابن القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٢).

لـ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: ٣٨]، أي: يَصنعُه إلى زمَنِ مَجيءِ أمْرِنا، فـ(إذا) ظرفٌ مضمَّنٌ معنى الشَّرطِ؛ ولذلك جيءَ له بجوابٍ، وهو جملةُ ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾، وإضافةُ الأمرِ إلى (نَا العَظَمةِ) في ﴿أَمۡرُنَا﴾؛ لِتَهويلِه بأنَّه فوقَ ما يَعرِفون[1].

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث جيءَ بـ(على)؛ لكونِ السَّابِقِ ضارًّا لهم، بينَما جيءَ باللَّامِ فيما هو نافِعٌ لهم مِن قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾[2] [الأنبياء: ١٠١]. ويُمكن أنْ يكونَ فيها معنى العُلوِّ؛ وذلك أنَّ المقضيَّ نازلٌ بِهم لا مَناصَ لهم منه.

- وجملةُ ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ اعتراضٌ لِتَكميلِ الفائدةِ مِن القصَّةِ في قلَّةِ الصَّالِحين[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ (في) للتَّأكيدِ كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] وفائدةُ (في) أنَّهم أُمِروا أن يكونوا في جَوفِها لا على ظَهرِها[4]، وقيل: تعدِيَةُ فِعْلِ اركَبوا بـ(في)؛ جَرْيًا على الفَصيحِ؛ فإنَّه يُقالُ: رَكِب الدَّابَّةَ إذا عَلاها، وأمَّا رُكوبُ الفُلْكِ فيُعَدَّى بـ(في) لأنَّه جُلوسٌ واستقرارٌ؛ فلا يُقالُ: رَكِب السَّفينةَ، فأرادوا التَّفرقةَ بينَ الرُّكوبِ الحقيقيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٩- ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦).

وأُمِروا بذلك -واللهُ أعلمُ- حتى لا تفجعَهم رؤيةُ الموجِ وشِدَّةُ اندفاعِه، حيث كان موجًا هائلًا كالجِبالِ.

والرُّكوبِ المشابِهِ له، وهي تفرِقةٌ حسَنةٌ(١).

- وجملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعليليَّةٌ للأمرِ بالرُّكوبِ المقيَّدِ بالملابَسةِ لذَكْرِ اسْمِ اللهِ تعالى، ففي التَّعليلِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ رمزٌ إلى أنَّ اللهَ وعَدَه بنَجاتِهم؛ وذلك مِن غُفرانِه ورَحمتِه، وأكَّد بـ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ تَحقيقًا لأتباعِه بأنَّ اللهَ رَحِمَهم بالإنجاءِ مِن الغرَقِ(٢).

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، وفي سورةِ المؤمنونَ قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فقال في سورةِ (هودٍ): ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ﴾، وفي سورة (المؤمنونَ): ﴿فَٱسْلُكْ﴾؛ ووجهُ ذلك الاختلافِ:

أنَّ آيةَ سورةِ (هُودٍ) حَكَتْ ما خاطَبه اللَّهُ به عندَ حدوثِ الطُّوفانِ وذلك وقتٌ ضَيِّقٌ، فأُمِرَ بأنْ يَحمِلَ في السَّفينةِ مَنْ أراد اللَّهُ إبقاءَهم، فأُسنِدَ الحملُ إلى نوحٍ تمثيلًا للإسراعِ بإركابِ ما عُيِّن له في السَّفِينَةِ حتَّى كأنَّ حالَه في إدخالِه إيَّاهم حالُ مَنْ يحملُ شيئًا لِيضعَه في مَوضعٍ، وآيَةُ سورةِ (المؤمنون) حَكَتْ ما خاطَبه اللَّهُ به مِن قبلِ حُدوثِ الطُّوفانِ إنباءً بما يفعلُه عندَ حُدوثِ الطُّوفانِ، فأمَره بأنَّه حينئذٍ يُدْخِلُ في السَّفِينَةِ مَنْ عَيَّنَ اللَّهُ إدخالَهم، معَ ما في ذلك مِنَ التَّفَنُّنِ في حكايةِ القِصَّةِ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٦)، ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٦-٢٥٧).

مَعۡـزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

– قولُه: ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ، دعا إلى اعتِراضِها هنا ذِكرُ (مَجْرَاهَا)؛ إتمامًا للفائدةِ، ووَصْفًا لعِظَمِ اليومِ، وعجيبِ صُنعِ اللهِ تعالى في تَيْسيرِ نَجاتِهم، وقدَّم المسنَدَ إليه (هِيَ) على الخبَرِ الفعليِّ (تَجْري)؛ لِتَقوِّي الحكْمِ وتَحقيقِه[1].

– قولُه: ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾ فيه عُدولٌ عن الفعلِ الماضي إلى المضارِعِ في ﴿ تَجۡرِي ﴾؛ لاستِحْضارِ الحالةِ[2]، وقولُه: ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ ﴾ اتَّصل بمحذوفٍ دلَّ عليه الأمرُ بالرُّكوبِ ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، أي: فرِكبوا فيها مُسمِّين، وهي تَجرِي مُلتبسةً لهم، كأنَّه قيل: فرَكِبوا فيها يَقولون: بِسْمِ اللهِ، ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ ﴾، أي: تَجْري وهم فيها في موجٍ كالجبالِ[3].

– وقولُه: ﴿ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾ فيه تشبيهُ موجِ الطُّوفانِ بالجبالِ؛ شَبَّه كلَّ موجةٍ منه بالجبَلِ في تَراكُمِها وارتِفاعِها وضَخامتِها[4].

– وقولُه عليه السَّلامُ: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾ عبَّر بـ (بُنَيَّ) وهو تصغيرُ (ابنٍ) مُضافًا إلى ياءِ المتكلِّمِ، وتصغيرُه هنا تصغيرُ شفَقةٍ؛ بحيث يُجعَلُ كالصَّغيرِ في كونِه مَحَلَّ الرَّحمةِ والشَّفقةِ[5].

– وجُمْلَةُ ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾ فيها كِنايةٌ عن دَعوَتِه ابْنَه إلى الإيمانِ بطَريقةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٦).

العَرْضِ والتَّحذير[١].

- وجملةُ ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾؛ لإعلامِه بأنَّ إعراضَه عن الرُّكوبِ يَجعَلُه في صفِّ الكفَّارِ؛ إذ لا يَكونُ إعراضُه عن الرُّكوبِ إلَّا أثرًا لِتَكذيبِه بوُقوعِ الطُّوفانِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾

- وجملةُ ﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يحتملُ أن تكونَ صِفةً لـ (جَبَلٍ)، أي: جبَلٍ عالٍ، ويحتملُ أن تكونَ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه استَشعَر أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ يَسأَلُ: لماذا يَأْوي إلى جبَلٍ؟ حيث ظَنَّ ابنُ نوحٍ أنَّ أرفَعَ الجِبالِ لا يَبلُغُه الماءُ، وأنَّ أباه ما أراد إلَّا بُلوغَ الماءِ إلى غالِبِ المرتفَعاتِ دونَ الجبالِ الشَّامخاتِ؛ ولذلك أجابه نوحٌ عليه السَّلامُ بأنَّه لا عاصِمَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ- وهو الطُّوفانُ- إلَّا مَن رَحِم[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، أي: (لا عاصِمَ... إلَّا اللهُ)، وإنَّما قيلَ: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ تفخيمًا لشأنِه الجَليلِ سبحانه وتعالى بالإبهامِ ثمَّ التَّفسيرِ، وبالإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، وإشعارًا بعِلِّيَّةِ رَحْمتِه في ذلك بمُوجِبِ سَبْقِها على غضَبِه[٤].

- قولُه: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ فيه إيجازٌ بديعٌ، حيث أفاد أنَّه غَرِق، وغَرِق

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١).

معَه مَن توَعَّده بالغرَقِ[١]، وفي إيرادِ الفِعْلِ (كَان) دونَ (صارَ) مبالَغةٌ في كَونِه منهم[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- هذه الآيةُ بلَغَت مِن أسرارِ الإعجازِ غايتَها، وحَوَتْ مِن بَدائعِ الفرائدِ نِهايتَها، واشتَمَلَت على وُجوهٍ كثيرةٍ مِن جوانبِ البلاغةِ، والفصاحةِ المعنويَّةِ، والفَصاحةِ اللَّفظيَّةِ، وقد اهتمَّ عُلماءُ البيانِ لإيضاحِ نُخَبٍ مِن لَطائِفِها؛ فهي نَظْمٌ للمَعاني لطيفٌ، وتأديةٌ لها مُلَخَّصةٌ مُبينةٌ، لا تعقيدَ يُعْثِرُ الفِكرَ في طلَبِ المرادِ، ولا الْتِواءَ يُشِيكُ الطَّريقَ إلى المُرْتادِ، بل إذا جرَّبتَ نفْسَك عندَ استِماعِها، وجَدْتَ ألْفاظَها تُسابِقُ مَعانيَها، ومَعانِيَها تُسابِقُ ألْفاظَها؛ فما مِن لفظةٍ في تركيبِ الآيةِ ونَظْمِها تَسبِقُ إلى أُذنِك، إلَّا ومَعْناها أسبَقُ إلى قَلبِك.

وأمَّا النَّظرُ فيها مِن جانبِ الفصاحةِ اللَّفظيَّةِ: فألفاظُها على ما نَرى عرَبيَّةٌ، مُستعمَلةٌ جاريةٌ على قَوانينِ اللُّغةِ، سَليمةٌ مِن التَّنافُرِ، بعيدةٌ عن البَشاعةِ، عَذْبةٌ سَلِسةٌ، كلٌّ مِنها كالماءِ في السَّلاسةِ، وكالعسَلِ في الحلاوةِ، وكالنَّسيمِ في الرِّقَّةِ.

ومن حيث البلاغةُ والمناسبةُ، فقد اخْتِير (يا) دونَ سائرِ أخَواتِها؛ لِكَونِها أكثَرَ في الاستِعْمالِ وأنَّها دالَّةٌ على بُعْدِ المنادَى الذي يَسْتَدعيه مَقامُ إظهارِ العظَمةِ، وهو تَبْعيدُ المنادى المؤْذِنُ بالتَّهاوُنِ به، واخْتِيرَ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ على (ابتَلِعي)؛ لكونِه أخْصَرَ، ولِمَجيءِ حظِّ التَّجانُسِ بينَه وبينَ ﴿أَقۡلِعِي﴾ أوفَرَ، وقيل: ﴿مَآءَكِ﴾ بالإفرادِ دونَ الجمْعِ لِمَا كان في الجمْعِ مِن صورةِ الاستِكْثارِ المتأتِّي عنها مَقامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١).

إظهارِ الكبرياءِ والجبَروتِ، وإنَّما لم يَقُلِ: (ابْلَعي) فقَط بدونِ المفعولِ؛ حتَّى لا يَستَلزِمَ تَرْكُه ما ليسَ بمُرادٍ مِن تعميمِ الابتلاعِ للجِبالِ والتِّلالِ والبحارِ وساكناتِ الماءِ بأَسْرِهنَّ؛ نظَرًا إلى مَقامِ وُرودِ الأمرِ الَّذي هو مَقامُ عظَمةٍ وكِبْرياءٍ، ثمَّ لَمَّا تبَيَّن المرادُ اختَصَر الكلامَ فقال: ﴿أَقۡلِعِي﴾ فقط؛ احتِرازًا عن الحَشْوِ المستغنَى عنه، وهو الوجهُ في أنَّه لم يَقُلْ: (قيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ فبَلَعَت، ويا سماءُ أقلِعي فأقلَعَت)، وقيل: ﴿ٱلۡمَآءُ﴾، دون أن يُقالَ: (ماءُ طُوفانِ السَّماءِ)، وكذا قيل: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ دونَ أن يُقالَ: (أمرُ نوحٍ)؛ لقصْدِ الاختِصارِ، والاستِغْناءِ بحَرْفِ التَّعريفِ عن ذلك. ولم يَقُلْ: (سُوِّيَتْ على الجوديِّ) على نحوِ: (قيلَ) و(غِيضَ) و(قُضِيَ) في البناءِ للمفعولِ؛ اعتِبارًا لبناءِ الفِعلِ للفاعلِ معَ السَّفينةِ في قولِه: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ﴾، مع قصْدِ الاختصارِ في اللَّفظِ، ثمَّ قيل: ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دونَ أن يُقالَ: لِيَبْعُدِ القومُ؛ طلَبًا للتَّأكيدِ معَ الاختصارِ، وهو نزولُ ﴿بُعۡدٗا﴾ منزِلةَ (لِيَبعُدوا بُعدًا)، مع فائدةٍ أُخْرى، وهي استِعمالُ اللَّامِ مع ﴿بُعۡدٗا﴾ الدَّالِّ على معنى أنَّ البُعدَ يَحِقُّ لهم، ثمَّ أطلَقَ الظُّلمَ؛ لِيَتناوَلَ كلَّ نوعٍ حتَّى يَدخُلَ فيه ظُلمُهم أنفُسَهم؛ لزِيادَةِ التَّنبيهِ على فَظاعةِ سوءِ اختِيارِهم في تكذيبِ الرُّسلِ.

ومن حيث التَّرتيبُ؛ فقد قدَّم أمْرَ الأرضِ على أمرِ السَّماءِ، وابتُدِئَ به لابتِداءِ الطُّوفانِ منها، وبنُزولِها لذلك في القصَّةِ مَنزِلةَ الأصلِ، والأصلُ بالتَّقديمِ أولَى، ثمَّ أتبَعَها قولَه: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾؛ لاتِّصالِه بقِصَّةِ الماءِ، وأَخْذِه بحُجْزَتِها. ألَا ترى أصْلَ الكلامِ: (قيلَ: يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ، فبَلَعَت ماءَها، ويا سماءُ أقلِعي عن إرسالِ الماءِ، فأقلَعَت عن إرسالِه، وغِيضَ الماءُ النَّازلُ مِن السَّماءِ، فغاضَ)، ثمَّ أتبَعَه ما هو مقصودٌ مِن القصَّةِ، وهو قولُه: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، أي: أُنجِزَ الموعودُ مِن إهلاكِ الكفَرةِ، وإنجاءِ نوحٍ ومَن معَه في السَّفينةِ، ثمَّ أتبَعَه حديثَ السَّفينةِ،

وهو قولُه: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾، ثمَّ خُتِمَت القصَّةُ بما خُتِمَت[1].

وجاء بِناءُ الأفعالِ ﴿وَقِيلَ﴾ ﴿وَغِيضَ﴾ ﴿وَقُضِيَ﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ للمَفعولِ، وهو أبلَغُ في التَّعظيمِ والجبَروتِ، وأخْصَرُ، وأيضًا في مَجيءِ أخبارِه تعالى على الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ: دَلالةٌ على الجلالِ والكبرياءِ، وأنَّ تلك الأمورَ العِظامَ لا تكونُ إلَّا بفِعْلِ فاعلٍ قادرٍ، وتكوينِ مُكوِّنٍ قاهرٍ، وأنَّ فاعِلَها فاعلٌ واحدٌ لا يُشارَكُ في أفعالِه سبحانه؛ فلا يَذهَبُ الوَهْمُ إلى أن يَقولَ غيرُه: يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ، ويا سَماءُ أقلِعي، ولا أن يَقضِيَ ذلك الأمْرَ الهائلَ غيرُه، ولا أن تَستوِيَ السَّفينةُ على مَتْنِ الجوديِّ، وتستقِرَّ عليه إلَّا بتَسْويتِه وإقرارِه[2].

- وفي قولِه: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ تقديمُ الأمرِ بالبلعِ؛ لأنَّه السَّببُ الأعظمُ لِغَيضِ الماءِ[3].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه كِنايةٌ عن تَحْقيرِهم وكَراهيَتِهم؛ فالبُعْدُ كنايةٌ عَن التَّحقيرِ بِلازِمِ كراهيَةِ الشَّيءِ؛ فلذلك يُقالُ: بَعُدَ أو نحوُه لِمَن فُقِد، إذا كان مَكْروهًا كما هنا[4].

- والتَّعرُّضُ لوَصفِ الظُّلمِ ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للإشعارِ بعِلِّيَّته للهلاكِ، ولِتَذكيرِه ما سبَقَ مِن قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٧- ٣٩٨)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٩٧- ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٠- ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١).

الآيات (٤٥-٤٩)

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ
مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ
يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ
أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

المعنَى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ ناداه، فقال: ربِّ إنَّك وعَدْتني أن تُنجِّيَني وأهلي من الغَرَقِ والهلاكِ، وإنَّ ابني هذا من أهلي، وإنَّ وَعدَك الحَقُّ الذي لا خُلْفَ فيه، وأنت أحكَمُ الحاكمينَ وأعدَلُهم.

قال الله: يا نوحُ إنَّ ابنَك الذي هلك ليس مِن أهلِك الذين وَعَدتُك أن أُنجيَهم؛ لأنَّه صاحبُ عملٍ غيرِ صالحٍ وهو الكفرُ، وإنِّي أنهاك أن تسألَني أمرًا لا عِلمَ لك به، إنِّي أعِظُك أن تكونَ مِن الجاهلينَ في مسألتِك إيَّاي عن ذلك.

قال نوحٌ: يا رَبِّ إنِّي أعتَصِمُ وأستجيرُ بك أن أسألَك ما ليس لي به عِلمٌ، وإنْ لم تغفِرْ لي ذنبي، وترحَمْني برَحمتِك، أكنْ مِن الهالكينَ. قال الله: يا نوحُ اهبطْ مِن السَّفينةِ إلى الأرضِ بأمنٍ وسَلامةٍ منَّا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ مِن ذُرِّيةِ المؤمنينَ الذين معك في السَّفينةِ، ومنهم أمَمٌ وجَماعاتٌ مِن أهلِ الشَّقاءِ سنُمَتِّعُهم في الحياةِ الدُّنيا إلى أن يبلُغوا آجالَهم، ثمَّ ينالُهم منَّا العذابُ المُوجِعُ يومَ القيامةِ.

تلك القِصَّةُ التي قصَصْناها عليك -يا مُحمَّدُ- عن نوحٍ وقَومِه، هي من أخبارِ

الغَيبِ السَّابقةِ، نوحيها إليك، ما كنتَ تَعلَمُها أنت ولا قَومُك مِن قبلِ هذا البَيانِ، فاصبِرْ على تكذيبِ قَومِك وإيذائِهم لك، كما صبَرَ الأنبياءُ مِن قَبلُ؛ إنَّ العاقِبةَ الطَّيِّبةَ في الدُّنيا والآخرةِ للمُتَّقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: ونادى نوحٌ ربَّه فقال: يا ربِّ، إنَّ ابني من أهلي الذين وعدْتَني أن تنجِّيَهم من الغَرَقِ، وإنَّ وَعْدَك الصِّدقُ الذي لا يُخلَفُ[1].

﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).
قال ابن تيمية: (وكان ابنُه قد سبق عليه القولُ، ولم يكن نوحٌ يعلمُ ذلك؛ فلذلك قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ ظانًّا أنَّه دخل في جملةِ مَن وُعِد بنجاتِهم). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٣٤٨-٣٤٩).
وقال الشوكاني: (فإن قيل: كيف طلب نوحٌ عليه السلامُ إنجازَ ما وعده اللهُ بقولِه: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ [هود: ٤٠] وهو المستثنى منه، وترَكَ ما يفيده الاستثناءُ، وهو ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾؟! فيجاب: بأنه لم يعلم إذ ذاك أنَّه ممَّن سبق عليه القول، فإنه كان يظنُّه من المؤمنين). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٠). وذهب ابنُ عطيةَ والشنقيطي أيضًا إلى أنَّ نوحًا عليه السلامُ ظنَّ أنَّ ابنَه مؤمنٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٣٣).
قال ابن جزي: (﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ هذا النداءُ قبلَ الغرقِ، فيكون العطفُ مِن غيرِ ترتيبٍ، أو يكونَ بعدَه). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧١).
وقال ابنُ عطية في قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾: (هذه جملةٌ معطوفةٌ على التي قبلَها دونَ ترتيبٍ، وذلك أنَّ هذه القصةَ كانت في أوَّلِ ما ركِب نوحٌ في السفينةِ، ويظهرُ مِن كلامِ الطبريِّ أنَّ ذلك كان بعدَ غرقِ الابنِ، وهو محتملٌ، والأوَّلُ أليقُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٦).

أي: وأنت - يا ربِّ - أعدَلُ الحاكمينَ، لا ظُلمَ في حُكمِك، ولا خطأَ[١].

﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾.

﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾.

أي: قال الله: يا نوحُ، إنَّ ابنَك ليس مِن أهلِك المؤمنينَ[٢] الذين أمرتُك بحَملِهم، ووعَدتُك بأن أنجِّيَهم[٣].

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ قراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٢٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٠).
قال محمد رشيد رضا: (حُكمُه تعالى يُطلَقُ على ما يَشرَعُه من الأحكام، وعلى ما ينفِّذُه في عباده من جزاءٍ على الأعمال). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٧٠).

(٢) قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد نَصَّ غيرُ واحدٍ مِن الأئمَّةِ على تَخطِئةِ مَن ذهَب في تفسيرِ هذا إلى أنَّه ليس بابنِه، وإنَّما كان ابنَ زَنْيَةٍ، وقال ابنُ عبَّاسٍ، وغيرُ واحدٍ مِن السَّلف: ما زنَت امرأةُ نَبيٍّ قَطُّ. قال: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [هود: ٤٦] أي: الَّذين وَعدْتُك نَجاتَهُم. وقولُ ابنِ عبَّاسٍ في هذا: هو الحَقُّ الذي لا مَحيدَ عنه، فإنَّ الله سُبحانه أَغْيَرُ مِن أن يُمَكِّنَ امرأةَ نَبيٍّ مِن الفاحشةِ؛ ولهذا غَضِبَ اللهُ على الَّذين رَمَوْا أُمَّ المؤمنين عائشةَ بنتَ الصِّدِّيق زوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنكَر على المؤمنين الَّذين تكلَّموا بهذا وأشاعوه ... قال ابنُ عُيينةَ: وأخبرني عمَّارٌ الدُّهْنِيُّ: أنَّه سأل سعيدَ ابنَ جُبيرٍ عن ذلك، فقال: كان ابنَ نُوحٍ، إنَّ الله لا يَكذِبُ! قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ [هود: ٤٢] قال: وقال بعضُ العُلماءِ: ما فَجَرَتْ امرأةُ نَبيٍّ قَطُّ. وكذا رُوِي عن مُجاهدٍ أيضًا، وعِكرمةَ، والضَّحَّاكِ، ومَيمونِ بنِ مِهرانَ، وثابتِ ابنِ الحَجَّاج، وهو اختيارُ أبي جَعفرِ بنِ جَريرٍ، وهو الصَّوابُ الذي لا شَكَّ فيه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن للشافعي)) جمع البيهقي (١/ ٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٢٥، ٤٣٣)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦).

١- قراءةُ ﴿عَمِلَ غَيْرَ﴾ بجَعلِ (عَمِلَ) فعلًا ماضيًا، والفاعلُ ضميرٌ مُستترٌ عائدٌ على ابنِ نوحٍ، والتقدير: إنه عَمِلَ عملًا غيرَ صالحٍ، مِن الكفرِ والتَّكذيبِ[1].

٢- قراءةُ ﴿عَمَلٌ غَيْرُ﴾ بجَعْلِ (عَمَلٌ) اسمًا، فالتقديرُ: إنَّ ابنَك ذو عملٍ غيرِ صالحٍ، وقيل معناه: إنَّ سؤالَك إيَّاي أن أنجيَ كافرًا ليس مِن أهلِك عملٌ غيرُ صالحٍ، وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾.

أي: إنَّ ابنَك يا نوحُ ليسَ مِن أهلِك؛ لأنَّه صاحبُ عملٍ غيرِ صالحٍ، وهو الكفرُ باللهِ تعالى؛ فلم يستحقَّ لذلك النجاةَ مِن الهلاكِ[3].

---

(١) قرأ بها الكسائي ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٣٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير المنار)) لرضا (١٢/ ٧٠- ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٦).
وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: القرطبي، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة. وأيضًا ذهب إليه السمعاني في ((تفسيره)) (٢/ ٤٣٣) ونسَبه الواحديُّ إلى أبي إسحاقَ الزجاجِ، وأبي بكرِ بنِ الأنباري، وأبي عليٍّ الفارسي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣٧)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٧).
وعلى هذا القولِ الضميرُ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود على ابنِ نوحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٧).
وقيل: المراد: إنَّ سُؤالَك إيَّاي أن أُنجيَ ابنَك الكافِرَ مِن الهلاكِ عَملٌ غيرُ صالحٍ. وممن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير، والواحدي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٦)،

﴿فَلَا تَسْـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾.

أي: إنِّي يا نوحُ قد أخبَرتُك عن سؤالِك سببَ إهلاكي ابنَك، فلا تسألْني بعدَها عن أسبابِ أفعالي التي لا عِلمَ لك بها، ولا تطلُبْ مني شيئًا لا تعلمُ جوازَ مسألتِه، ولا تعلمُ يقينًا أنَّ حصولَه خيرٌ وموافِقٌ للحِكمةِ[(١)].

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

أي: إني أحذِّرُك - يا نوحُ - من السُّؤالِ عمَّا لا تعلمُ؛ لئلَّا تكونَ من الجاهلينَ[(٢)].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾.

((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).
وعلى هذا القولِ تكون الهاءُ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ راجعةً على السؤالِ؛ لأنه قد تقدَّم دليلُ السؤالِ في قولِه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).
قال ابنُ عاشور: (إن كان نوحٌ عليه السلام لم يسبِقْ له وحيٌ من الله بأنَّ الله لا يغفِرُ للمشركين في الآخرةِ، كان نهيُه عن أن يسألَ ما ليس له به علمٌ نهيَ تنزيهٍ لأمثاله؛ لأنَّ درجة النبوَّة تقتضي ألَّا يُقدِمَ على سؤال ربه سؤالًا لا يعلمُ إجابته،... وإن كان قد أوحي إليه بذلك من قبلُ، كما دلَّ عليه قوله: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ وكان سؤالُه المغفرةَ لابنه طلبًا تخصيصَه من العموم، كان نهيُه نهيَ لوم وعتاب؛ حيث لم يتبيَّنْ من ربِّه جوازَ ذلك. وكان قولُه: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ محتمِلًا لظاهره، ومحتمِلًا لأن يكونَ كنايةً عن العلم بضِدِّه، أي: فلا تسألْني ما علمتَ أنه لا يقعُ، ثم إن كان قولُ نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ إلى آخره تعريضًا بالمسؤول، كان النهيُ في قوله: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ نهيًا عن الإلحاح أو العودِ إلى سؤالِه، وإن كان قولُ نوح عليه السلامُ مجرَّدَ تمهيدٍ للسؤال لاختبار حالِ إقبال الله على سؤالِه، كان قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾ نهيًا عن الإفضاء بالسؤالِ الذي مهَّدَ له بكلامه، والمقصودُ من النهي تنزيهُه عن تعريض سؤالِه للردِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾.

أي: قال نوحٌ: يا ربِّ، إني أستجيرُ بك أن أسألَك بعد الآن ما لا عِلمَ لي بصحَّتِه[١].

﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

أي: وإنْ لم تغفِرْ لي - يا ربِّ - ما وقع مني من السؤالِ عمَّا لا أعلمُ، وترحمْني بقبولِ توبتي؛ أكنْ من الخاسرينَ أنفُسَهم وأعمالَهم[٢].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾.

أي: قيل[٣] عند استقرارِ السَّفينةِ على جبلِ الجُوديِّ: يا نوحُ، انزِلْ من السَّفينةِ إلى الأرضِ بسلامةٍ وأمنٍ منَّا لك ولأتباعِك المؤمنينَ[٤].

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾.

أي: وبركاتٍ ثابتةٍ عليك، وعلى أُمَمٍ كثيرةٍ ستأتي من ذريَّةِ المؤمنينَ الذين معك في السَّفينة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧١).

(٣) قال القرطبي: (قالت له الملائكةُ، أو قال الله تعالى له). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٠).

قال السعدي: (﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ من الآدميِّينَ وغيرِهم من الأزواجِ التي حمَلَها معه،

كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٧-٧٩].

ثمَّ أخبر الله تعالى نوحًا عمَّا هو فاعلٌ بأهلِ الشقاءِ مِن ذرِّيته، فقال له[١]:

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وأُمَمٌ كثيرةٌ سنُمَتِّعُهم في الدُّنيا، ثم نُذيقُهم منا في الآخرةِ عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا[٢].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾.

أي: تلك -قصَّة نوحٍ- من أخبار الغيوبِ السَّابقةِ، نوحيها إليك- يا محمَّدُ- لتَعلَمَها[٣].

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾.

أي: ما كنتَ تعلمُ قِصَّةَ نوحٍ، ولا يعلَمُها أيُّ أحدٍ من قومِك من قبلِ هذا القرآنِ[٤].

فبارك اللهُ في الجميعِ، حتى ملؤوا أقطارَ الأرضِ ونواحيَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: فاصبِرْ- يا محمَّدُ- على الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتبليغِ رِسالتِه، وتحمَّلْ تكذيبَ قَومِك المشركينَ وأذاهم، كما صبر نوحٌ على قومِه؛ إنَّ العاقِبةَ المحمودةَ في الدُّنيا والآخرةِ للذينَ يتَّقونَ الله تعالى، فامتثَلوا أوامِرَه، واجتنَبوا نواهِيَه[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يدلُّ على أنَّ الاتِّفاقَ في الدينِ أقوى مِن النَّسَبِ[(٢)]. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: في الدينِ والحرمةِ لا في النسبِ، ولهذا قِيل: أُخوَّةُ الدِّينِ أثبتُ مِن أُخوَّةِ النَّسبِ؛ فإنَّ أُخوةَ النسبِ تنقطعُ بمخالفةِ الدِّينِ، وأُخوةُ الدينِ لا تنقطعُ بمخالفةِ النسبِ[(٣)].

٢- إنَّ الإيمانَ والصَّلاحَ لا علاقةَ له بالوِراثةِ والأنسابِ، وقد يختلِفُ باختلافِ استعدادِ الأفراد، وما يحيطُ بهم من الأسبابِ، وما يكونونَ عليه من الآراءِ والأعمالِ؛ يبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[(٤)].

٣- إنَّ الله تعالى يَجزي النَّاسَ في الدُّنيا والآخرةِ بإيمانهم وأعمالِهم لا بأنسابِهم، ولا يُحابي أحدًا منهم لأجلِ آبائِه وأجدادِه الصالحينَ، وإن كانوا من الأنبياءِ المُرسَلين؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٢).

فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ هذا النهيُ يدلُّ على أنَّه يُشترَطُ في الدُّعاءِ أن يكونَ بما هو جائزٌ في شرعِ الله وسُنَنِه في خَلقِه، فلا يجوزُ سؤالُ ما هو محرَّمٌ، وما هو مخالِفٌ لسُنَنِ الله القطعيَّةِ بما يقتضي تبديلَها، أو تحويلَها، وقلبَ نظامِ الكونِ لأجلِ الدَّاعي[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ في هذه الآيةِ تَسليةٌ للخَلقِ في فسادِ أبنائِهم، وإن كانوا صالحينَ[3].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فيه أنَّ حقيقةَ التَّوبةِ تقتضي أمرينِ: أحدهما في المستقبلِ، وهو العزمُ على التَّركِ، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾، والثاني في الماضي، وهو النَّدمُ على ما مضى، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[4].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لَمَّا ذكر تعالى أحوالَ المؤمنينَ، لم يذكُرِ البتَّةَ أنَّه يُعطيهم الدُّنيا أم لا، ولَمَّا ذكر أحوالَ الكافرينَ ذكَرَ أنَّه يُعطيهم الدنيا، وهذا تنبيهٌ عظيمٌ على خساسةِ الدُّنيا، وخساسةِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٩).

السَّعادات الجُسمانيَّة، والترغيب في المقامات الرُّوحانيَّة[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الصَّبرَ عاقبتُه النَّصرُ والظَّفَرُ، والفرَحُ والسُّرورُ[٢].

٩- سنَّةُ اللهِ في رُسُلِه وأقوامِهم أن تكونَ العاقبةُ بالفوزِ والنَّجاةِ للمُتَّقينَ؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٣].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لما نهى الله تعالى نوحًا عليه السلام عن سؤالِه، حكَى عنه أنَّه قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، والمعنى أنَّه تعالى لما قال له: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ فقال عندَ ذلك: قبلتُ يا ربِّ هذا التكليفَ، ولا أعودُ إليه، إلَّا أنِّي لا أقدرُ على الاحترازِ منه إلا بإعانتِك وهدايتِك، فلهذا بدأ أولًا بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ﴾[٤].

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ نسبَ نوحٌ النَّقصَ والذَّنبَ إلى نفسِه؛ تأدُّبًا مع ربِّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾، أي: ما فرطَ من سؤالي، ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بفَضلِك[٥].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دلالةٌ على

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٦١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٣).

أنَّ مَن لم يتفضَّلِ اللهُ عليه بمغفرةِ ذُنوبِه؛ أوبقَتْه خطاياه في الآخرةِ[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ السؤالَ والطلبَ قد يكون بصيغةِ الشَّرطِ[٢].

٥- إنَّ الطَّالبَ السائلَ تارةً يَسألُ بصيغةِ الطَّلبِ، وتارةً يَسألُ بصيغةِ الخبَرِ؛ إمَّا بوصفِ حالِه، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ، وإمَّا بوصفِ الحالَينِ، وقولُ نوحٍ عليه السلامُ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ليس صيغةَ طلَبٍ، وإنما هو إخبارٌ عن الله أنَّه إنْ لم يَغْفِرْ له ويرحمْه خَسِرَ، ولكنَّ هذا الخبَرَ يتضمَّنُ سؤالَ المغفرةِ، كما في قَوْلِ يونسَ عليه السلامُ: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فإنَّه اعترافٌ بالذَّنبِ، وهو يَتَضَمَّنُ طلبَ المغفرَةِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الابنَ مِن الأهلِ، فمَنْ وصَّى لأهلِه دخَل ابنُه في الوصيَّةِ هو ومن يضُمُّه منزِلُه مِن عيالِه[٤].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يشيرُ إلى اجتهادِ الأنبياءِ، وجوازِ الخطأِ فيه[٥]. وأنَّ أحدَهم لو سَأَل دُعاءً لا يَصلحُ له لا يُقَرُّ عليه؛ فإنَّهم مَعصومونَ أنْ يُقَرُّوا على ذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٦٩).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٣١).

٨- في قولِه تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ، وأنَّ غيرَ المتَّقينَ لهم العاجلةُ دون العاقبةِ، وأنَّ العاقبةَ -وإنْ كانت في الآخرة- فتكونُ في الدُّنيا أيضًا(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في الاعتذارِ والتَّمهيدِ؛ لأنَّه يُريدُ أن يَسأَلَ سُؤالًا لا يَدْري قَبولَه، ولكنَّه اقتَحَمه لأنَّ المسؤولَ له مِن أهلِه، فله عُذرُ الشَّفقةِ عليه، وتأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ)؛ للاهتمامِ به، وكذلك جُملَةُ: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في لازِمِ الفائدةِ، وهو: أنَّه يَعلَمُ أنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ(٢).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ بالفاءِ في ﴿فَقَالَ رَبِّ﴾، وقال في سورةِ مريمَ في قصَّةِ زَكريَّا: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝ قَالَ رَبِّ﴾ [مريم: ٣، ٤] بلا فاءٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه أُريدَ بالنِّداءِ هنا في سورةِ هودٍ إرادتُه؛ فهي سببٌ له؛ فناسَبَتِ الفاءُ الدَّالَّةُ على السَّببيَّةِ، وهناك لم يُرِدْ ذلك؛ فناسَب ترْكُ الفاءِ(٣)؛ فجملةُ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ بيانٌ للنِّداءِ، ومُقتَضى الظَّاهرِ ألَّا تُعطَفَ بفاءِ التَّفريعِ كما لم يُعطَفِ البيانُ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٥).

﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٣، ٤]، وخولِفَ ذلك هنا؛ ووجْهُ اقترانِه بالفاءِ أنَّ فِعلَ ﴿نَادَىٰ﴾ مُستعمَلٌ في إرادةِ النِّداءِ، أي: مِثْلُ فِعْلِ ﴿قُمۡتُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦] الآيةَ، وذلك إخراجٌ للكَلامِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهِرِ؛ فإنَّ وُجودَ الفاءِ في الجملةِ الَّتي هي بيانٌ للنِّداءِ قرينةٌ على أنَّ فِعْلَ ﴿نَادَىٰ﴾ مُستَعارٌ لمعنى إرادةِ النِّداءِ، أي: أراد نِداءَ ربِّه فأعقَبَ إرادتَه بإصدارِ النِّداءِ، وهذا إشارةٌ إلى أنَّه أراد النِّداءَ فتردَّد في الإقدام عليه؛ لِمَا عَلِم مِن قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [هود: ٤٠]؛ فلم يَطُلْ تردُّدُه لَمَّا غلَبَتْه الشَّفَقةُ على ابنِه، فأقدَم على نداءِ ربِّه؛ ولذلك قدَّم الاعتِذارَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

- قولُه عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ فيه تَعْريضٌ بالمطلوبِ؛ لأنَّه لم يَذكُرْه، بل اقتَصَر على هذه الجُمَلِ الثَّلاثِ في مَقامِ الدُّعاءِ، وذلك ضَرْبٌ مِن ضُروبِ التَّأدُّبِ، والتَّردُّدِ في الإقدامِ على المسؤولِ؛ استِغْناءً بعِلْمِ المسؤولِ، كأنَّه يَقولُ: أسأَلُك أم أترُكُ[2].

- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ فيه نَفْيُ أن يَكونَ ابنُه مِن أهلِ دينِه، وتأكيدُه بـ (إنَّ) لِتَحقيقِه؛ إعلامًا بأنَّ قَرابةَ الدِّينِ بالنِّسبةِ لأهلِ الإيمانِ هي القَرابةُ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٥).

- وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ تعليلٌ لِمَضمونِ جملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[(١)].

- و﴿عَمَلٌ﴾ مصدرٌ أُخبِرَ به للمُبالَغةِ؛ حيث جَعَل ابنَه نَفْسَ العمَلِ؛ مبالغةً في ذَمِّه[(٢)].

- وإيثارُ ﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ على (فاسِدٌ)؛ إمَّا لأنَّ الفاسِدَ ربَّما يُطلَقُ على ما فسَدَ ومِن شَأنِه الصَّلاحُ؛ فلا يَكونُ نَصًّا فيما هو مِن قَبيلِ الفاسِدِ المَحْضِ، كالقَتلِ والْمَظالِمِ، وإمَّا للتَّلويحِ بأنَّ نجاةَ مَن نَجا إنَّما هي لِصَلاحِه[(٣)].

- وفي قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ على القول بأنَّ هذا النِّداءِ كان قبلَ غرقِ ابنِه؛ فيكون أُخِّرَ عن حِكايةِ الأمرِ الوارِدِ على الأرضِ والسَّماءِ، وما يَتْلوه مِن زَوالِ الطُّوفانِ، وقَضاءِ الأمْرِ، واستِواءِ الفُلْكِ على الجُوديِّ، والدُّعاءِ بالهَلاكِ على الظَّالِمين، مع أنَّ حقَّه أن يُذْكَرَ عَقِيبَ قولِه تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ حسَبَما وقَع في الخارِجِ؛ إذ حينَئذٍ يُتَصوَّرُ الدُّعاءُ بالإنجاءِ لا بَعْدَ العلمِ بالهلاكِ، ووجهُ هذا التَّأخيرِ: أنَّ ذِكْرَ هذا النِّداءِ مُستَدْعٍ لِذِكْرِ الجوابِ المستدعي لذِكرِ ما مرَّ مِن تَوبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المؤدِّي ذِكْرُها إلى ذِكرِ قَبولِها في ضِمْنِ الأمرِ الوارِدِ بنُزولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الفُلْكِ بالسَّلامِ والبَرَكاتِ الفائضةِ عليه وعلى المؤمنين، وهذه المعاني آخِذٌ بعضُها بحُجْزةِ بعضٍ بحيثُ لا يَكادُ يُفرَّقُ الآياتُ الكريمةُ المنطويَةُ عليها بعضُها مِن بَعضٍ، وأنَّ ذلك إنَّما يَتِمُّ بتَمامِ القِصَّةِ، وذلك إنَّما يكونُ بتمامِ الطُّوفانِ؛ فاقتَضى الحالُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٨٦).
(٢) يُنظر: ((البحر المحيط)) (٦/ ١٦٠-١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٢).

ذِكرَ تمامِها قبلَ هذا النِّداءِ؛ ولهذه النُّكتةِ ازدادَ حُسْنُ موقعِ الإيجازِ البليغ.

وفيه فائدةٌ أخرى: وهي التَّصريحُ بهَلاكِ ابْنِه الكافرِ مِن أوَّلِ الأمرِ، ولو ذُكِر النِّداءُ الثَّاني عَقيبَ قولِه تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ لَرُبَّما تُوُهِّم مِن أوَّلِ الأمرِ إلى أن يَرِدَ قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أنَّه يَنْجو بدُعائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فنُصَّ على هَلاكِه مِن أوَّلِ الأمرِ، ثمَّ ذُكِرَ الأمرُ الوارِدُ على الأرضِ والسَّماءِ مِن الغَيْضِ والإقلاعِ، وبيَّنَ بُلوغَ أمرِ اللهِ مَحلَّه، وجريانَ قَضائِه ونُفوذَ حُكمِه عليهم بهَلاكِ مَن هلَك ونَجاةِ مَن نجا بتَمامِ ذلك الطُّوفانِ، واستواءِ الفُلْكِ على الجوديِّ؛ فقُصَّتِ القِصَّةُ إلى هذه المرتَبةِ وبُيِّن ذلك أيَّ بيانٍ، ثمَّ تَعرَّضَ لِمَا وقعَ في تَضاعيفِ ذلكَ ممَّا جَرى بينَ نوحٍ عليه السَّلامُ وبينَ ربِّ العِزَّةِ جلَّتْ حِكمَتُه، فذَكَر بعدَ توبَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قَبولَها بقولِه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ ...﴾[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فيه حُسنُ تَرتيبٍ، حيث قدَّم طلَبَ المغفرةِ ابتداءً؛ لأنَّ التَّخْليَةَ مُقدَّمةٌ على التَّحْليةِ، ثمَّ أعقَبَها بطلَبِ الرَّحمةِ؛ لأنَّه إذا كان بمحَلِّ الرِّضا مِن اللهِ كان أهلًا للرَّحمةِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- فُصِلَتِ الجُملَةُ ولم تُعطَفْ؛ لِوُقوعِها في سِياقِ المُحاوَرةِ بينَ نوحٍ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٨).

السَّلامُ وربِّه؛ فإنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لَمَّا أجابَ بقَولِه: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ إلى آخِرِه [هود: ٤٧] خاطَبَه ربُّه إتمامًا للمُحاوَرةِ بما يُسَكِّنُ جَأْشَه، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أن يَقولَ: (قال: يا نوحُ اهبِطْ)، ولكنَّه عدَل عنه إلى بناءِ الفِعْلِ للنَّائبِ؛ لِيَجيءَ على وَتيرةِ حِكايةِ أجزاءِ القِصَّةِ المتقدِّمةِ مِن قولِه: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي﴾... ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]؛ فحصَل بذلك البِناءِ قَضاءُ حَقِّ الإشارةِ إلى جُزءِ القِصَّةِ، كما حصَل بالفَصْلِ قَضاءُ حقِّ الإشارةِ إلى أنَّ ذلك القوْلَ جزءُ المحاوَرةِ[1].

- وقولُه هنا: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ نَظيرُ قولِه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]؛ فإنَّ السَّلامَ ظاهِرٌ في التَّحيَّةِ لِتَقييدِه بـ(آمِنينَ)، ولو كان السَّلامُ مُرادًا به السَّلامةُ لكان التَّقييدُ بـ(آمِنينَ) توكيدًا وهو خِلافُ الأصلِ، و﴿مِّنَّا﴾ تأكيدٌ لتوجيهِ السَّلامِ إليه؛ لأنَّ (مِن) ابتِدائيَّةٌ، فالمعنى: بسَلامٍ ناشئٍ مِن عِندِنا، كقَولِه: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]. وذلك كثيرٌ في كَلامِهم، وهذا التَّأكيدُ يُرادُ به زيادةُ الصِّلةِ والإكرامِ؛ فهو أشَدُّ مُبالَغةً مِن الَّذي لا تُذكَرُ معَه (مِن)[2].

- وتنكيرُ (أُمَمٍ) في قولِه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾؛ لأنَّه لم يُقصَدْ به التَّعميمُ؛ تَمهيدًا لقولِه: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾[3].

- وجُملةُ ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ...﴾ إلخ، عطفٌ على جُملةِ ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ إلى آخِرِها، وهي استِئْنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّها تَبيينٌ لِمَا أفادَه التَّنكيرُ في قولِه:

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٠).

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ مِن الاحتِرازِ عن أُممٍ آخَرينَ[١].

- وفي ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ حُذِفُ الخبر، أي: ومنهم؛ لدَلالةِ ما سبق عليه، والتقدير: (وممَّن معَك أُممٌ سنُمتِّعهم)؛ وإنَّما حذف لأنَّ قوله: ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ يدلُّ عليه، والمعنى: أنَّ السَّلامَ منَّا والبركاتِ عليك وعلى أُممٍ مؤمنين يَنشؤُون ممَّن معك؛ فإنَّ إيرادَ الأممِ المبارَكِ عليهم المتَشعِّبةِ منهم نَكِرةً يَدُلُّ على أنَّ بعضَ مَنْ يتشعَّبُ منهم لَيْسوا على صِفَتِهم، أي: ليس جَميعُ مَن تشعَّب منهم مُسلِمًا ومُبارَكًا عليه، بل مِنهم أممٌ مُمتَّعون في الدُّنيا، مُعذَّبون في الآخرةِ، وعلى هذا لا يَكونُ الكائِنون معَ نوحٍ عليه السَّلامُ مُسلَّمًا ومُبارَكًا عليهم صَريحًا، وإنَّما يُفهَمُ ذلك مِن كَونِهم مع نُوحٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومِن كونِ ذُرِّيَّاتِهم كذلك، بدَلالةِ النَّصِّ، ويَجوزُ أن تَكونَ (مِن) بَيانيَّةً، أي: وعلى أُمَمٍ هم الَّذين معَك، وإنَّما سُمُّوا أممًا؛ لأنَّهم أممٌ مُتحزِّبةٌ، وجماعاتٌ مُتفرِّقةٌ، أو لأنَّ جميعَ الأممِ إنَّما تشعَّبَت منهم؛ فحينَئذٍ يكونُ المرادُ بالأممِ المشارِ إليهم في قولِه تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ بعضَ الأممِ المتشعِّبةِ منهم، وهي الأممُ الكافرةُ المتناسِلةُ منهم إلى يومِ القيامةِ، ويَبْقى أمرُ الأممِ المؤمنةِ النَّاشئةِ مِنهم مُبهَمًا، غيرَ مُتعرَّضٍ له، ولا مَدلولٍ عليه مع ذلك؛ ففي دَلالةِ المذكورِ على خبرِه المحذوفِ خَفاءٌ؛ لأنَّ (مِن) المذكورةَ بيانيَّةٌ، والمحذوفةَ تبعيضيَّةٌ أو ابتدائيَّةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه تنبيهٌ على الإيمانِ بأنَّ المتَّصِفين به مِن اللهِ عليهم سلامٌ وبرَكةٌ، وعلى الكفرِ بأنَّ المتَّصِفين به يُمَتَّعون في الدُّنيا، ثمَّ يُعذَّبون في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٥).

الآخرةِ، وذلك مِن بابِ الكِنايةِ، كقَولِهم: فُلانٌ طَويلُ النِّجادِ، كَثيرُ الرَّمادِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ إلى: ﴿فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ استِئْنافٌ أُريدَ به الامتنانُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والموعظةُ والتَّسليةُ؛ فالامتِنانُ من قولِه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا﴾، والموعظةُ مِن قولِه: ﴿فَاصْبِرْ﴾، والتَّسليةُ مِن قولِه: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

- وقولُه: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ما قُصَّ مِن قِصَّةِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إمَّا لكونِها بتَقَضِّيها في حُكْمِ البعيدِ، أو الدَّلالةِ على بُعْدِ مَنزِلَتِها[٣].

- قولُه: ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ المضارِعِ ﴿نُوحِيهَا﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ، أو هو حالٌ مِنْ أنباءِ الغيبِ، أي: مُوحاةً إليك[٤].

- قولُه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ في ذِكْرِ جَهْلِهم تنبيهٌ على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَم يتعلَّمْه إذ لم يُخالِطْ غيرَهم، وأنَّهم مع كثرَتِهم لَمَّا لم يَعلَموه؛ فكيف بواحدٍ منهم[٥]؟!

- وعَطْفُ ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾ من التَّرقِّي؛ لأنَّ في قومِه مَن خالَطَ أهْلَ الكتابِ، ومَن كان يَقرَأُ ويَكتُبُ، ولا يَعلَمُ أحَدٌ مِنهم كثيرًا مِمَّا أوحي إليه مِن هذه القصَّةِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٣).

- قولُه: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فيه تفريعُ أمرِ الرَّسولِ بالصَّبرِ على هذه القصَّةِ، ووجهُه أنَّ فيها قياسَ حالِه معَ قومِه على حالِ نوحٍ عليه السَّلامُ معَ قومِه؛ فكما صبَرَ نوحٌ عليه السَّلامُ؛ فكانت العاقبةُ له، كذلك تكونُ العاقبةُ لك على قومِك[1].

- وجملةُ ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ عِلَّةٌ للصَّبرِ المأمورِ به؛ أي: اصبِرْ؛ لأنَّ داعِيَ الصَّبرِ قائمٌ، وهو أنَّ العاقِبةَ الحَسَنةَ تَكونُ للمُتَّقين، فستَكونُ لك وللمُؤمِنين معَك[2].

- واللَّامُ في ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ للاختصاصِ والمِلْكِ؛ فيَقْتَضي مِلْكَ المتَّقينَ لجِنْسِ العاقبةِ الحسَنةِ، فهي ثابتةٌ لهم، لا تَفوتُهم، وهي مُنتَفِيَةٌ عن أضدادِهم[3].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٠-٦٠)

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ
إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ
﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ
لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ
﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا
لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مُفْتَرُونَ﴾: أي: كاذِبونَ، والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه مِن: (فَرْيِ الأديمِ)، وهو: قَطْعُهُ، فقيل للكَذِبِ: افتراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يقطَعُ به على التَّقديرِ، مِن غيرِ تحقيقٍ[1].

﴿فَطَرَنِي﴾: أي: خَلَقَني، وأصلُ (فطر): يدلُّ على الشَّقِّ، فكُلُّ من أظهَرَ أمرًا

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٠).

اختَرَعه على غيرِ مِثالٍ، يُقال: قد فطَرَه[(١)].

﴿مِّدۡرَارٗا﴾: أي: مُتتابعًا غزيرًا، وأصلُ (درر): يدلُّ على تولُّدِ شَيءٍ عن شيءٍ[(٢)].

﴿ٱعۡتَرَىٰكَ﴾: أي: أصابَك، أو ألَمَّ بك، وأصلُ (عرو): يدلُّ على ثَباتٍ ومُلازمةٍ وغِشيانٍ[(٣)].

﴿بِنَاصِيَتِهَآ﴾: النَّاصِيةُ: شَعرُ مُقَدَّمِ الرَّأسِ، وأصلُ (نصو): يدُلُّ على عُلُوٍّ، وسُمِّيَت النَّاصِيةُ؛ لارتفاعِ مَنبِتِها[(٤)].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى عادٍ أخاهم هودًا، فقال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم مِن إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلَّ وعلا، فأخلِصوا له العبادةَ، فما أنتم إلَّا كاذِبونَ في إشراكِكم باللهِ، ويا قومِ لا أسألُكم على ما أدعوكم إليه- مِن إخلاصِ العِبادةِ لله، وتَركِ عبادةِ الأوثانِ- أجرًا، ما أجري على دَعوتي لكم إلَّا على اللهِ الذي خلَقَني، أفلا تَعقِلونَ فتُمَيِّزوا بين الحَقِّ والباطِلِ؟! ويا قومِ اطلُبوا مَغفِرةَ الله، ثمَّ تُوبوا إليه مِن ذُنوبِكم؛ يُرسِلِ المطَرَ عليكم مُتتابعًا كثيرًا، فتَكثُرْ خَيراتُكم، ويَزِدْكم قُوَّةً إلى قُوَّتِكم، بكَثرةِ ذُرِّيَّاتِكم، وتتابُعِ النِّعَمِ عليكم، ولا تُعرِضوا عمَّا دعَوتُكم إليه، مُصِرِّينَ على إجرامِكم.

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٣)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان الأندلسي (ص: ٣٠٤).

قالوا: يا هودُ ما جِئتَنا بحُجَّةٍ واضحةٍ على صِحَّةِ ما تَدعونا إليه، وما نحن بتاركي آلهَتِنا مِن أجلِ قَولِك، وما نحن بمصَدِّقينَ لك فيما تدَّعيه، ما نقولُ إلَّا أنَّ بعضَ آلهتِنا أصابك بجُنونٍ؛ بسبَبِ نَهيِك عن عبادتِها. قال لهم: إني أُشهِدُ اللهَ على ما أقولُ، واشهَدوا أنَّني بريءٌ ممَّا تُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ؛ من الأندادِ والأصنامِ، فاجتَهِدوا أنتم ومَن زعَمتُم من آلهتِكم في إلحاقِ الضَّرَرِ بي، ثمَّ لا تؤخِّروا ذلك طرفةَ عَينٍ؛ إنِّي توكلَّتُ على اللهِ ربِّي وربِّكم، مالكِ كُلِّ شَيءٍ، والمتصَرِّفِ فيه، فلا يصيبُني شيءٌ إلَّا بأمرِه تعالى، وهو القادِرُ على كلِّ شَيءٍ، فليس من شيءٍ يدِبُّ على هذه الأرضِ إلَّا واللهُ مالِكُه، وهو في سُلطانِه وتصَرُّفِه، إنَّ رَبِّي عَدلٌ في قَضائِه وشَرعِه وأمرِه، يُجازي المحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه، فإن تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه مِن توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ العبادةِ له؛ فقد أبلغتُكم رسالةَ رَبِّي إليكم، وقامت عليكم الحُجَّةُ، وحيث لم تُؤمِنوا بالله فسيُهلِكُكم، ويأتي بقومٍ آخرينَ يَخلُفونكم في ديارِكم وأموالِكم، ويُخلِصونَ لله العبادةَ، ولا تَضُرُّونَه شيئًا؛ إنَّ ربِّي على كلِّ شَيءٍ حفيظٌ، فهو الذي يحفَظُني من أن تنالوني بسُوءٍ.

ولَمَّا جاء أمرُنا بعذابِ قَومِ هودٍ؛ نجَّينا هُودًا والمؤمنينَ بفَضلٍ منَّا عليهم ورحمةٍ، ونجَّيناهم من عذابٍ شديدٍ؛ عذابِ يومِ القيامةِ، وتلك عادٌ كَفَروا بآياتِ اللهِ، وعصَوا رسُلَه، وأطاعوا أمرَ كُلِّ مُستكبِرٍ على اللهِ، لا يقبَلُ الحَقَّ ولا يُذْعِنُ له، وأُتبِعوا في هذه الدُّنيا لعنةً مِن اللهِ، وسَخَطًا منه يومَ القيامةِ، ألا إنَّ عادًا جَحَدوا ربَّهم، ألا بُعْدًا وهَلاكًا لعادٍ قَومِ هُودٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم في النَّسَبِ هودًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: قال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، فلا تُشرِكوا به شيئًا[2].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

أي: ما أنتم في عبادتِكم غيرَ اللهِ إلَّا كاذِبونَ على اللهِ[3].

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدما أوضحَ لهم وجوبَ عبادةِ اللهِ، وفسادَ عبادةِ ما سواه؛ ذكَرَ عدمَ المانعِ لهم من الانقيادِ، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: غرامةً مِن أموالِكم، على ما دعوتُكم إليه، فتقولوا: هذا يريدُ أن يأخذَ أموالَنا[4].

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾.

أي: يا قَومِ لا أطلبُ منكم أُجرةً على تبليغي رسالةَ اللهِ، ما ثوابي على دعوتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٣).

لكم إلَّا على اللهِ الذي خلقَني[١].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفلا تعقِلونَ أنِّي أدعوكم لمصلَحتِكم في الدُّنيا والآخرةِ مِن غيرِ أُجرةٍ؟! فلو كنتُ أبتغي بدعوتِكم إلى اللهِ غيرَ النَّصيحةِ لكم، لطلبتُ منكم أجرًا على ذلك[٢].

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا هو النَّوعُ الثَّاني من التَّكاليفِ التي ذكَرَها هودٌ عليه السَّلامُ لِقومِه؛ وذلك لأنَّه في المقامِ الأوَّلِ دعاهم إلى التَّوحيدِ، وفي هذا المقامِ دعاهم إلى الاستغفارِ ثمَّ إلى التوبةِ[٣].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا دعا هودٌ قَومَه مُشيرًا إلى ترهيبِهم مستدِلًّا على الصِّدقِ بنفي الغَرَضِ؛ رغَّبَهم في إدامةِ الخوفِ ممَّا مضى[٤].

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾.

أي: ويا قومِ اطلُبوا من رَبِّكم سَترَ ذُنوبِكم الماضيةِ، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ بها، ثمَّ توبوا إليه فيما تستقبِلونَه، وذلك بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والرُّجوعِ إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه؛ فإنَّكم إن فعلتُم ذلك يُرسِلِ المطرَ عليكم كثيرًا مُتتابِعًا، فتُخصِب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٠٧).

الأرضُ، ويكثُر خيرُها[١].

كما حكى الله تعالى عن نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾.

أي: ويَزِدْكم اللهُ -إن استغفرتُم وتُبتُم- شِدَّةً مُضافةً إلى شِدَّتِكم، وأموالًا وأولادًا[٢].

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

أي: ولا تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه من توحيدِ اللهِ وعبادتِه، وتُصِرُّوا على الكُفرِ والعِصيانِ[٣].

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

أي: قال قومُ هودٍ: يا هودُ، ما أتيتَنا ببُرهانٍ وحُجَّةٍ واضحةٍ تشهَدُ على صِحَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

قال الواحدي: (﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ فُسِّرَت القوةُ هاهنا بالمالِ والولد والشِّدةِ، وكلُّ هذا ممَّا يَقوَى به الإنسانُ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

ما تدعونا إليه[١]!

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾.

أي: وما نحنُ -يا هودُ- بتاركي عبادةِ آلهَتِنا بمُجَرَّدِ نَهيِك لنا عن عبادتِهم، دونَ بُرهانٍ على صحَّةِ ما تقولُ[٢].

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وما نحنُ لك بما تدَّعي من النبوَّةِ والرِّسالةِ بمُصَدِّقينَ[٣] ومقرِّين ومنقادين ومُذْعِنين.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾.

أي: ما نقولُ إلَّا أصابَك بعضُ أصنامِنا بجُنونٍ؛ بسبَبِ نهيِك عن عبادتِها، وذمِّك لها[٤].

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: قال هودٌ لهم: إنِّي أُشهِدُ اللهَ على نفسي، وأُشهِدُكم أنِّي بَريءٌ مِن عبادتِكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

للأصنامِ مِن دونِ اللهِ تعالى[١].

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾.

مُناسَبتُها لما قَبلَها:

لَمَّا كانت البراءةُ من الشُّرَكاءِ تقتضي اعتقادَ عَجزِها عن إلحاقِ إضرارٍ به؛ فرَّع على البراءةِ هذه الجملةَ[٢]، فقال:

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾.

أي: فاحْتالوا أنتم وجميعُ آلهتِكم لتضرُّوني، ثمَّ لا تُمهِلوني، ولا تؤخِّروا ذلك[٣].

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾.

أي: إنِّي اعتمدتُ على اللهِ مالكي ومالِكِكم، ومدبِّرِ أمورِ خَلقِه؛ ليمنَعَني منكم، فلا تصيبوني بسُوءٍ[٤].

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

أي: ما من شيءٍ يدِبُّ على الأرضِ إلَّا وهو في قبضةِ اللهِ، وتحت قَهرِه وسُلطانِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

يُصرِّفُه كيف يشاءُ، ويمنَعُه ممَّا يشاءُ، فلا تَصِلونَ إلى إلحاقِ الضَّررِ بي[١].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُنا إذا أخذْنا مضجَعَنا أن نقول: اللهمَّ رَبَّ السَّمواتِ، وربَّ الأرضِ، وربَّ العرشِ العظيم، ربَّنا ورَبَّ كُلِّ شيءٍ، فالقَ الحَبِّ والنَّوى، ومُنزِلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والفُرقانِ، أعوذُ بك من شَرِّ كُلِّ شَيءٍ أنت آخِذٌ بناصيته، اللهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قبلَك شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظَّاهِرُ فليس فوقَك شيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دونك شيءٌ، اقضِ عنَّا الدَّينَ، وأغنِنا من الفَقرِ))[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: إنَّ ربِّي على طريقِ الحَقِّ والعَدلِ لا يظلِمُ أحدًا، ولا تخرجُ أقوالُه وأفعالُه عن الصَّوابِ والحِكمةِ في شَرعِه وقضائِه[٣].

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا استوفَى تشييدَه أمْرَه، وهدمَ قَولِهم؛ أخَذ يحَذِّرُهم، فقال[٤]:

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡ﴾.

أي: فإن تُعرِضُوا عمَّا أدعوكم إليه من عبادةِ اللهِ وحدَه، فقد قامت عليكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٧٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٢).

الحُجَّةُ بإبلاغي إيَّاكم رسالةَ اللهِ، ولم تبقَ عليَّ تَبِعَةٌ من شأنِكم[(١)].

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾.

أي: ويَستبدِلُ ربِّي قومًا غيرَكم يُطيعونَه ويعبُدونَه وَحدَه بعد أن يُهلِكَكم، ولا تضُرُّونَ اللهَ شيئًا بكُفرِكم[(٢)].

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي ذو حِفظٍ لكُلِّ شَيءٍ، حافِظٌ لأقوالِ عبادِه وأفعالِهم، ويجزيهم عليها، ويحفَظُني من أن تنالوني بسوءٍ[(٣)].

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

أي: ولَمَّا أتَى عذابُنا، وأهلكْنا جميعَ الكافرينَ، نجَّيْنا هودًا والمؤمنينَ معه برَحمتِنا، وبفضلٍ منَّا عليهم[(٤)].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لن يُدخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنَّةَ، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

وذهب ابن جرير إلى أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾: ولا تقدِرونَ له على ضُرٍّ إذا أراد إهلاكَكم أو أهلَكَكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

أنا، إلَّا أن يتغمَّدَني اللهُ منه بفضلٍ ورحمةٍ))[١].

﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

أي: ونجَّيْنا المؤمنينَ من عذابِ يومِ القيامةِ[٢].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)﴾.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾.

أي: وتلك عادٌ- الذين أوقعَ اللهُ بهم ما أوقعَ- كذَّبوا بالمُعجزاتِ التي أيَّد اللهُ بها الرسُلَ، وأنكَروا ما أنزل اللهُ عليهم من الحُجَجِ والبراهينِ، وعَصَوا رسُلَ اللهِ بعصيانِهم لرَسولِهم هودٍ عليه وعليهم السَّلامُ[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: عذابُ يوم القيامة: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الواحدي: (وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾... قال بعضُهم: يعني عذابَ القيامةِ، وهذا أحسنُ؛ لأنَّ الإنجاءَ مِن عذابِ الدُّنيا قد سبَق، كما نجَّيناهم في الدنيا مِن العذابِ، كذلك نجَّيناهم في الآخرةِ مِن العذابِ). ((البسيط)) (١١/ ٤٥٢).

وقيل: المرادُ: النجاةُ مِن عذابِ عادٍ. وممن قال بذلك: البغويُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

وقال ابنُ جزي: (﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يحتملُ أن يريدَ به عذابَ الآخرةِ، ولذلك عطَفه على النجاةِ الأولَى التي أراد بها النجاةَ مِن الريحِ، ويحتملُ أن يريدَ بالثاني أيضًا الريحَ، وكرَّره إعلامًا بأنَّه عذابٌ غليظٌ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

قال القرطبي: (﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هودًا وحدَه؛ لأنَّه لم يُرسلْ إليهم من الرُّسُلِ سواه... وإنما جُمِعَ هاهنا؛ لأنَّ من كذَّب رسولًا واحدًا فقد كفر بجميعِ الرُّسُل. وقيل: عصَوا هودًا

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

أي: واتَّبَعوا كلَّ متكَبِّرٍ مِن كبَرائِهم ورؤسائِهم، متسَلِّطٍ على الخلقِ، طاغيةٍ معاندٍ، لا يقبَلُ الحَقَّ[1].

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكر أوصافَ قَومِ عادٍ، ذكر بعد ذلك أحوالَهم[2]، فقال تعالى:

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: وألحقَ اللهُ بقومِ هودٍ في هذه الدُّنيا لعنةً مِنه ومِن المؤمنينَ، وتلحَقُهم لعنةٌ أُخرَى يومَ القيامةِ[3].

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾.

أي: ألا إنَّ عادًا كفروا بربِّهم الذي خلَقَهم ورزَقَهم وربَّاهم، وعَصَوه[4].

والرسُلَ قبله، وكانوا بحيث لو أُرسِلَ إليهم ألفُ رَسولٍ لجَحَدوا الكلَّ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٧).

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

أي: ألا أبعَدَ اللهُ عادًا قومَ هودٍ عن كلِّ خَيرٍ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- خاطَب نوحٌ عليه السلامُ قومَه قائلًا: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ خاطبَهم بذلك إزالةً للتُّهمةِ، وتمحيضًا للنَّصيحةِ؛ فإنَّها لا تَنجَعُ ما دامت مَشوبةً بالمطامعِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ دلالةٌ مِن كلامِ المرسَلينَ أنَّه بتوكُّلِهم على اللهِ يُدفَعُ شرُّ عدوِّهم عنهم(٣).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًا﴾ أرسلَ اللهُ إليهم ﴿أَخَاهُمۡ﴾ في النَّسَبِ ﴿هُودًا﴾ ليتَمكَّنوا من الأخذِ عنه، والعلم بصِدقِه(٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًا﴾ فيه سؤالٌ: وصفَ تعالى هودًا بأنَّه أخوهم، ومعلومٌ أنَّ تلك الأخوَّةَ ما كانت في الدِّينِ، وإنَّما كانت في النَّسَبِ، وقد قال تعالى في ابنِ نوحٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾، فبيَّن أنَّ قَرابةَ النَّسَبِ لا تُفيدُ إذا لم تحصُلْ قَرابةُ الدِّينِ، وهاهنا أثبتَ هذه الأُخُوَّةَ مع الاختلافِ في الدِّينِ، فما الفرقُ بينهما؟

الجواب: أنَّ المرادَ مِن هذا الكلامِ استمالةُ قَومِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

وسلَّم؛ لأنَّ قَومَه كانوا يستبعِدونَ في محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مع أنَّه واحِدٌ من قبيلتِهم- أن يكونَ رسولًا إليهم من عندِ الله، فذكرَ الله تعالى أنَّ هودًا كان واحدًا مِن عاد؛ لإزالةِ هذا الاستِبعاد(١).

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على أنَّ هؤلاء المعبودينَ مِن دونِ اللهِ إنَّما هم آلهةٌ في نفوسِ المُشرِكينَ، ليسوا آلهةً في نفسِ الأمرِ؛ ولهذا كان ما في قلوبِهم مِن الشِّركِ إفكًا(٢).

٤- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على أنَّ الأفعالَ قبْلَ الرِّسالةِ منها الحسَنُ ومنها القبيحُ، إلَّا أنَّهم لا يستَحِقُّونَ العذابَ إلَّا بعد مجيءِ الرَّسولِ إليهم، فقد جعل هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قومَه مُفتَرينَ قبلَ أن يحكُمَ بحُكمٍ يُخالِفونَه؛ لِكونِهم جعلوا مع الله إلهًا آخرَ(٣).

٥- في قَولِه تعالى عن هودٍ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بيانُ أنَّ عبادةَ اللهِ وحدَه هي أوَّلُ الواجباتِ، وهي مِفتاحُ دعوةِ المُرسَلينَ كلِّهم(٤).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ هذا غايةُ ما يُرادُ مِن السَّعاداتِ الدنيوية: كثرةُ النعمِ، وكمالُ القوةِ للاستمتاعِ بها؛ فقولُه تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ إشارةٌ إلى تكثيرِ النِّعَمِ؛ لأنَّ مادةَ حُصولِ النِّعَمِ هي الأمطارُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٨٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٥٤).

المُوافِقة، وقولُه: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى كمالِ حالِ القُوى التي بها يمكِنُ الانتفاعُ بتلك النِّعمةِ[١].

٧- (ثمَّ) في قولِه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ الدَّوامَ على الإقلاعِ أهَمُّ مِن طلَبِ العفْوِ عمَّا سلَف[٢].

٨- كثيرًا ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التوبةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، فيكونُ الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلبِ المغفرةِ باللسانِ، والتوبةُ عبارةٌ عن الإقلاع عن الذنوبِ بالقلوبِ والجوارح[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يقتضي أنَّه -سُبحانَه- لا يقولُ إلَّا الحقَّ، ولا يأمرُ إلَّا بالعدلِ، ولا يفعلُ إلَّا ما هو مصلحةٌ ورحمةٌ وحكمةٌ وعَدْلٌ؛ فهو على الحقِّ في أقوالِه وأفعالِه، فلا يقضي على العبدِ بما يكونُ ظالِمًا له به، ولا يأخذُه بغير ذنبِه، ولا يَنقُصُه مِن حسناتِه شيئًا، ولا يَحمِلُ عليه مِن سيِّئاتِ غَيرِه -التي لم يعملْها ولم يتسبَّبْ إليها- شيئًا، ولا يؤاخِذُ أحدًا بذنبِ غيرِه، ولا يفعلُ قطُّ ما لا يُحمَدُ عليه، ويُثنَى به عليه، ويكونُ له فيه العواقبُ الحميدةُ والغاياتُ المطلوبةُ؛ فإنَّ كونَه على صراطٍ مُستقيم يأبى ذلك كلَّه[٤].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ﴾ فيه تأنيثُ اسمِ الإشارةِ ﴿تِلۡكَ﴾ على تأويلِ الأُمَّةِ، أو أنَّث اسْمَ الإشارةِ باعتبارِ القَبيلةِ، أو لأنَّ الإشارةَ إلى قُبورِهم وآثارِهم[٥].

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٦).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٠٧).
(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٥).

﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ على إطلاقِ مَعصيةِ الرُّسُلِ عُمومًا على مَن عصى نبيَّه، فأطلقَ معصيتَهم للرُّسُلِ- بأنَّهم عصَوا هودًا- مَعصيةَ تكذيبٍ لجنسِ الرُّسُلِ، فكانت المعصيةُ لجنسِ الرُّسُلِ كمعصيةِ مَن قال: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩]، وكمعصيةِ مَن كذَّبَ وتوَلَّى في قولِه تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[1] [الليل: ١٥- ١٦].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ فيه الردُّ على الذين يصَوِّبونَ جميعَ المِلَلِ- وخَصُّوا عادًا هذه؛ لكونِها أغناهم بأن قالوا: إنَّهم من المقرَّبينَ إلى اللهِ، وإنَّهم بعينِ الرِّضا منه- وهم أتباعُ ابنِ عرَبي الكافرِ العنيدِ، أهلُ الاتِّحادِ، المُجاهِرونَ بعَظيمِ الإلحادِ، المستخِفُّونَ برَبِّ العبادِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ على المنصوبِ ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ العطْفَ مِن عَطْفِ المفرَداتِ لا مِن عطْفِ الجُمَلِ؛ لأنَّ الجارَّ لا بدَّ له مِن متعلِّق، وقضاءً لحقِّ الإيجازِ؛ لِيَحضُرَ ذِكرُ عادٍ مرَّتَينِ بلَفْظِه ثمَّ بضَميرِه[3].

- قولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فيه افتِتاحُ دَعوتِه بنداءِ قومِه؛ لاستِرْعاءِ أَسْماعِهم؛ إشارةً إلى أهمِّيَّةِ ما سيُلْقي إليهم، ووَجْهُ التَّصريحِ بفِعْلِ القولِ؛

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٤).

لأنَّ فِعْلَ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوفٌ؛ فلو بُيِّن بجملةِ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ﴾ دون (قال) كما بُيِّن في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، لكان بَيانًا لمعدومٍ، وهو غيرُ جَلِيٍّ[١].

- قولُه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استِئْنافٌ يَجْري مَجْرى البيانِ للعِبادةِ المأمورِ بها، والتَّعليلِ للأمْرِ بها، كأنَّه قيل: خُصُّوه بالعبادةِ وَلا تُشْرِكوا بِهِ شَيئًا؛ إذْ ليس لكم مِن إلهٍ سِواه[٢].

- وجملةُ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ بيانٌ لِجُملَةِ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وفيها توبيخٌ وإنكارٌ لهم[٣].

٢- قولُه: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

- جملةُ ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ في أثناءِ الكلامِ، والتَّكريرُ للأهَمِّيَّةِ، ويُقصَدُ به تَهْويلُ الأمْرِ، واستِرْعاءُ السَّمْعِ اهتِمامًا بما يَستَسمِعونَه، والنِّداءُ هو الرَّابِطُ بين الجُملتَين[٤].

- قولُه: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِيٓ﴾ دونَ الاسْمِ العلَمِ (فَاطِرٌ)؛ لزيادةِ تحقيقِ أنَّه لا يَسأَلُهم على الإرشادِ أجْرًا بأنَّه يَعلَمُ أنَّ الَّذي خلَقَه يَسوقُ إليه رِزقَه؛ لأنَّ إظْهارَ المتكلِّمِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا الوجهُ هو على أنَّ هذه الجملةَ كان قالها مع الجُملةِ التي قبلها، وإنْ كانت مقولةً في وقتٍ غيرِ الذي قِيلتْ فيه الجملةُ الأُولَى؛ فليس فيه هذا الوجهُ.

عِلْمَه بالأسبابِ يُكْسِبُ كلامَه على المسبِّباتِ قوَّةً وتحقيقًا[١].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ عن عدمِ تعقُّلِهم، أي: تأمُّلِهم في دَلالةِ حالِه على صِدْقِه فيما يُبلِّغُ، ونُصْحِه لهم فيما يَأمُرُهم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَزِدْكُمْ﴾، وإنَّما عُدِّي بـ(إلى) لِتَضمينِه مَعْنى يَضُمُّ، وهذا وعْدٌ لهم بصَلاحِ الحالِ في الدُّنيا، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾؛ تحذيرًا مِن الرُّجوعِ إلى الشِّرْكِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ فيه افتِتاحُ كَلامِهم بالنِّداءِ، وهو يُشيرُ إلى الاهتمامِ بما سيَقولونَه، وأنَّه جديرٌ بأن يُتَنبَّهَ له؛ لأنَّهم نَزَّلوه مَنزِلةَ البعيدِ لِغَفلتِه فنادَوْه؛ فهو مُستعمَلٌ في معناه الكِنائيِّ[٤].

- قولُهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾، ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾ للتَّعليلِ كقولِه تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، فتَتعلَّقُ ﴿بِتَارِكِيٓ﴾، كأنَّه قيل: لِقَولِك[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٧).

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أفادت الجملةُ الاسميةُ وزيادةُ الباءِ وتقديمُ المسندِ إليه المفيدِ للتقوِّي أنَّهم لا يُرجَى منهم الإيمانُ بأيِّ وجهٍ[(١)].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

- ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ استِئْنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مِن شأنِه أن يُثيرَ للسَّامعِ ومَن معَه في أنفُسِهم أن يَقولوا: إن لم تُؤمِنوا بما جاء به أنَّه مِن عندِ اللهِ؛ فماذا تَعُدُّون دَعوتَه فيكم؟[(٢)]، وقد جعَلوا ذلك مِن فِعْلِ بعضِ الآلهةِ؛ تهديدًا للنَّاسِ بأنَّه لو تَصدَّى له جميعُ الآلهةِ لَدَكُّوه دكًّا[(٣)].

- والتَّنكيرُ في (سُوءٍ) للتَّقليلِ؛ كأنَّهم لم يُبالِغوا في السُّوءِ، كما يُنْبِئُ عنه نِسبةُ ذلك إلى بعضِ آلهتِهم دونَ كُلِّها[(٤)].

- قولُه: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ جملةُ ﴿أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ إنشاءٌ لإشهادِ اللهِ بصيغةِ الإخبارِ؛ لأنَّ كلَّ إنشاءٍ لا يَظهَرُ أثَرُه في الخَلْقِ مِن شأنِه أن يقعَ بصيغةِ الخبَرِ؛ لِمَا في الخبَرِ مِن قصْدِ إعلامِ السَّامعِ بما يُضمِرُه المتكلِّمُ، وقال: ﴿أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا﴾، ولم يَقُل: (وأُشْهِدُكم) لِيَكون مُوازِنًا له وبمعناه؛ لأنَّ إشهادَه اللهَ على البراءةِ مِن الشِّركِ صحيحٌ ثابتٌ، وأمَّا إشهادُهم فما هو إلَّا تَهاوُنٌ بدِينِهم، ودَلالةٌ على قِلَّةِ المبالاةِ بهم؛ ولذلك عدَل به عن لَفْظِ الأوَّلِ؛ لاخْتِلافِ ما بَينَهما، وجيءَ به على

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٧).

لفْظِ الأمْرِ؛ تَهكُّمًا بهم واستِهانَةً بحالِهم؛ هذا مِن جِهَةٍ، ومِن جهةٍ ثانيةٍ: عدَل إلى صيغةِ الأمرِ ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ عن صيغةِ الخبَرِ؛ للتَّمييزِ بينَ خِطابِه اللهَ تعالى وخِطابِه إيَّاهم؛ بأن يُعبِّرَ عن خِطابِ اللهِ تعالى بصيغةِ الخبَرِ الَّتي هي أجَلُّ وأشرَفُ وأوقَرُ للمُخاطَبِ مِن صِيغةِ الأمرِ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾

- الفاءُ في ﴿فَكِيدُونِي﴾؛ لِتَفْريعِ الأمْرِ على زَعْمِهم في قدرةِ آلِهتِهم على ما قالوا، وعلى البراءةِ كِلَيهِما[2]، والأمرُ بـ (كِيدُونِي) مُستعمَلٌ في الإباحةِ؛ كِنايةً عن التَّعجيزِ بالنِّسبةِ للأصنامِ وبالنِّسبةِ لقومِه، وجَعَل الخطابَ لقومِه؛ لِئَلَّا يكونَ خِطابُه لِمَا لا يَعقِلُ ولا يَسمَعُ، فأمَر قومَه بأن يَكِيدوه، وأدخَلَ في ضَميرِ الكائِدين أصنامَهم؛ مُجاراةً لاعتِقادِهم، واستِقْصاءً لِتَعجيزِهم.

و(ثُمَّ) في ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ تَحدَّاهم بأن يَكِيدوه، ثمَّ ارتَقى في رُتبَةِ التَّعجيزِ والاحتقارِ، فنَهاهم عن التَّأخيرِ بكَيدِهم إيَّاه، وذلك نِهايةُ الاستِخْفافِ بأصنامِهم وبهم، وكنايةٌ عن كَونِهم لا يَصِلون إلى ذلك[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ تعليلٌ لمضمونِ ﴿فَكِيدُونِي﴾، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٨)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لمحمود صافي (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٠).

للتَّعجيزِ والاحتقارِ[١]، وإنَّما جِيءَ بلفظِ الماضي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾؛ لِكَونِه أدَلَّ على الإنشاءِ المناسِبِ للمقامِ[٢].

- قولُه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ الأخْذُ بالنَّاصيةِ هنا تَمثيلٌ للتَّمكُّنِ، تَشْبيهًا بهيئةِ إمساكِ الإنسانِ مِن ناصيتِه حيث يَكونُ رأسُه بيَدِ آخِذِه فلا يَستَطيعُ إفلاتًا، وإنَّما كان تَمثيلًا؛ لأنَّ دوابَّ كثيرةً لا نَواصِيَ لها، فلا يَلتَئِمُ الأخْذُ بالنَّاصيةِ مع عُموم ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾، ولكنَّه لَمَّا صار مثَلًا صار بِمَنزلةِ: ما مِن دابَّةٍ إلَّا هو مُتصرِّفٌ فيها، ومِن بَديعِ هذا المثَلِ أنَّه أشَدُّ اختِصاصًا بالنَّوعِ المقصودِ مِن بينِ عُمومِ الدَّوابِّ، وهو نوعُ الإنسانِ، والمقصودُ مِن ذلك أنَّه المالِكُ القاهِرُ لِجَميعِ ما يَدِبُّ على الأرضِ؛ فكونُه مالِكًا للكُلِّ يَقتَضي ألَّا يَفوتَه أحَدٌ منهم، وكونُه قاهِرًا لهم يَقتَضي ألَّا يُعجِزَه أحَدٌ منهم[٣].

- قولُه: ﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ فيه تخصيصُ النَّاصيةِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ العرَبَ إذا وصَفَتْ إنسانًا بالذِّلَّةِ والخُضوعِ قالت: ما ناصِيَةُ فُلانٍ إلَّا بيَدِ فُلانٍ، أي: إنَّه مُطيعٌ له، يصرِفُه كيف يَشاءُ[٤].

- وجملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تعليلٌ لِجُملةِ ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: توكَّلتُ عليه؛ لأنَّه أهلٌ لِتَوكُّلي عليه، لأنَّه متَّصِفٌ بإجراءِ أفعالِه على طريقِ العَدْلِ والتَّأييدِ لرُسلِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٠-١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٨- ١٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠١).

٨- قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ جُعل جوابُ شرطِ التَّولِّي قولَه: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾، مع أنَّ الإبلاغَ سابقٌ على التَّولِّي المجعولِ شَرطًا؛ لأنَّ المقصودَ بهذا الجوابِ هو لازمُ ذلك الإبلاغِ، وهو انتِفاءُ تَبِعَةِ تولِّيهم عنه، وبَراءتُه مِن جُرْمِهم؛ لأنَّه أدَّى ما وجَب عليه مِن الإبلاغِ[1].

- و﴿شَيْـًٔا﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ للفعلِ ﴿تَضُرُّونَهُۥ﴾ المنفيِّ، وتنكيرُه للتَّقليلِ، والمقصودُ مِن التَّأكيدِ: التَّنصيصُ على العُمومِ بنَفْيِ الضُّرِّ؛ لأنَّه نكِرةٌ في حيِّزِ النَّفْيِ، أي: فاللهُ يُلْحِقُ بكم الاستِئْصالَ، وهو أعظَمُ الضُّرِّ، ولا تَضُرُّونه أقلَّ ضُرٍّ[2].

- وجملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ تعليلٌ لِجُملةِ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾؛ فموقِعُ (إنَّ) فيها موقِعُ فاءِ التَّفريعِ[3].

- ولما كان الأهمُّ في هذا السياقِ بيانَ استعلائِه تعالى وقدرتِه، قدَّم قولَه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الأمرُ هنا كِنايةٌ عن العذابِ، أو عن القضاءِ بهَلاكِهم[5].

- وفي قولِه: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٠).

تكرَّرَت التَّنْجيَةُ على سَبيلِ التَّوكيدِ، ولِقَلَقِ (مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لوْ لاصَقَتْ (مِنَّا) في ﴿بِرَحۡمَةٍ مِّنَّا﴾- حيثُ يكون: (بِرَحْمَةٍ مِنَّا مِنْ عَذابٍ غَليظٍ)-؛ فأُعيدَت التَّنجيةُ، وهي التَّنجيةُ الأُولى؛ فمَعْنى التَّكريرِ أنَّه سبحانه ذكَر أوَّلًا أنَّه حينَ أهْلَك عدُوَّهم نَجَّاهم، ثمَّ قال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، على معنى: وكانتِ التَّنْجيةُ مِن عذابٍ غليظٍ. أو تكونُ هذه التَّنْجيةُ هي مِن عذابِ الآخرةِ، ولا عذابَ أغلَظُ منه؛ فأُعيدَتْ لأجلِ اختِلافِ مُتعلِّقَيها[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في قصَّةِ هودٍ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، وقال في قصَّةِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٤]؛ فعُطِفَت (لَمَّا) على ما قَبْلَها بواوِ العَطْفِ في هذَينِ الموضِعَين، وخالَفَت قصَّةُ صالحٍ وقصَّةُ لوطٍ عليهما السَّلامُ في الحرفِ المعطوفِ به هذه الجملةُ المصدَّرةُ بحرفِ الوجوبِ؛ فقيل في قصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦]، وفي قصَّةِ لوطٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، بعَطْفِ لَمَّا على ما قَبْلَها مِن هاتَين الآيتَين بفاءِ التَّعقيبِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ العذابَ في قصَّةِ هودٍ وشُعيبٍ تأخَّر عن وقْتِ الوعيدِ، فإنَّ في قصَّةِ هودٍ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [هود: ٥٧]، وفي قصَّةِ شُعيبٍ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣]، والتَّخويفُ قارَنَه التَّسويفُ، فجاء بالواوِ. وفي قصَّةِ صالحٍ ولوطٍ وقَع العذابُ عَقِيبَ الوعيدِ؛ فإنَّ في قصَّةِ صالحٍ ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ [هود: ٦٥]، وفي قصَّةِ لوطٍ ﴿أَلَيۡسَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٠).

ﱡﭐ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﱠ [هود: ٨١]؛ فجاء الفاءُ للتَّعجيلِ والتَّعقيبِ[١].

وفيه وجهٍ آخَرَ: أنَّ آيَتَيْ صالِحٍ ولوطٍ ورَد فيهما ما يَقتَضي مَعْناه أن يَربِطَ بالفاءِ المقتَضِيَةِ التَّعقيبَ، أمَّا قصَّةُ صالِحٍ منهُما فتَقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ ﴾ [هود: ٦٥]، فكأنْ قد قيل: فلمَّا انقضَتْ، فالموضوعُ للفاءِ لمقصودِ التَّعقيبِ، ومِثلُ هذا مِن غيرِ فَرْقٍ قولُه تعالى في قصَّةِ لوطٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ ﴾ [هود: ٨١]، ولا شَكَّ أنَّ المعنى يَستَدْعي تَقْديرَ (فلَمَّا أصبَح)؛ تَحقيقًا لِصِدْقِ الوعيدِ، وإعقابًا لا يَتحصَّلُ بغيرِ الفاءِ؛ فهذا يوجِبُ خُصوصَ الفاءِ بهَذَينِ الموضِعَين. وأمَّا قصَّةُ هودٍ عليه السَّلامُ، فلم يَرِدْ فيها ما يَسْتَدعي تَعْقيبًا، بل قَبْلَها ما يَقتَضي أن يُنسَّقَ ما بعدَه عليه بواوِ العطفِ، وذلك قولُه تعالى مُخبِرًا عن قومِ هودٍ: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔا ﴾ [هود: ٥٧]، ثمَّ قال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ [هود: ٥٨]، فعطَف هذه الجُمَلَ بَعْضَها على بعضٍ بما يُعْطي ذلك، ويُناسِبُ العطفُ بالواوِ، وعلى هذا ورَدَت آيةُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ؛ فورَد قبلَها: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ [هود: ٩٣]، ثمَّ بعْدَ ذلك: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾ [هود: ٩٣]، وليس هذا ما يَقْتَضي تَعقيبًا، بل بابُه حَمْلُ الآياتِ بعضِها على بعضٍ بحَرْفِ التَّشْريكِ وهو الواوُ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[٢].

١٠- قولُه تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾

- جملةُ ﴿جَحَدُواْ ﴾ وما بعْدَها تمهيدٌ للمَعطوفِ، وهو ﴿ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [هود: ٦٠]؛ لزيادةِ تَسْجيلِ التَّمهيدِ بالأَجْرامِ السَّابقةِ، وهو الَّذي اقتَضاه اسمُ الإشارةِ؛ لأنَّ جميعَ ذلك مِن أسبابِ جَمْعِ العَذابَينِ لهم[١].

- وجمَعَ الرُّسُلَ في قولِه: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾، وإنَّما عَصَوْا رَسولًا واحدًا، وهو هودٌ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ المرادَ ذِكْرُ إجرامِهم؛ فناسَب أن يُناطَ الجُرْمُ بعِصْيانِ جِنْسِ الرُّسلِ؛ لأنَّ تَكْذيبَهم هودًا لم يَكُنْ خاصًّا بشَخْصِه؛ لأنَّهم قالوا له: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾؛ فكلُّ رسولٍ جاء بأمرِ ترْكِ عبادةِ الأصنامِ فهُم مُكذِّبون به. ومِثْلُه قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[٢] [الشعراء: ١٢٣].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾

- قولُه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾، أي: أصابتهم إصابةً عاجِلةً دونَ تأخيرٍ كما يُتْبَعُ الماشي بمَن يَلْحَقُه، وعُبِّر عن ذلك بالتَّبعِيَّةِ للمُبالَغةِ؛ فكأنَّها لا تُفارِقُهم وإن ذهَبوا كلَّ مذهَبٍ، بل تَدورُ معَهم حيثُما داروا، مع ما في ذلك مِن المشارَكةِ ومِن مُماثَلةِ العقابِ للجُرْمِ؛ لأنَّهم اتَّبَعوا الملعونينَ فأُتْبِعُوا باللَّعنةِ؛ جَزاءً لِصَنيعِهم جَزاءً وِفاقًا[٣].

- وبُني فِعْلُ (أُتْبِعُوا) للمفعولِ؛ إذ لا غرَضَ في بيانِ الفاعلِ، ولم يُسنَدِ الفعلُ إلى اللَّعنةِ؛ لِيَدُلَّ على أنَّ إتْباعَها لهم كان بأمرِ فاعلٍ؛ للإشعارِ بأنَّها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٦).

تَبِعَتْهم عِقابًا مِن اللهِ لا مُجرَّدَ مُصادَفةٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ قَرَنَ ﴿الدُّنْيَا﴾ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾؛ لِقَصْدِ تَهْوينِ أمْرِها بالنِّسبةِ إلى لَعْنةِ الآخِرَةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: أُتبِعوا يومَ القيامةِ أيضًا لعنةً، وحُذِفَت لِدَلالةِ الأُولى عليها، وللإيذانِ بكَوْنِ كلٍّ مِن اللَّعنتَين نوعًا برأسِه، لم تُجمَعا في قَرَنٍ واحدٍ؛ بأن يُقالَ: (وأُتبعوا في هذه الدُّنيا ويومَ القيامةِ لَعنةً)، كما في قولِه تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ إيذانًا باختِلافِ نوعَيِ الحسَنَتينِ؛ فإنَّ المرادَ بالحسنةِ الدُّنيَويَّةِ نحْوُ الصِّحَّةِ والكَفافِ والتَّوفيقِ للخيرِ، وبالحسنةِ الأُخرَويَّةِ الثَّوابُ والرَّحمةُ[٣].

- وجملةُ ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، افتُتِحَت بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ لِتَهويلِ الخبَرِ، وأُكِّدَت بحرفِ (إنَّ)؛ لإفادةِ التَّعليلِ بجُملَةِ ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ تعريضًا بالمشرِكين؛ لِيَعتَبِروا بما أصاب عادًا[٤].

- ونبَّه على علَّةِ إتْباعِ اللَّعنةِ لهم في الدَّارَين بأنَّهم ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾؛ فالكفرُ هو الموجِبُ للَّعنةِ[٥].

- قولُه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ جملةٌ ابتدائيَّةٌ؛ لإنشاءِ ذمٍّ لهم[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٧).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ تكريرُ حرْفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾ وإعادةُ (عَادٍ) في الدُّعاءِ عليهم؛ تَهْويلًا لأمرِهم، وتَفْظيعًا له، وبَعْثًا على الاعتِبارِ بهم، والحذَرِ مِن مِثلِ حالِهم، والحثِّ على الاعتبارِ بقِصَّتِهم(١).

- و﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطفُ بيانٍ لـ(عَادٍ)، وفائدةُ هذا البيانِ- مع أنَّ البيانَ حاصِلٌ بدونِه-: أنْ يُوسَموا بهذه الدَّعْوةِ وَسْمًا، وتُجعَلَ فيهم أمرًا مُحقَّقًا لا شُبهَةَ فيه بوَجْهٍ مِن الوجوهِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ له أثرًا في الذَّمِّ بإعراضِهم عن طاعةِ رسولِهم، والإيماءُ إلى أنَّ استِحْقاقَهم للبُعْدِ بسبَبِ ما جرَى بينَهم وبينَ هودٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهم قومُه؛ فيكونُ تَعريضًا بالمشرِكين من العرَبِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في قصَّةِ سورةِ (هودٍ) عليه السَّلامُ وذِكْرِ قومِه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، وقال في قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ، وإرسالِه إلى فرعونَ وملَئِه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]؛ فحَذَف (الدُّنيا) مِن الآيةِ الثَّانيةِ، وأثبَتَها في الأولى، ووجهُ ذلك: أنَّ قِصَّةَ هودٍ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ أكثَرُ استيفاءً مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ بكَثيرٍ؛ فناسَب الطُّولُ الطُّولَ، والإيجازُ الإيجازَ، ولا يَليقُ العَكْسُ؛ فالوارِدُ عليه كلٌّ مِن الآيتَينِ لا يَحسُنُ خِلافُه ولا يُناسِبُ(٣).

وقيل: وجهُ ذلك أنَّ الأُولى أتى فيها بالموصوفِ والصِّفةِ جَميعًا، وهو الأصلُ الأوَّلُ، ثمَّ اكتَفى بالصِّفةِ عن الموصوفِ بعْدَه؛ لقيامِ الدَّلالةِ على الموصوفِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٨).

فيَجوزُ لذلك حَذْفُه، وإقامةُ الصِّفةِ مَقامَه، ولَمَّا جاءَتِ الآيَتان في سورةٍ واحدةٍ وُفِّيَت الأُولى ما هو بها أَوْلى مِن الإجراءِ على الأصلِ، والإتيانِ بالموصوفِ والوصفِ، فقال تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، واكتَفى في الثَّانيةِ لَمَّا قامَتِ الدَّلالةُ على الموصوفِ بالصِّفةِ وحْدَها، فقال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةً﴾؛ فورَد الأوَّلُ على الأصلِ مِن الجمْعِ بينَ التَّابعِ نَعْتًا أو عَطْفَ بيانٍ وبينَ مَتْبوعِه، وجاء في قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةً﴾ على حَذْفِ الوصفِ؛ للاكتفاءِ باسْمِ الإشارةِ، وكلٌّ فَصيحٌ، فجيءَ بما هو في الأصلِ أوَّلًا، ثمَّ جيءَ ثانيًا بما هو ثانٍ عنه على ما يَنبَغي، ولا يَحسُنُ العكسُ؛ لأنَّ ذلك شِبْهُ التَّفسيرِ، وبابُه أن يَتقدَّمَ[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٥٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٨).

الآيات (٦١-٦٨)

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾
قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾
وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ
ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ
إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أي: جعَلَكم عُمَّارَها، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زَمانٍ[1].

﴿مَرْجُوًّا﴾: أي: نُؤَمِّلُ فيك أن تكونَ لنا سَيِّدًا، وأصلُ (رجا): يدُلُّ على الأمَلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣).

﴿مُرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والريبةُ: التهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قسمٌ مِن الشكِّ، والريبةُ: قَلَقُ النَّفسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[(١)].

﴿تَخۡسِيرٖ﴾: أي: نقصانٍ، أو: هلكةٍ، أو: تضليلٍ وإبعادٍ مِن الخيرِ، وأصل (خسر): يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ[(٢)].

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي: فنَحَروها، وأصلُ (عقر): يدلُّ على جَرْحٍ[(٣)].

﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: المرَّةُ من الصَّوتِ الشَّديدِ، وهي صاعِقةُ العذابِ، وأصلُ (صيح): يدلُّ على الصَّوتِ العالي[(٤)].

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: خامِدينَ، لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم ووُجوهِهم، وأصلُ (جثم): يدُلُّ على تجمُّعِ شَيءٍ[(٥)].

﴿يَغۡنَوۡاْ﴾: أي: يَعيشوا، أو يُقيموا، وغَنِيَ القومُ في دارِهم: أقاموا، كأنَّهم استغنَوْا بها، وأَصْلُ (غني): يدُلُّ على الكِفايةِ، والاسْتغناءِ عن الغَيرِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٠)، ((تفسير المنار)) لرشيد رضا (١٢/ ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)،

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسلَ إلى ثمودَ أخاهم صالحًا، فقال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم من إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلَّ وعلا، فأخلِصوا له العبادةَ، هو الذي بدأ خَلقَكم من الأرضِ بخَلقِ أبيكم آدمَ منها، وجعَلَكم عُمَّارًا لها، فاسألوه أن يغفِرَ لكم ذُنوبَكم، وارجِعوا إليه بالتَّوبةِ النَّصوحِ؛ إنَّ ربي قريبٌ لِمَن أخلصَ، ورَغِبَ إليه في التَّوبةِ، مُجيبٌ له إذا دعاه.

فقال قومُ صالحٍ له: لقد كنَّا نرجو أن تكونَ فينا صاحبَ مكانةٍ، سيِّدًا مُطاعًا قبل هذا القَولِ الذي قُلتَه لنا، أتَنهانا أن نعبُدَ الآلهةَ التي كان يعبُدُها آباؤنا؟ وإنَّنا لفي شكٍّ مُريبٍ مِن دعوتِك لنا إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، فقال لهم: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على برهانٍ مِن اللهِ، وآتاني منه النبوَّةَ والحِكمةَ؛ فمَن الذي يدفَعُ عني عِقابَ اللهِ تعالى لو استجبتُ لكم وعصيتُه؛ فلم أبلِّغ الرِّسالةَ، وأنصحْ لكم؟ فما تزيدونَني غيرَ تَضليلٍ، وإبعادٍ عن الخيرِ، ويا قومِ هذه ناقةُ اللهِ جعَلَها لكم حُجَّةً وعلامةً تدُلُّ على صِدقي فيما أدعوكم إليه، فاترُكوها تأكُلْ في أرضِ اللهِ؛ فليس عليكم رِزقُها، ولا تمَسُّوها بسُوءٍ من عَقرٍ أو غيرِه؛ فإنَّكم إن فعلتُم ذلك يأخُذْكم من اللهِ عذابٌ قريبٌ مِن وَقتِ إيذائِكم للنَّاقة، فكذَّبوه ونَحَروا النَّاقةَ، فقال لهم صالحٌ: استمتِعوا بحياتِكم في بلَدِكم ثلاثةَ أيَّامٍ؛ فإنَّ العذابَ نازِلٌ بكم بعدَها، وذلك وَعْدٌ مِن الله غيرُ مَكذوبٍ، لا بدَّ مِن وقوعِه.

فلمَّا جاء أمرُنا بهلاكِ ثمودَ نَجَّينا صالحًا والذين آمَنوا معه من الهلاكِ برَحمةٍ مِنَّا، ونجَّيناهم مِن هوانِ ذلك اليوم وذِلَّتِه، إنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- هو القَويُّ العزيزُ، وأخذَتِ الصَّيحةُ القويَّةُ ثَمودَ الظَّالمينَ، فأصبحوا في ديارِهم موتى ساقطينَ

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

على وُجوهِهم، كأنَّهم في سرعةِ زَوالِهم وفنائِهم لم يَعيشوا فيها، ألا إنَّ ثَمودَ كفروا بربهم وجَحَدوا بآياتِه وحُجَجِه، ألا بُعْدًا لثمودَ وطردًا لهم مِن رَحمةِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ عادٍ على ما أراد سُبحانه، أتبَعَها قِصَّةَ من كانوا عَقِبَهم في الزَّمَنِ، ومِثلَهم في سُكنَى أرضِ العَرَبِ، وعبادةِ الأوثانِ(١).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى قبيلةِ ثَمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالِحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

أي: قال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يستَحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، فلا تُشرِكوا به شيئًا(٣).

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

أي: اللهُ هو الذي ابتدأَ خَلْقَكم من الأرضِ بخَلقِ أبيكم آدَمَ منها، وجعَلَكم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

قال ابن كثير: (كانوا يسكُنونَ مدائِنَ الحِجرِ بين تبوكَ والمدينةِ، وكانوا بعد عادٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

تسكُنونَها وتَعمُرونَها وتستغِلُّون خيراتِها[١].

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

أي: فاطلُبوا من اللهِ سَترَ ذُنوبِكم الماضِيةِ، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بها، ثمَّ توبوا إلى اللهِ توبةً نَصوحًا فيما تستَقبِلونَه، بالرُّجوعِ إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾.

أي: إنَّ رَبِّي قريبٌ ممَّن أطاعَه مخلِصًا له، وتابَ إليه، مُجيبٌ له إذا دعاه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾.

أي: قال قومُ صالحٍ عليه السلامُ له: يا صالِحُ قد كنَّا نرجو فيك الخيرَ، وكَمالَ العقلِ، ونُؤمِّلُ أن تكونَ فينا سيِّدًا قبل هذا القولِ الذي تدَّعي فيه النبُوَّةَ، وتَدعُونا إلى تَركِ عِبادةِ غيرِ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٠).

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

أي: أتنهانا- يا صالِحُ- أن نعبُدَ الأصنامَ التي كان يعبُدُها أسلافُنا[١]؟!

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّنا لفي شكٍّ كبيرٍ مِن صِحَّةِ ما تدعُونا إليه مِن توحيدِ اللهِ، شَكًّا يُوجِب تُهمَتَك[٢].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾.

أي: قال صالحٌ عليه الصلاةُ والسلامُ: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على بُرهانٍ من اللهِ قد عَلِمتُه وأيقَنتُه، ورَزَقني مِن عندِه النبوَّةَ والرِّسالةَ رَحمةً للخلقِ[٣].

﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾.

أي: فمَن يمنَعُني من عذابِ اللهِ إنْ عصيتُه، فتَرَكتُ دَعْوتَكم للحقِّ، وعبادةِ اللهِ وَحدَه، بعد أنْ أنعَمَ عليَّ بالنُّبوَّةِ[٤]؟!

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢).

أي: لو تابعتُكم فترَكتُ تبليغَكم رِسالةَ اللهِ وعبادتَه وَحدَه، فلن تَزيدوني غيرَ الخَسارةِ والضَّرَرِ والتَّضليلِ، والإبعادِ مِن الخَيرِ(١).

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ العادةَ فيمن يدَّعي النبوَّةَ عند قومٍ يَعبُدونَ الأصنامَ أن يبتدئَ بالدَّعوةِ إلى عبادةِ اللهِ، ثمَّ يُتبِعَه بدَعوى النبوَّةِ، لا بدَّ أن يَطلُبوا منه المعجزةَ، وأمرُ صالحٍ عليه السَّلامُ هكذا كان(٢).

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾.

أي: ويا قَومِ هذه ناقةُ اللهِ حُجَّةً وعلامةً ودَلالةً لكم على صِدقِ نبوَّتي، وصِحَّةِ ما أدعوكم إليه(٣).

﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فاترُكوا هذه النَّاقةَ تأكُلْ ممَّا شاءت في أرضِ اللهِ؛ فليس عليكم رِزقُها ولا مُؤنَتُها(٤).

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

أي: ولا تَنالوا النَّاقةَ بشَيءٍ مِن الأذى -مِن عَقرٍ أو غيرِه- فيُصيبَكم كلَّكم عذابٌ قريبُ النُّزولِ، عَاجِلٌ لَا يَتَأَخَّرُ عن إيذائِكم للنَّاقةِ[1].

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾.

أي: فقتل الكُفَّارُ النَّاقةَ، فقال لهم نبيُّهم صالحٌ: استمتِعوا بالحياةِ والعَيشِ في دارِكم[2] ثلاثةَ أيَّامٍ قبل نزولِ العذابِ بكم[3].

﴿ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾.

أي: نُزولُ العَذابِ بكم بعدَ ثلاثةِ أيَّامٍ وعدٌ صادِقٌ، لا بدَّ مِن وُقوعِه[4].

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾.

أي: فلمَّا جاء عذابُنا نجَّينا صالحًا والمؤمنينَ معه بنعمةٍ وفَضلٍ منَّا عليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٠٣).

(٢) قيل: المرادُ: في دارِ الدُّنيا. وممن اختاره: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦).
وقيل: المرادُ: في بلَدِكم. وممن اختاره: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٣).
وقيل: في منازِلِكم. وممن اختاره: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

ونجَّيناهم من هوانِ ذلك اليومِ وذُلِّ عذابِه الذي أصاب الكافرينَ[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك- يا مُحمَّدُ- هو القويُّ في بَطشِه، القادِرُ على إنجاءِ المُؤمِنينَ، وإهلاكِ الكافرينَ، العزيزُ القاهِرُ الذي لا يَغلِبُه شَيءٌ[٢].

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بيَّن تعالى إيقاعَه بأعدائِه بعد إنجائِه لأوليائِه، فقال[٣]:

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

أي: وأصاب الذين ظَلموا أنفُسَهم بالكُفرِ، وعَقرِ النَّاقةِ، الصيحةُ العَظيمةُ[٤].

﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: فصار الكُفَّارُ في ديارِهم ساقطينَ على ركبِهم ووُجوهِهم، موتَى خامِدينَ[٥].

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ٦٨﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢)، (٩/ ٦٢).

أي: كأنَّ الكفَّارَ لَمَّا جاءهم العذابُ لم يعيشُوا في ديارِهم، ولم يتمتَّعوا فيها[١].

ثمَّ نبَّه على ما استحَقُّوا به ذلك بقَولِه[٢]:

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾.

أي: ألَا إنَّ ثمودَ- قومَ صالحٍ- كفروا بربِّهم، وجَحَدوا وحدانيتَه، وكَفَروا بآياتِه[٣].

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

أي: ألا أبعدَ اللهُ ثمودَ عن كلِّ خَيرٍ وأهلَكَهم[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ يُريدُ عِمارةَ الأرضِ، لا التخلِّيَ والتبتُّلَ[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قُربَه سُبحانه مَقرونٌ بالتَّوبةِ والاستغفارِ، وأراد به: قريبٌ مُجِيْبٌ لاستغفارِ المُستَغفرينَ التَّائبينَ إليه، وقد قُرِنَ القريبُ بالمُجيبِ؛ ومعلومٌ أنَّه لا يُقالُ: إنه مُجِيْبٌ لكلِّ موجودٍ، وإنَّما الإجابةُ لِمَن سألَه ودعاه؛ فكذلك قُربُه سُبحانه وتعالى[٦]، فهو سبحانه قريبٌ ممَّن دعاه دعاءَ مَسألةٍ، أو دعاءَ عبادةٍ، يُجيبُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٦٠)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٦٦٧).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٩٣).

بإعطائِه سُؤلَه، وقَبولِ عِبادتِه، وإثابتِه عليها أجلَّ الثَّوابِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قربُ الله تعالى نوعانِ: عامٌّ، وخاصٌّ، فالقربُ العامُّ: قربُه بعلمِه مِن جميعِ الخلقِ، والقربُ الخاصُّ: قربُه مِن عابديه، وسائليه، ومحبِّيه، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وهذا النوعُ قربٌ يقتضي إلطافَه تعالى، وإجابتَه لدعواتِهم، وتحقيقَه لمراداتِهم، ولهذا يقرنُ باسمِه (القريبِ) اسمَه (المجيبَ)[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نُسِبَ إلى جميعِهم -وإن كان العاقِرُ واحدًا- لأنَّه كان بِرِضًا منهم وتَمالُؤٍ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ عبَّر عن الحياةِ بالتمتعِ؛ لأنَّ التمتُّعَ لا يحصُلُ إلَّا للحَيِّ، فالحيُّ يكونُ متمتعًا بالحواسِّ[٤].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ استُدِلَّ به في إمهالِ الخَصمِ ونَحوِه ثلاثةً، وفيه دليلٌ على أنَّ للثَّلاثةِ نَظرًا في الشَّرعِ؛ ولهذا شُرِعَت في الخِيارِ ونَحوِه[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ بيَّن أنَّ إحسانَه سُبحانَه لا يكونُ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٩).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

فَضلًا منه[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ مُتعلِّقٌ ﴿نَجَّيۡنَا﴾ مَحذوفٌ، وعُطِف ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ على مُتعلِّقِ ﴿نَجَّيۡنَا﴾ المحذوفِ، أي: نجَّينا صالِحًا عليه السَّلامُ ومَن معَه مِن عذابِ الاستئصالِ، ومِن الخزْيِ المكيَّفِ به العذابُ؛ فإنَّ العذابَ يكونُ على كَيفيَّاتٍ، بعضُها أخزَى مِن بعضٍ؛ فالمقصودُ مِن العطفِ عطفُ مِنَّةٍ على مِنَّةٍ، لا عطْفُ إنجاءٍ على إنجاءٍ؛ ولذلك عطَفَ المتعلِّقَ، ولم يَعطِفِ الفِعلَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ في موضِعِ التَّعليلِ للأمْرِ بعبادةِ اللهِ، ونَفْيِ إلهيَّةِ غيرِه في قولِه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾، وكأنَّهم كانوا مِثْلَ مُشرِكي قُريشٍ، لا يَدَّعُون لأصنامِهم خَلْقًا ولا رِزْقًا؛ فلذلك كانت الحُجَّةُ عليهم ناهِضةً واضحةً[٣].

- وَفرَّعَ على التَّذْكيرِ بهذه النِّعَمِ أَمْرَهم باستغفارِه وَالتَّوْبَةِ إليه، أَيْ طَلَبَ مغْفِرَةِ إجرامِهم، والإقلاعِ عمَّا لا يرضاه مِنَ الشِّرْكِ والفسادِ. ومِن تفنُّنِ الأسلوبِ أنْ جُعلت هذه النعم علةً لأمرِهم بعبادةِ اللَّهِ وَحْدَه بطريقِ جملةِ التَّعليلِ، وَجُعِلَتْ عِلَّةً أيضًا للأمرِ بالاستغفارِ والتَّوبةِ بطريقِ التَّفْريعِ[٤].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٨).

- وجعَلَ الخبَرينِ عن الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾ فِعْلَين (أَنْشَأَكُمْ- اسْتَعْمَرَكُمْ)؛ لإفادةِ القَصْرِ، أي: لم يُنشِئْكم مِن الأرضِ إلَّا هو، ولم يَستعمِرْكم فيها غيرُه[(١)].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّهم استعظَموا أن يَكونَ جُرْمُهم ممَّا يَقبَلُ الاستغفارَ عنه، فأُجيبوا بأنَّ اللهَ قريبٌ مُجيبٌ، وبذلك ظهَر أنَّ الجملةَ ليسَت بتَعليلٍ، وحرفُ (إنَّ) فيها للتَّأكيدِ؛ تَنْزيلًا لهم في تَعْظيمِ جُرمِهم منزِلةَ مَن يَشُكُّ في قَبولِ استغفارِه[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بالنِّداءِ؛ لِقَصْدِ التَّوبيخِ، وهو مُستَفادٌ مِن قولِهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾؛ فإنَّه تَعريضٌ بخَيبةِ رَجائِهم فيه؛ فهو تَعْنيفٌ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مَرْجُوًّا﴾ لِدَلالةِ فِعْلِ الرَّجاءِ على أنَّه ترقُّبُ الخيرِ، أي: مرجُوًّا للخيرِ[(٣)].

- وجملةُ ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ بيانٌ لجُملَةِ ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ باعتِبارِ دَلالتِها على التَّعنيفِ، والاستفهامُ فيها: للإنكارِ والتَّوبيخِ[(٤)].

- قولُهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فيه العُدولُ إلى صيغةِ المضارِعِ ﴿يَعْبُدُ﴾ لِحكايةِ الحالِ الماضيةِ، كأنَّ آباءَهم مَوجودُونَ؛ فلا تُمكِنُ مُخالفتُهم؛ إجلالًا لهم[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢١).

- وفي قولِهم: ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ عَبَّروا عن أصنامِهم بالموصولِ ﴿مَا﴾؛ لِمَا في الصِّلَةِ ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ مِن الدَّلالةِ على استِحْقاقِ تلك الأصنامِ أن يَعبُدوها في زَعْمِهم اقتِداءً بآبائِهم؛ لأنَّهم أُسْوةٌ لهم، وذلك مِمَّا يَزيدُ الإنكارَ اتِّجاهًا في اعتِقادِهم[1].

- وجملةُ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ﴾ تُفيدُ شَكَّهم في صِدْقِ أنَّه مُرسَلٌ إليهم، ولتأكيد ذلك زِيدَ حرف التَّأكيدِ (إنَّ) مع إثباتِ نونِ (إنَّ) مع نونِ ضَميرِ الجمعِ؛ زِيادةَ إظهارٍ لحَرْفِ التَّوكيدِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في قِصَّةِ صالِحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، وقال في سورةِ (إبراهيمَ) عليه السَّلامُ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [إبراهيم: ٩]. فقال في الأُولى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ﴾ على الأصلِ، و﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ﴾ بنونٍ واحدةٍ، وقال في الثَّانيةِ: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾ على التَّخفيفِ، بحذفِ إحدى النُّوناتِ وهي المتوسِّطةُ، ثمَّ جاء بعْدَه: ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾ بنونَينِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ﴿تَدۡعُونَآ﴾ في الأولى و﴿تَدۡعُونَنَآ﴾ في الثَّانيةِ لا يَصِحُّ مَكانَهما غَيرُهما؛ فلا يَجوزُ في الأولى إلَّا (نونٌ) واحدةٌ ولا يَجوزُ في الثَّانيةِ إلَّا (نونانِ) اثنَتانِ؛ لأنَّ الأولى خِطابٌ لصالِحٍ عليه السَّلامُ، و(النُّونُ) معَ (الألِفِ) ضَميرُ المتكلِّم، و(تَدْعو) فِعْلٌ واحدٌ، لا (نونَ) فيه، وليس كذلك ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾ الثَّانيةُ؛ لأنَّه خطابٌ للرُّسلِ وهم جَماعةٌ، ولا يُقالُ لهم في حالِ الجمعِ إلَّا ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عِندَ الرَّفْعِ[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي...﴾ جوابٌ عن كَلامِهم؛ فلِذلك لَم تُعطَفْ جملةُ ﴿قَالَ﴾، وهو الشَّأنُ في حكايةِ المُحاوَراتِ، وابتداءُ الجوابِ بالنِّداءِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ لِقَصدِ التَّنبيهِ إلى ما سيَقولُه اهتِمامًا بشأنِه[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ صَدَّر كلامَه بالحرْفِ المفيدِ للشَّكِّ ﴿إِن﴾ مع أنَّ هذه الأمورَ محقَّقةُ الوُقوعِ؛ اعتبارًا لحالِ المخاطَبين، ورِعايةً لِحُسنِ المحاوَرةِ؛ لاستِنْزالِهم عن المُكابَرةِ[(٣)]، فخِطابُ المُخالِفِ على هذا الوَجهِ أقرَبُ إلى القَبولِ[(٤)].

- قولُه: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ فيه العدولُ إلى الإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ -حيث لَم يَقُلْ: (فمَنْ يَنصُرُني منه)-؛ لِزيادةِ التَّهويلِ، والفاءُ لِتَرتيبِ إنكارِ النُّصرةِ على ما سبَق مِن إيتاءِ النُّبوَّةِ، وكونِه على بيِّنةٍ مِن رَبِّه على تقديرِ العِصْيانِ[(٥)].

- وفي قولِه: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قدَّم الجارَّ والمجرورَ ﴿مِنۡهُ﴾ على المفعولِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ هنا، بينَما تأخَّر ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ عن ﴿رَحۡمَةٗ﴾

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٦٠-٧٦٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢١).

في قصَّةِ نوحٍ السَّابقةِ، ووجهُ ذلك: أنَّ ذلك معَ ما فيه مِن التَّفنُّنِ بعدَمِ الْتِزامِ طريقةٍ واحدةٍ في إعادةِ الكلامِ المتماثِلِ، هو أيضًا أسعَدُ بالبيانِ في وُضوحِ الدَّلالةِ، ودَفْعِ اللَّبْسِ؛ فلمَّا كان مجرورُ (مِن) الابتدائيَّةِ ظرْفًا وهو (عِنْدَ) كان صَريحًا في وصْفِ الرَّحمةِ بصِفَةٍ تَدُلُّ على الاعتناءِ الرَّبَّانيِّ بها وبمَن أُوتِيَها، ولَمَّا كان المجرورُ هنا ضميرَ الجلالةِ كان الأحسَنُ أن يقَعَ عَقِبَ فِعْلَ ﴿آتَانِي﴾ لِيَكونَ تَقْييدُ الإيتاءِ بأنَّه مِن اللهِ مُشيرًا إلى إيتاءٍ خاصٍّ ذي عِنايةٍ بالمؤتَى؛ إذ لولا ذلك لكان كونُه مِن اللهِ تَحصيلًا لِما أُفيدَ مِن إسنادِ الإيتاءِ إليه؛ فتَعيَّنَ أن يَكونَ المرادُ إيتاءً خاصًّا، ولو أُوقِعَ مِنه عَقِبَ ﴿رَحْمَةً﴾ لتَوهَّم السَّامِعُ أنَّ ذلك عِوَضٌ عن الإضافةِ، أي: عن أن يُقالَ: وآتاني رَحمتَه، كقولِه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١]، أي: ورَحمتَنا لهم، أي: لِنَعِظَهم ونَرحَمَهم[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الإضافةُ في ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ للتَّشريفِ، والتَّنبيهِ على أنَّها مُفارِقةٌ لِسائرِ ما يُجانِسُها من حيث الخِلْقةُ، ومِن حيثُ الطبعُ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ فيه المبالغةُ في النَّهيِ عن التَّعرُّضِ لها بما يَضُرُّها؛ حيث نَهى عن المسِّ الَّذي هو مِن مَبادِئِ الإصابةِ، ونَكَّر السُّوءَ؛ أي: لا تَضْرِبوها ولا تَطرُدوها، ولا تَقْرَبوها بشَيءٍ مِن السُّوءِ، فَضلًا عن عَقْرِها وقَتْلِها[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن ثَمودَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للإيماءِ بالموصولِ إلى عِلَّةِ تَرتُّبِ الحُكمِ، أي: لِظُلمِهم، وهو ظلمُ الشِّركِ، وفيه تعريضٌ بمُشرِكي أهْلِ مكَّةِ بالتَّحذيرِ مِن أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصاب أولئك؛ لأنَّهم ظالِمون أيضًا(١).

- وقولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ وُضِعَ موضِعَ الضَّميرِ لزيادةِ البيانِ(٢).

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ فيه التَّصريحُ بكُفْرِهم مع كَونِه مَعلومًا ممَّا سبَق مِن أحوالِهم؛ تَقْبيحًا لحالِهم، وتَعليلًا لاستِحْقاقِهم بالدُّعاءِ عليهم بالبُعْدِ والهلاكِ(٣).

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في قصَّةِ صالِحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وقال في هذه السُّورةِ في قصَّةِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]؛ فاختَلَف الفِعْلان في اتِّصالِ عَلامةِ التَّأنيثِ بأحَدِهما، وسُقوطِها مِن الآخَرِ، مع أنَّ الفاعِلَ في الموضِعَين شيءٌ واحدٌ، وهو ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مع أنَّ الحاجِزَ بين الفعلِ والفاعلِ في المكانَين حاجِزٌ واحدٌ، وهو ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وهذا إذا جاء في كلامِ العرَبِ سَهُلَ الكلامُ فيه؛ لأنَّه يُقالُ: حُمِل على المعنى، والصَّيحةُ بمعنى الصِّياحِ، إلَّا أنَّ تَخْصيصَ قصَّةِ شُعيبٍ بـ ﴿أَخَذَتِ﴾ إنَّما هو لفائدةٍ ليستْ في قِصَّةِ صالحٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليه السَّلامُ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ عن العذابِ الَّذي أهلَكَ به قومَ شُعيبٍ عليه السَّلامُ بثلاثةِ ألفاظٍ: مِنها (الرَّجْفةُ) في سورةِ الأعرافِ في قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٠ - ٩٢]، وذكَر ذلك قبْلَه في مكانٍ آخَرَ، ومنها (الصَّيحةُ) في سورةِ (هودٍ) في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]، ومنها (الظُّلَّةُ) في سورةِ الشُّعراءِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]؛ فلمَّا اجتمَعَتْ ثلاثةُ أشياءَ مُؤنَّثةِ الألفاظِ في العبارةِ عن العَذابِ الَّذي أُهلِكوا به، غُلِّب التَّأنيثُ في هذا المكانِ على المكانِ الَّذي لم تتَوالَ فيه هذه المؤنَّثاتُ؛ فلذلك جاء في قِصَّةِ شُعَيبٍ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾[1] [هود: ٩٤]. وقيل: وجهُ ذلك أنَّ التَّذكيرَ والتَّأنيثَ حَسَنانِ، لكنَّ التَّذكيرَ أخَفُّ في ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ بحذْفِ حرفٍ منه، وفي الأُخرى ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: ٩٤]، حيث وافَقَ ما بَعْدَها، وهو ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[2] [هود: ٩٥].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٦٤-٧٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (٢٦٨-٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٦).

الآيات (٦٩-٧٦)

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ
بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا
بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى
شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ
يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ
إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَنِيذٍ﴾: أي: مَشويٍّ، وأصلُ (حنذ): يدلُّ على إنضاجِ شَيءٍ[1].

﴿نَكِرَهُمْ﴾: أي: أنكَرَهم، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرفةِ[2].

﴿بَعْلِى﴾: بَعْل المرأةِ زَوجُها[3].

﴿ٱلرَّوْعُ﴾: أي: الفَزَعُ والخَوفُ، وأصلُ (روع): يدلُّ على فَزَعٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم

﴿أَوَّٰهٌ﴾: أي: كثيرُ التضرُّعِ والتأوُّهِ شَفَقًا وفَرَقًا، وأصلُها يدُلُّ على التحَزُّنِ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾

﴿سَلَٰمٗا﴾: مفعولٌ به منصوبٌ بـ﴿قَالُواْ﴾، أو مفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه: نُسَلِّمُ، وذلك الفِعلُ في محلِّ نصبٍ بالقَوْلِ، تقديرُه: قالوا: نُسَلِّمُ سلامًا. ﴿سَلَٰمٞ﴾: مبتدأٌ وخبَرُه محذوفٌ، أي: سلامٌ عليكم. أو خبَرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: أمري أو قَولي سلامٌ.

﴿أَن جَآءَ﴾: في محلِّ نَصبٍ أو جرٍّ على نَزعِ الخافِضِ، تقديرُه: فما تأخَّرَ إبراهيمُ عن أن جاء. وقيل: في محَلِّ رفعٍ فاعِلُ ﴿لَبِثَ﴾ والتَّقديرُ: فما لَبِثَ مجيئُه، أي: ما أبطأَ ولا تأخَّرَ مجيئُه بعِجلٍ[(٢)].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى أنَّه قد جاءت الملائكةُ إبراهيمَ يُبَشِّرونَه هو وزوجَه سارَةَ بإسحاقَ، ويعقوبَ مِن بَعدِه، قالوا: سلامًا، فقال ردًّا على تحيَّتِهم: سلامٌ، فذهبَ سريعًا، وجاءَهم بعِجلٍ مَشويٍّ ليأكلوا منه، فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه السَّلامُ أيديَهم لا تَصِلُ إلى العِجلِ الذي أتاهم به، ولا يأكلونَ منه، أنكرَ ذلك منهم، وأحسَّ في نفسِه خيفةً وأضمَرَها، فقالت الملائكةُ لَمَّا رأت ما بإبراهيمَ مِن الخَوفِ: لا تَخَفْ؛ إنَّا ملائكةُ رَبِّك أُرسِلْنا إلى قومِ لُوطٍ لإهلاكِهم، وامرأةُ إبراهيمَ سارَّةُ كانت

(ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٦٨- ٣٦٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٠٥-٧٠٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٥١-٣٥٣).

قائمةً مِن وراءِ السِّترِ تَسمعُ الكلامَ، فضَحِكَت تعجُّبًا ممَّا سَمِعَت، فبَشَّرْناها على ألسِنةِ الملائكةِ بأنَّها ستلِدُ مِن زوجِها إبراهيمَ ولدًا يُسمَّى إسحاقَ، وسيعيشُ ولَدُها، وسيكونُ لها بعد إسحاقَ حفيدٌ منه، وهو يعقوبُ، عليهم السَّلامُ.

قالت سارَةُ لَمَّا بُشِّرَت بإسحاقَ مُتعجِّبةً: يا ويلتا، كيف يكونُ لي ولدٌ وأنا عجوزٌ، وهذا زوجي في حالِ الشَّيخوخةِ والكِبَرِ؟! إنَّ إنجابَ الولَدِ مِن مِثلي ومِثلِ زَوجي مع كِبَرِ السِّنِّ لَشيءٌ عجيبٌ، فقالت الرسُلُ لها: أتعجَبينَ مِن أمرِ اللهِ وقضائِه؟ رحمةُ اللهِ وبَركاتُه عليكم معشرَ أهلِ بيتِ النبُوَّةِ؛ إنَّه سبحانه وتعالى حميدُ الصِّفاتِ والأفعالِ، ذو مَجدٍ وعظمةٍ فيها. فلمَّا ذهب عن إبراهيمَ الخَوفُ، وجاءته البُشرى بإسحاقَ ويعقوبَ؛ أخذ يجادِلُ رُسُلَنا فيما أرسَلْناهم به من عقابِ قَومِ لوطٍ وإهلاكِهم؛ إنَّ إبراهيمَ كثيرُ الحِلمِ لا يحِبُّ المُعاجَلة بالعِقابِ، كثيرُ التضَرُّعِ إلى اللهِ والدُّعاءِ له، رجَّاعٌ إلى اللهِ في أمورِه كُلِّها. فقالت الملائكةُ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ: يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا الجِدالِ في أمرِ قَومِ لوطٍ، والتِماسِ الرَّحمةِ لهم؛ فإنه قد حَقَّ عليهم العذابُ، وجاء أمرُ رَبِّك الذي قدَّرَه عليهم بهلاكِهم، وإنَّهم نازِلٌ بهم عذابٌ مِن اللهِ، غيرُ مصروفٍ عنهم ولا مَدفوعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا انقَضَت القِصَّةُ السَّابقةُ على هذا الوجهِ الرَّائعِ، أتبَعَها قصةَ لوطٍ عليه السَّلامُ؛ إذ كانت أشهرَ الوقائعِ بعدَها، وقَدَّمَ عليها ما يتعلَّقُ بها مِن أمرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وذِكرِ بُشراه؛ لِما في ذلك كلِّه مِن التَّنبيهِ لِمن تعنَّتَ بطَلبِ إنزالِ الملائكةِ في قَولِهم: ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾ [هود: ١٢]، هذا مع ما في ذلك مِن

مُناسبةِ أمرِ هذا الولَدِ لأمرِ النَّاقةِ، في تكوينِ كُلٍّ منهما بخارِقٍ للعادةِ؛ إشارةً إلى تمامِ القُدرةِ وكَمالِ العِلمِ المبنيِّ عليه أمرُ السُّورةِ في إحكامِ الكِتابِ وتَفصيلِه، وتَناسُب جِدالَي نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ؛ فكلٌّ منهما كان مُشفِقًا على الكافرينَ، يرجو نجاتَهم من العذابِ[1].

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾.

أي: ولقد جاءت رسُلُنا مِن الملائكةِ نبيَّنا إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالبِشارةِ بالولَدِ[2].

﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾.

أي: سلَّمَ الملائكةُ على إبراهيمَ سَلامًا، فقال إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم: سلامٌ عليكم[3].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٥].

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

أي: فما تأخَّرَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن المجيءِ مِن بَيتِه بعِجلٍ مَشويٍّ لضُيوفِه[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣).

كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦- ٢٧].

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

أي: فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيديَ ضُيوفِه لا تصِلُ إلى العِجلِ المشويِّ الذي أتاهم به، أنكَرَهم، وأضمرَ في نَفسِه خوفًا منهم[١].

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: لا تخَفْ منَّا؛ فإنَّا ملائِكةٌ أرسَلَنا اللهُ إلى قومِ لوطٍ لإهلاكِهم بالعذابِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨].

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٠، ٤٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

أي: وامرأةُ إبراهيمَ قائمةٌ[١] فضَحِكَت[٢].

﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾.

أي: فبشَّرنا امرأةَ إبراهيمَ بإسحاقَ ابنًا لها، ووَهْبنا لها مِن بعدِ إسحاقَ يعقوبَ ابنًا لابنِها[٣].

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾.

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾.

أي: قالت امرأةُ إبراهيمَ متعَجِّبةً: يا ويلتَى[٤] أيكونُ لي ولدٌ، وأنا عجوزٌ لا يلِدُ

---

(١) قال ابن جرير: (﴿قَآئِمَةٞ﴾ قيل: كانت قائمةً من وراءِ السِّترِ تستمِعُ كلامَ الرسُلِ، وكلامَ إبراهيمَ عليه السَّلام. وقيل: كانت قائمةً تخدُم الرسُلَ، وإبراهيمُ جالسٌ مع الرُّسُل). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢، ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

قيل: ضَحِكَت تعجُّبًا من غَفلةِ قَومِ لُوطٍ عمَّا قد أحاط بهم من عذابِ الله. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٨).

وممن قال بهذا القول من السلف قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٤).

وقيل: ضَحِكَت استبشارًا بهلاكِ قومِ لوطٍ؛ لكثرة فسادِهم، وغِلَظِ كُفرِهم وعنادِهم. وممَّن اختار ذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٣). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٨٦، ٣٨٧).

وقال ابنُ جزي: (واختلفوا مِن أيِّ شيءٍ ضحِكت، فقيل: سرورًا بالولدِ الذي بُشِّرت به، ففي الكلامِ على هذا تقديمٌ وتأخيرٌ، وقيل: سرورًا بالأمنِ بعدَ الخوفِ، وقيل: سرورًا بهلاكِ قومِ لوطٍ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٤).

(٤) قال ابنُ جريرٍ: (هي كلِمةٌ تقولُها العربُ عندَ التعجُّبِ مِن الشيءِ، والاستنكارِ للشَّيءِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٤).

مثلي، وهذا زوجي إبراهيمُ شَيخًا كبيرًا، لا يُولَدُ لِمِثلِه[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۞ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩- ٣٠].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

أي: قالت امرأةُ إبراهيمَ: إنَّ ولادتي وأنا وزوجي على السِّنِّ التي نحن بها، لشيءٌ غريبٌ، لم تجرِ به العادةُ[٢]!

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ٧٣﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لها: أتعجَبينَ مِن شَيءٍ قضاه الله بمشيئَتِه وقُدرتِه[٣]؟!

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

أي: رَحمةُ اللهِ وإحسانه وخَيراتُه النَّامِيةُ المُتكاثِرةُ عليكم يا أهلَ بيتِ إبراهيمَ عليه السلامُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٣ - ٤٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

قال ابن عطية: (يحتمِلُ اللَّفظُ أن يكونَ دُعاءً، وأن يكونَ إخبارًا، وكونُه إخبارًا أشرفُ؛ لأنَّ ذلك يقتضي حصولَ الرَّحمةِ والبَرَكةِ لهم، وكونُه دعاءً إنَّما يقتضي أنَّه أمرٌ يُترجَّى، ولم يتحَصَّلْ

﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ محمودٌ في جميعِ صِفاتِه وأفعالِه وأقوالِه، ذو عَظَمةٍ وسَعةٍ في صفاتِ كمالِه[١].

عن أبي حُمَيد السَّاعديِّ رَضيَ الله عنه، أنَّهم قالوا: ((يا رسولَ اللهِ كيف نصلِّي عليك؟ فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وأزواجِه وذرِّيَّتِه، كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وأزواجِه وذرِّيَّتِه، كما باركتَ على آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ))[٢].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ ﴾.

أي: فلمَّا زال عن إبراهيمَ الخَوفُ مِن رُسُلِنا حين لم يأكُلوا، وجاءَتْه البُشرى منهم بإسحاقَ فطابت نفسُه، وأعلَموه بهلاكِ قَومِ لوطٍ- أخذ يحاجِجُ الملائكةَ في إهلاكِ قَومِ لوطٍ[٣].

بعدُ. ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، واللفظ له، ومسلم (٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٦، ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

قال الواحدي: (معنى ﴿ يُجَٰدِلُنَا ﴾ يجادِلُ رسُلَنا من الملائكةِ، في قولِ جميع المفسرين). ((البسيط)) (١١/ ٤٩٠).

وقال القرطبي: (﴿ يُجَٰدِلُنَا ﴾ أي: يجادِلُ رُسُلَنا، وأضافه إلى نفسِه تعالى؛ لأنَّهم نزلوا بأمرِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٢).

وقال الشنقيطي: (حاصِلُ جِدالِه لهم أنَّه يقولُ: إن أهلكتُم القريةَ وفيها أحدٌ من المؤمنينَ، أهلكتُم ذلك المؤمِنَ بغير ذنبٍ، فأجابوه عن هذا بقولِهم: نحن أعلمُ بمَن فيها). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٨٧).

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۞ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١- ٣٢].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ لبطيءُ الغضَبِ، واسِعُ الصَّدرِ، متذلِّلٌ إلى ربِّه، كثيرُ التضَرُّعِ إليه بالدُّعاءِ، رجَّاعٌ إلى اللهِ بطاعتِه ومَعرفتِه ومحبَّتِه، ورجَّاعٌ في جميعِ أمورِه إلى اللهِ[١].

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان أكثَرُ مُجادَلةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِما عِندَه من الشَّفَقةِ على عبادِ اللهِ؛ لِما له مِن هذه الصِّفاتِ الجليلةِ- أعلَمَه اللهُ أنَّ الأمرَ قد حُسِم؛ بقَولِه حكايةً على لسانِ الرُّسُلِ[٢]:

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ لإبراهيمَ: يا إبراهيمُ، اترُكِ الجِدالَ في أمرِ قَومِ لوطٍ[٣].

﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤، ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣).

أي: إنَّه قد أتى أمرُ رَبِّك بهلاكِ قَومِ لوطٍ، فلا فائدةَ في جِدالِك عنهم[١].

﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

أي: وإنَّ قومَ لوطٍ نازِلٌ بهم عذابٌ غيرُ مَدفوعٍ عنهم، ولا مَصروفٍ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فيه مشروعيَّةُ الضِّيافةِ والمبادرة إليها، واستحبابُ مبادرةِ الضَّيفِ بالأكلِ منها[٣]. وفيه تَقديمُ ما يتيسَّرُ من الموجودِ في الحالِ، ثمَّ يُتبِعُه بغَيرِه إن كان له جِدَةٌ، ولا يتكَلَّف ما يضُرُّ به[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ وقَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ دَلالةٌ على استحبابِ بِشارةِ مَن وُلِدَ له وَلَدٌ، وتهنِئتِه[٥].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ فيه أنَّ السَّلامَ قبلَ الكلامِ[٦].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ فيه مشروعيَّةُ السَّلامِ، وأنَّه لم يزَلْ من مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٥٢٣).

(٥) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ يدلُّ على أنَّ تحيَّةَ الملائكةِ (السلام)، كتحيَّةِ بني آدمَ[١].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ فيه أنَّ ردَّ السلامِ واجبٌ، وبدأه سنةٌ، وذلك لأنَّ التعبيرَ بالمصدرِ مرفوعًا هو سبيلُ الواجباتِ، والتعبيرُ به منصوبًا هو سبيلُ المندوباتِ؛ فالجملةُ الاسميةُ أثبتُ وآكدُ مِن الجملةِ الفعليةِ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ إنَّما بَشَّروها دونَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ المرأةَ أعجَلُ فَرَحًا بالولَدِ، ولأنَّ إبراهيمَ قد بشَّروه وأمَّنوه مِن خوفِه، فأتبَعوا بِشارتَه ببشارتِها. وفيه وجه آخر: أنَّها خُصَّت بالبِشارةِ؛ حيث لم يكنْ لها ولَدٌ، وكان لإبراهيمَ عليه السَّلامُ ولَدُه إسماعيلُ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ يدلُّ على أنَّ إسماعيلَ هو الذَّبيحُ؛ لأنَّ سارَةَ حين أخدَمَها المَلِكُ الجبَّارُ هاجَرَ أُمَّ إسماعيلَ كانت شابَّةً جميلةً، فاتَّخذَ إبراهيمُ هاجرَ سُرِّيَّةً، فغارت منها سارَةُ، فخرج بها وبابنِها إسماعيلَ مِن الشَّامِ إلى مكَّة، ثمَّ كانت البِشارةُ بإسحاقَ وسارَةُ عجوزٌ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ * قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ قد

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٥١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٨٢-١٨٣).

يُستدَلُّ به على جوازِ مُراجعةِ[١] المرأةِ[٢].

٦- في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الذَّبيحَ ليس هو إسحاقَ، فكيف يأمرُ بعد ذلك بذَبحِه؛ والبشارةُ بيعقوبَ تقتضي أنَّ إسحاقَ يعيشُ ويُولدُ له يعقوبُ[٣].

٧- في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الرجُلَ يدخُلُ في أهلِ بيتِه، كما دخل إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِ الملائكةِ: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾[٤].

٨- قَوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ يُستدلُّ به على جوازِ الدُّعاءِ بالرَّحمةِ للنبيِّ[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ خِطابُ الملائكةِ إيَّاها بقَولِهم: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ دليلٌ على اندراجِ الزَّوجةِ في أهلِ البَيتِ[٦]؛ لأنَّ الملائكةَ خاطبوا سارَةَ بأهلِ البيتِ، وسَمَّوها أهلَ بيتِ إبراهيم، وفي هذا دليلٌ على أنَّ أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ بيتِه؛ تكذيبًا لِمن أنكرَ ذلك، فعائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها وغيرُها مِن جملةِ أهلِ بيتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ممَّن قال اللهُ فيهم: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[٧].

(١) والمراجعةُ هنا بمعنى رَدِّ القَولِ ومُعاوَدتِه والمُناظَرةِ فيه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٢٨٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٤-١٨٥).

(٧) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بحَرْفِ (قَدْ)؛ للاهتِمام به[1].

- وقُدِّمَت قِصَّةُ إبراهيمَ؛ لأنَّ الغرَضَ مِن هذه القِصَّةِ الموعظةُ بمَصيرِ قوم لوطٍ؛ إذ عصَوْا رسولَ ربِّهم، فحَلَّ بهم العذابُ، ولم تُغْنِ عنهم مُجادَلةُ إبراهيمَ، وللتَّنويهِ بمَقامِه عِندَ ربِّه على وجْهِ الإدماجِ؛ ولذلك غيَّر أسلوبَ الحكايةِ في القَصصِ الَّتي قبْلَها والَّتي بعدَها نحوُ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ ...﴾[2] [هود: ٥٠].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾، أسنَد إليهم مُطلَقَ المَجيءِ بالبُشْرى دونَ الإرسالِ؛ لأنَّهم لم يَكونوا مُرسَلين إليه عليه السَّلامُ، بل إلى قومِ لوطٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، وإنَّما جاؤوه لِداعيةِ البُشْرى[3].

- وجملةُ ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ في موضعِ البَيانِ للبُشْرى؛ لأنَّ قولَهم ذلك مَبدَأُ البُشْرى، وإنَّ ما اعترَض بينَها حكايةُ أحوالٍ، وقد انتَهى إليها في قولِه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦).

- والمخالَفةُ بينَ (سلامًا، وسلامٌ) في قولِه: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ردَّ السَّلامَ بعبارةٍ أحسَنَ مِن عبارةِ الرُّسلِ؛ زِيادةً في الإكرامِ؛ وذلك لأنَّ ﴿سَلَٰمٗا﴾ الَّتي هي مِن قولِ الملائكةِ: مفعولٌ مُطلَقٌ وقَع بدَلًا مِن الفِعْلِ، والتَّقديرُ: سلَّمْنا سَلامًا؛ فجُملَتُه فِعليَّةٌ، و﴿سَلَٰمٞ﴾ الَّتي هي مِن قولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: خبَرٌ لِمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: أَمْري سَلامٌ، فجملتُه اسميَّةٌ، ورَفْعُ المصدَرِ أبلَغُ مِن نَصْبِه؛ فهو أدَلُّ على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ لِكَونِ جُملَتِه اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ السَّلامِ، كأنَّه قصَد أنْ يُحيِّيَهم بأحسَنَ مِمَّا حيَّوْه به؛ أخذًا بأدَبِ اللهِ تعالى، وهذا أيضًا مِن إكْرامِه لهم؛ فحيَّا الخليلُ بأحسَنَ ممَّا حُيِّي به؛ نظَرًا إلى الأدَبِ الإلهيِّ الَّذي عَلَّمَه اللهُ عزَّ وجلَّ لنا في القرآنِ بقولِه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾[(١)] [النساء: ٨٦]، وقَولُه: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أكملُ من قولِه: (السلام)؛ لأنَّ التنكيرَ يفيدُ الكمالَ والمبالغةَ والتَّمامَ[(٢)].

وهناك وجهٌ آخرُ وهو: أنَّ النُّكتةُ في نَصْبِ سلامِ الملائكةِ، ورَفْعِ سلامِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أنَّ قولَه تعالى عن الملائكة: ﴿سَلَٰمٗا﴾ لم يُقصدْ به حكايةُ سلامِ الملائكة! وإنما هو مفعولُ القولِ المفردِ، كأنه قيل: قالوا قولًا سلامًا؛ وقالوا سدادًا وصوابًا ونحو ذلك؛ فإنَّ القولَ إنما تُحكى به الجملُ، وأمَّا المُفردُ فلا يكون محكيًّا به، بل منصوبًا به انتصابَ المفعول به، وسُمِّيَ القولُ سلامًا؛ لأنَّه يؤدِّي معنى السلام ويتضمَّنُه، مِن رَفْعِ الوَحْشَةِ، وحصولِ الاستئناسِ، وأمَّا سلامُ إبراهيم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأتى به على لفْظِه مرفوعًا بالابتداء، مَحْكيًّا بالقول، ولولا قَصْدُ الحكايةِ لقال: (سلامًا) بالنصب؛ لأنَّ ما بعدَ القولِ إذا كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤٠١/٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١٨٨/٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٧٩/٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦- ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٦٩/٢).

مرفوعًا فعلى الحكايةِ ليس إلَّا، فحصَل مِن الفَرْقِ بين الكلامينِ في حكايةِ سلامِ إبراهيم ورفْعِهِ؛ ونَصْبِ سلامِ الملائكةِ: إشارةٌ إلى معنىً لطيفٍ جدًّا، وهو أنَّ قولَه (سلامٌ عليكم) هو مِن دين الإسلام المُتلقَّى عن إمام الحنفاءِ وأبي الأنبياءِ؛ وأنَّه مِن مِلَّةِ إبراهيمَ التي أَمَرَ اللهُ بها وباتِّبَاعِها، فحكَى لنا قولَه؛ ليَحْصُلَ الاقتداءُ به، والاتِّباعُ له، ولم يحكِ قولَ أضيافِه، وإنما أخْبَر به على الجملةِ دونَ التفصيلِ(١).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعقيبِ؛ إسراعًا في إكرامِ الضَّيفِ؛ ظنَّهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ ناسًا، فبادَرَ إلى قِرَاهم(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فيه تأخيرُ المفعولِ الصَّريحِ ﴿خِيفَةً﴾ عن الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّ المرادَ الإخبارُ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أوجَسَ مِن جِهَتِهم شيئًا هو الخِيفةُ، لا أنَّه أوجَسَ الخِيفةَ مِن جِهَتِهم، لا مِن جهةِ غيرِهم؛ وتأخيرُ ما حقُّه التَّقديمُ يوجِبُ تَرقُّبَ النَّفسِ إليه، فيَتمكَّنُ عِندَ وُرودِه عليها فَضْلَ تمكُّنٍ(٣).

- وجُملةُ ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ جاءتْ مفصولةً عمَّا قبلَها، أي: لم تُعطَفْ عليها؛ لأنَّها أشبَهَتِ الجوابَ؛ لأنَّه لَمَّا أوجَس مِنهم خِيفةً ظهَر أثَرُها على مَلامِحِه، فكان ظهورُ أثَرِها بمنزلةِ قولِه: (إنِّي خِفتُ مِنكم)؛ ولذلك أجابوا ما في نفْسِه بقولِهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، فحُكي ذلك عنهم بالطَّريقةِ الَّتي تُحكَى

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٤- ٢٢٥).

بها المحاوَراتُ، أو هو جوابُ كلامٍ مقدَّرٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، أي: وقال لهم: إنِّي خفتُ منكم، كما حُكي في سورةِ الحِجْرِ: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]، ومِن شأنِ النَّاسِ إذا امتَنَع أحَدٌ مِن قَبولِ طَعامِهم أن يَقولوا له: لعلَّك غادِرٌ أو عدُوٌّ، وقد كانوا يَقولون للوافِدِ: أحَرْبٌ أم سِلْمٌ(١).

- وقولُهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لسبَبِ مَجيئِهم(٢)، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾ إيجازًا؛ لِظُهورِه مِن هذه القصَّةِ وغيرِها، وعبَّر عن الأقوامِ المرادِ عَذابُهم بطَريقِ الإضافةِ ﴿قَوۡمِ لُوطٍ﴾؛ إذ لم يَكُنْ لأولئك الأقوامِ اسمٌ يَجمَعُهم، ولا يَرجِعون إلى نسَبٍ، بل كانوا خَليطًا مِن فَصائِلَ عُرِفوا بأسماءِ قُراهم(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾

- جملةُ ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ تفريعٌ على جملةِ ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ باعتبارِ المعطوفِ، وهو ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾؛ لأنَّها ما ضَحِكت إلَّا بَعْدَ أنْ بَشَّرَها الملائكةُ بابنٍ- وذلك على أحدِ الأقوالِ- فلمَّا تعجَّبَت مِن ذلك بشَّروها بابنِ الابنِ؛ زيادةً في البُشْرى، والتَّعجُّبُ بأن يُولَدَ لها ابنٌ ويَعيشَ، وتَعيشَ هي حتَّى يُولَدَ لابْنِها ابنٌ، وذلك أدخَلُ في العجَبِ(٤).

- وقد اختُصِرَت هذه القِصَّةُ هنا اختِصارًا بَديعًا؛ لِوُقوعِها في خلالِ الحوارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١١٩).

بينَ الرُّسلِ وإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وحكايةُ ذلك الحِوارِ اقتَضَتْ إتمامَه بحكايةِ قولِهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وأمَّا البُشرى فقد حصَلَت قبلَ أن يُخبِروه بأنَّهم أُرسِلوا إلى قوم لوطٍ، كما في آيةِ سورةِ الذَّارياتِ: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]؛ فلمَّا اقتضى ترتيبُ المحاوَرةِ تقديمَ جملةِ ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾، حُكِيَت قصَّةُ البُشْرى وما تَبِعَها مِن المحاوَرةِ بطريقةِ الحالِ؛ لأنَّ الحالَ تَصلُحُ للقَبْليَّةِ وللمقارَنةِ وللبَعْديَّةِ، وهي الحالُ المقدَّرةُ(١).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ الاستِفْهامُ في ﴿ءَأَلِدُ﴾ مستعمَلٌ في التَّعجُّبِ(٢).

- وكِلْتا الجُملتَين: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ وقعَتْ حالًا مِن الضَّميرِ في ﴿ءَأَلِدُ﴾؛ لِتَقريرِ ما فيه مِن الاستِبْعادِ وتَعليلِه، أي: أَأَلِدُ وكِلانا على حالةٍ مُنافِيَةٍ لذلك؟! وإنَّما قدَّمَت بيانَ حالِها على بيانِ حالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ مُبايَنةَ حالِها لِمَا ذُكِرَ مِن الولادةِ أكثرُ؛ إذ رُبَّما يُولَدُ للشُّيوخِ مِن الشَّوابِّ، أمَّا العَجائزُ داؤُهن عَقامٌ، ولأنَّ البِشارةَ مُتوجِّهةٌ إليها صَريحًا، ولأنَّ العكْسَ في البيانِ ربَّما يُوهِمُ مِن أوَّلِ الأمرِ نِسبةَ المانعِ من الولادةِ إلى جانبِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفيه ما لا يَخفْى مِن المحذورِ، واقتِصارُها الاستبعادَ على ولادتِها مِن غيرِ تَعرُّضٍ لحالِ النَّافلةِ؛ لأنَّها المستبعَدُ، وأمَّا وِلادةُ ولَدِها

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٠).

فلا يتعلَّقُ بها استِبعادٌ[١].

- قولُها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ لِصيغةِ التَّعجُّبِ؛ فلذلك فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها- أي: لم تُعطَفْ عليها- لكمالِ الاتِّصالِ[٢]، وهذه الجملةُ أيضًا لِتَعليلِ الاستبعادِ بطريقِ الاستِئْنافِ التَّحقيقيِّ، ومَقصِدُها استعظامُ نِعمةِ اللهِ تعالى عليها في ضِمْنِ الاستعجابِ العاديِّ، لا استِبْعادُ ذلك بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه سبحانه وتعالى[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ عُلِّل به إنكارُ التَّعجُّبِ، كأنَّه قيل: إيَّاكِ والتَّعجُّبَ؛ فإنَّ أمثالَ هذه الرَّحمةِ والبرَكةِ مُتكاثِرةٌ مِن اللهِ عليكم[٤].

- والاستفهامُ في ﴿أَتَعۡجَبِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ لعَجَبِها[٥].

- وجُمْلَةُ ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ تعليلٌ لإنكارِ تعجُّبِها؛ لأنَّ الإنكارَ في قوَّةِ النَّفيِ، فصار المعنى: لا عجَبَ مِن أمْرِ اللهِ؛ لأنَّ إعطاءَكِ الوَلَدَ رَحمةٌ مِن اللهِ وبرَكةٌ، فلا عجَبَ في تَعلُّقِ قُدرةِ اللهِ بها، وأنتم أهلٌ لِتلكَ الرَّحمةِ والبَرَكةِ، فلا عجَبَ في وُقوعِها عندَكم[٦].

- وتعريفُ ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ تعريفُ حُضورٍ، وهو البيتُ الحاضِرُ بينَهم الَّذي جَرى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٢).

فيه هذا التَّحاوُرُ، أي: بَيْتُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، والمعنى: أهلَ هذا البيتِ[(١)].

- وفيه صرْفُ الخطابِ مِن صيغةِ الواحدةِ: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ إلى جمْعِ المذكَّرِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾؛ لِتَعميمِ حُكمِه لإبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضًا؛ لِيَكونَ جَوابُهم لها جَوابًا له أيضًا إنْ خطَر بِبَالِه مِثلُ ما خطَر ببالِها[(٢)].

- وجملةُ ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ تَعليلٌ لِتَوجُّهِ رحمتِه وبرَكاتِه إليهم؛ بأنَّ اللهَ يَحمَدُ مَن يُطيعُه، وبأنَّه مَجيدٌ، أي: عَظيمُ الشَّأنِ، لا حَدَّ لنِعَمِه، فلا يَعظُمُ عليه أن يُعطِيَها ولَدًا، وفي اختيارِ وصْفِ الحميدِ مِن بينِ الأسماءِ الحُسْنى كِنايةٌ عن رِضا اللهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ وأهلِه[(٣)].

٦- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الفاءُ لِرَبْطِ بعضِ أحوالِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ببعضٍ، إثْرَ انفِصالِها بما ليس بأجنَبيٍّ مِن كلِّ وجهٍ، بل له مَدْخلٌ تامٌّ في السِّباقِ والسِّياقِ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ تأخيرُ الفاعلِ ﴿الرَّوْعُ﴾ عن الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ لأنَّه مَصَبُّ الفائدةِ؛ فإنَّ بتَأخيرِ ما حَقُّه التَّقديمُ تَبْقى النَّفسُ مُنتظِرةً إلى وُرودِه، فيتَمكَّنُ فيها عِندَ وُرودِه إليها فضْلَ تَمكُّنٍ[(٥)].

- والتَّعريفُ في ﴿الرَّوْعُ﴾ وفي ﴿الْبُشْرَى﴾ تعريفُ العهْدِ الذِّكْريِّ، وهما

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المذكورانِ آنفًا[١].

- وقولُه: ﴿ يُجَٰدِلُنَا ﴾ هو جوابُ ﴿ فَلَمَّا ﴾، وصِيغَ بصيغةِ المضارِعِ؛ لاستحضارِ الحالةِ العجيبةِ[٢].

- قولُه: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾ (الأوَّاهُ) فيه كنايةٌ عن شِدَّةِ اهتمامِه عليه السَّلامُ بهُمومِ النَّاسِ، وأصلُه الَّذي يُكثِرُ التَّأوُّهَ[٣].

٧- قوله: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾

- جملةُ ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ ﴾ مَقولُ مَحذوفٍ دلَّ عليه المقامُ، وهو مِن بَديعِ الإيجازِ، وهو وَحيٌ مِن اللهِ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أو جوابُ الملائكةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإذا كان مِن كلامِ اللهِ فقولُه: ﴿ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإدخالِ الرَّوْعِ في ضميرِ السَّامعِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٤).

الآيات (٧٧-٨٣)

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ
﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ
بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ
﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ
قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا
أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا
عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً
عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾: أي: ساءَه مَجيئُهم، مِن السُّوءِ: وهو كُلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ(١).

﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾: ذَرعُ الإنسانِ: مُنتهى طاقتِه التي يحمِلُها بمشَقَّةٍ. يُقالُ: ضاق بهذا الأمرِ ذَرعًا: إذا تكلَّفَ أكثَرَ ممَّا يُطيقُ فعجَزَ، وأصلُ (ذرع): يدُلُّ على امتدادٍ، وتحَرُّكٍ إلى قُدُمٍ(٢).

﴿ عَصِيبٌ ﴾: أي: شَديدٌ شَرُّه، عظيمٌ بلاؤه، كأنه قد عُصِب به الشرُّ والبلاءُ، أي: شدُّ به، مأخوذٌ مِن العصابةِ التي تُشدُّ بها الرأسُ، وأصلُ (عصب): يدلُّ على

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١١).

ربطِ شَيءٍ بشيءٍ[(١)].

﴿يُهۡرَعُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، وأصلُ (هرع): يدلُّ على حركةٍ واضطرابٍ[(٢)].

﴿رُكۡنٖ﴾: أي: عشيرةٍ، ورُكْنُ الشَّيءِ: جانِبُه الأقوى، وأصلُ (ركن): يدلُّ على قوَّةٍ[(٣)].

﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: ببقيَّةٍ تبقَى مِن آخِرِه، أو بقِطعةٍ منه، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ، وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[(٤)].

﴿سِجِّيلٖ﴾: أي: طينٍ مُتحَجِّرٍ، وقيل: أصلُها فارسيٌّ (سَنكِ وكِل) أي: الحَجَر والطِّين[(٥)].

﴿مَّنضُودٖ﴾: مَوضوع بعضُه على بعضٍ، أو مُتَتابعٍ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شيءٍ في اتِّساقٍ وجَمعٍ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٧٩).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٥)،

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾: أي: مُعَلَّمةً؛ من السِّيماءِ: أي: العلَامةِ[(١)].

المعنَى الإجماليُّ:

تُبيِّنُ لنا الآياتُ حالَ لوطٍ عليه السَّلامُ لَمَّا جاءته الملائِكةُ؛ أنَّه ساءه مجيئُهم واغتمَّ لذلك؛ خوفًا عليهم مِن قَومِه، وقال: هذا يومُ بلاءٍ وشِدَّةٍ، وأنَّ قومَه جاؤوه يُسرِعونَ المشيَ إليه لطلَبِ الفاحشةِ، وكانوا مِن قبلِ مجيئِهم يأتونَ الرِّجالَ شَهوةً مِن دونِ النِّساءِ، فقال لوطٌ لهم: هؤلاء نِساءُ أمَّتي تَزَوَّجوهنَّ؛ فهنَّ أطهَرُ لكم ممَّا تُريدونَ، فاخشَوُا اللهَ واحذروا عقابَه، ولا تفضَحوني بالاعتداءِ على ضيفي، أليس منكم رجلٌ ذو رَشَدٍ ينهى من أراد ركوبَ الفاحشةِ، فيَحولُ بينهم وبين ذلك؟ فقالوا له: لقد علمتَ من قبلُ أنَّه ليس لنا في النِّساءِ مِن حاجةٍ أو رغبةٍ، وإنَّك لَتعلَمُ ما نريدُ، فقال لهم حين أبَوا إلَّا فعلَ الفاحشةِ: لو أنَّ لي بكم قوَّةً وأنصارًا معي، أو أركَنُ إلى عشيرةٍ تمنَعُني منكم!

قالت الملائكةُ: يا لوطُ إنَّا رسُلُ ربِّك أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِك، وإنَّهم لن يصِلوا إليك، فاخرُجْ أنت وأهلُك ببقيَّةٍ من اللَّيلِ، ولا يلتَفِتْ منكم أحدٌ وراءَه إلَّا امرأتَك فلا تخرج معكم؛ لأنه سيُصيبُها ما أصاب قومَك من الهلاكِ، إنَّ مَوعِدَ هلاكِهم الصُّبحُ، وهو موعِدٌ قريبُ الحُلولِ. فلمَّا جاء أمرُنا بهلاكِ قَومِ لوطٍ جعَلْنا عاليَ قراهم- التي كانوا يعيشونَ فيها- سافِلَها، فقَلَبْناها، وأمطَرْنا عليهم حجارةً مِن طينٍ متصَلِّبٍ، قد صُفَّ بعضُه إلى بعضٍ، مُعلَّمةً عند اللهِ بعلامةٍ مَعروفةٍ لا تُشاكِلُ حِجارةَ الأرضِ، وما هذه الحِجارةُ- التي أمطَرَها اللهُ

((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

على قَومِ لوطٍ- مِن الظالمين ببعيدٍ أن يُمْطَروا بمِثلِها.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قُرِئَ ﴿ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ؛ أمَّا النَّصبُ: فعلى أنَّه مُستثنًى متَّصِلٌ مِن (أهلك) في قَولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، والمعنى: لا تَسْرِ بها. وجُملةُ ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ مُعترِضةٌ بين المُستثنَى والمُستثنَى منه. وأمَّا الرَّفعُ: فعلى أنَّ (امْرَأَتُك) بدلٌ مِن ﴿أَحَدٌ﴾ الواقِعُ في سياقِ النَّهيِ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾، وهو في معنى النَّفيِ. وقيل: إنَّ الاستثناءَ على كِلتا القِراءتَينِ مُنقَطِعٌ مِن جُملةِ الأمرِ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، بِدَليلِ سُقوطِ جُملةِ النَّهيِ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ في قِراءةِ ابنِ مَسعودٍ، ويكونُ النَّصبُ فيها على الاستثناءِ المُنقطِعِ، والرَّفعُ على أنَّ (امْرَأَتُكَ) مبتدأٌ، و﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ جملةُ الخَبَرِ، وجملةُ المبتدأِ وخبَرِه في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المُنقَطِعِ، ويقوِّي كونَ الاستثناءِ مُنقَطِعًا أنَّ مثلَ هذه الآيةِ جاءت في سورةِ الحِجرِ، وليس فيها استثناءُ البتَّةَ؛ قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]. وقيل غيرُ ذلك(١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٧١- ٣٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٦٥-٣٦٩)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٧٧٩-٧٨٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥-٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا انقضى أمرُ إنبائِهم ببِشارةِ الأولياءِ، وهلاكِ الأعداءِ، وعُلِمَ من ذلك أنَّهم لا يَنزِلونَ إلَّا للأمورِ الهائلةِ، والأحوالِ المُعجِبةِ؛ أخذَ يقُصُّ أمرَهم مع لوطٍ عليه السَّلامُ[1].

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

أي: ولَمَّا جاءت الملائكةُ نبيَّنا لوطًا عليه السَّلامُ- ولم يعلَمْ أنَّهم ملائِكةٌ- ساءه مجيئُهم، وضاقتْ نفسُه غَمًّا بحُضورِهم؛ خوفًا عليهم مِن قَومِه[2].

﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

أي: وقال لوطٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا عَلِمَ أنَّه سيحتاجُ إلى مُدافعةِ قَومِه عن أضيافِه: هذا يومٌ شديدٌ شَرُّه، عظيمُ البَلاءِ[3].

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

أي: وجاء لوطًا قومُه يُسرِعونَ إليه[4]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((الهداية)) لمكي (٥/ ٣٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٨).

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ [الحجر: ٦٧ - ٦٩].

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: ومن قبلِ مجيءِ الرُّسُلِ[١] إلى لوطٍ كانوا على عادتِهم يأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم، فجاؤوا إلى الأضيافِ لذلك[٢].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾.

أي: قال لوطٌ مُدافِعًا عن أضيافِه: يا قومِ هؤلاء نِساءُ أُمَّتي فانكِحوهنَّ؛ فهذا أطهَرُ لكم مِن إتيانِ الذُّكورِ[٣].

---

(١) قال ابن جرير: (من قبلِ مجيئِهم إلى لوطٍ كانوا يأتونَ الرجال في أدبارهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٢).

وقال القرطبي: (أي ومِن قبلِ مجيءِ الرُّسُلِ. وقيل: من قبلِ لوطٍ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير المنار)) (١٢/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٧).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بقولِه ﴿بَنَاتِي﴾: نساءُ أمَّتِه عليه السَّلام: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (وقالت فِرقةٌ- منهم مجاهدٌ وسعيدُ بنُ جبيرٍ- أشار بقوله: ﴿بَنَاتِي﴾ إلى النِّساءِ جُملةً؛ إذ نبيُّ القوم أبٌ لهم، ويُقوِّي هذا أنَّ في قراءةِ ابنِ مسعودٍ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾[الأحزاب: ٦] «وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ»). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٦).

قال الشنقيطي: (وبهذا القَولِ قال كثيرٌ من العلماء.

وهذا القَولُ تُقَرِّبُه قرينةٌ وتُبعِدُه أخرى؛ أمَّا القرينةُ التي تقَرِّبُه فهي: أنَّ بناتِ لوطٍ لا تَسَعُ جميعَ رِجالِ قَومِه كما هو ظاهِرٌ، فإذا زوَّجهنَّ لرجالٍ بقَدرِ عَدَدِهنَّ بَقِيَ عامَّةُ رجالِ قَومِه لا أزواجَ لهم، فيتعَيَّن أنَّ المرادَ عمومُ نساءِ قَومِه، ويدُلُّ للعُموم قَولُه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقَولُه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النمل: ٥٥]، ونحوُ ذلك من الآيات.

كما قال تعالى حاكيًا قولَ لوطٍ لِقَومِه: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓ﴾.

أي: فاخشَوُا اللهَ، واحذَروا عقابَه، ولا تُذِلُّوني وتُهينوني بانتهاكِ حُرمةِ ضُيوفي بفِعلِ الفاحشةِ بهم[1].

وأمَّا القرينةُ التي تُبعِدُه: فهي أنَّ النبيَّ ليس أبًا للكافرات، بل أُبُوَّةُ الأنبياءِ الدينيَّةُ للمؤمِنينَ دون الكافرينَ، كما يدُلُّ عليه قولُه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآية، وقد صرَّح تعالى في «الذاريات»: بأنَّ قَومَ لوطٍ ليس فيهم مُسلِمٌ إلَّا أهلَ بَيتٍ واحدٍ، وهم أهلُ بيتِ لوط، وذلك في قَوله: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]. ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٠).

وقيل: المرادُ ببَناتِه عليه السَّلامُ هنا: بناتُه مِن صُلبِه. أي: عَرَضَ على قَومِه أن يتزوَّجوهنَّ. وممَّن قال بذلك: البغوي، وابنُ عطيةَ، وابنُ القيمِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٤)، ((الجواب الكافي)) (ص: ١٧٢).

وقال ابن الجوزي: (فإن قيل: كيف عرَضَ تزويجَ المُؤمِناتِ على الكافرين؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنَّه قد كان يجوزُ ذلك في شريعته، وكان جائزًا في صدر الإسلام حتى نُسِخَ. قاله الحسن.

والثاني: أنَّه عَرَض ذلك عليهم بشَرطِ إسلامِهم. قاله الزجَّاج، ويؤكِّدُه أنَّ عَرْضَهنَّ عليهم موقوفٌ على عَقدِ النكاح، فجاز أن يَقِفَ على شرطٍ آخَرَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٠).

وقال القاسمي: (ظاهِرٌ أنَّه عليه السَّلامُ كان واثِقًا بأنَّ قَومَه لا يُؤثِرونَهنَّ بوَجهٍ ما، مهما أطرى وأطنَبَ، وشَوَّق ورَغَّب، فكان إظهارُه وقايةَ ضِيفانِه وفداءَهم بهنَّ- مع وثوقِه المذكورِ وجَزْمِه- مُبالغةً في الاعتناءِ بحمايتِهم، وقيامًا بالواجِبِ في مثلِ هذا الخَطبِ الفادحِ الفاضِحِ، الذي يَدوم عارُه وشَنارُه، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكِنُ؛ لكيلا يُنسَبَ إلى قصورٍ، وليُعلَمَ أنْ لا غايةَ وراء هذا لِمَن لا رُكْنَ له مِن عَشيرةٍ أو قبيلةٍ، فذلك غايةُ الغاياتِ في حَيطتِهم ووقايتِهم. وفي قَولِه: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ مِن التَّشويقِ، على مرأًى مِن ضِيفانِه ومَسمَعٍ، ما فيه مِن زيادةِ الكَرَمِ والإكرام، ورعايةِ الذِّمام. وبالجُملةِ فهو ترغيبٌ بمُحالِ الوقوعِ باطنًا، وإعذارٌ لِنُزلائِه ظاهِرًا. والله أعلم). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٨).

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

أي: أليسَ منكُم رجلٌ ذو رَشَدٍ وخيرٍ، فينهاكم عن طلَبِ الفاحِشةِ بضُيوفي[1]؟!

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾.

أي: قالوا له: لقد علمتَ- يا لوطُ- ما لنا في النِّساءِ مِن حاجةٍ أو رغبةٍ[2] وإنَّك لتعلَمُ أنَّنا نريدُ الرِّجالَ دون النِّساءِ[3].

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾.

أي: قال لوطٌ لَمَّا رأى إصرارَ قَومِه على طلَبِ الفاحشةِ مِن ضُيوفِه، وعَجَزَ عن ردِّهم: ليتَ لي أنصارًا وأعوانًا يُعينونَني على رَدِّكم[4].

﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فيه قولان: أحدُهما: ما لنا فيهنَّ حاجةٌ، قاله أبو صالحٍ عن ابنِ عباسٍ. والثاني: لسنَ لنا بأزواجٍ فنستحقهنَّ، قاله ابنُ إسحاقَ وابنُ قتيبةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٠).

ومَّمن قال بالأوَّل من المفسِّرين: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٨).

وممَّن قال بالثَّاني: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٧).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

وقال البغوي: (أراد قُوَّةَ البدَنِ، أو القوَّةَ بالأتباعِ). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٠).

أي: أو ألجأُ وأنضَمُّ إلى عشيرةٍ تمنَعُني وتعصِمُني منكم، فأحولُ بينكم وبين ما تريدونَ مِن ضيوفي(١).

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَرحَمُ الله لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى رُكنٍ شَديدٍ))(٢).

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ للوطٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا اشتدَّ به الكَربُ: إنَّا ملائِكةُ رَبِّك، أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِك؛ فلن يَصِلوا إليك بمكروهٍ، فاطمئِنَّ وهوِّنْ على نفسِك(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٣- ٣٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٣، ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) ومسلم (١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾.

أي: فاخرُجْ أنت وأهلُك مِن أرضِ قَومِك بعد مُضيِّ وقتٍ مِن اللَّيلِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ * قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ * وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴾ [الحجر: ٦١-٦٥].

﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿ ٱمۡرَأَتَكَ ﴾ قراءتانِ:

١- ﴿امْرَأَتُكَ﴾ بضمِّ التاءِ، قيل: الاستثناءُ منقطعٌ مِن جُملةِ الأمرِ ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ ﴾، و﴿امْرَأَتُكَ﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾، وقيل: معنى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتُكَ﴾ أي: لا يتخلَّفْ منكم أحدٌ إلا امرأتُك، وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).
قال الشنقيطي: (﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾ ذكرَ تعالى في هذه الآية الكريمة: أنَّه أمر نبيَّه لوطًا أن يسريَ بأهلِه بقِطعٍ من اللَّيلِ، ولم يبيِّنْ هنا هل هو من آخرِ اللَّيلِ، أو وسَطِه أو أوَّلِه، ولكنَّه بيَّن في «القمر» أنَّ ذلك من آخرِ اللَّيلِ وقتَ السَّحَرِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، ولم يبيِّنْ هنا أنَّه أمَرَه أن يكونَ مِن ورائِهم وهم أمامَه، ولكنَّه بيَّن ذلك في «الحجر» بقوله تعالى: ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴾ [الحجر: ٦٥]). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٠-١٩١).

(٢) قرأ بهذه القراءةِ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٠)، ((حجة

٢- ﴿ٱمۡرَأَتَكَ﴾ بفتحِ التاءِ، أي: فأسْرِ بأهلِك إلَّا امرأتَك، على أن لوطًا أُمِر أن يسريَ بأهلِه سوَى زوجتِه، فإنَّه نُهِي أن يسريَ بها[1].

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾.

أي: ولا ينظُرْ أحدٌ منكم وراءَه، واستَمِرُّوا ذاهبينَ، إلَّا امرأتَك، فلا تُخرِجْها معكم[2].

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾.

أي: إنَّه مُصيبٌ امرأتَك -يا لوطُ- العذابُ الذي أصاب قومَك[3].

القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤٧-٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٦٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٥٥٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤-٥١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤٨).
قال الشنقيطي بعدَ أن ذكَر أنَّه على قراءةِ الجمهورِ (بالنصب) فهو لم يَسْرِ بها، وأنَّ ظاهرَ القراءةِ الثانيةِ (بالرفع)- على أحدِ الأوجهِ-: أنَّه أسرَى بها والتفتَتْ فهلَكتْ، قال: (الظاهِرُ أنَّ وجهَ الجمعِ بين القراءتينِ المذكورتينِ أنَّ السِّرَّ في أمرِ لوطٍ بأن يسريَ بأهله هو النَّجاةُ من العذابِ الواقعِ صُبحًا بقومِ لوط، وامرأةُ لوطٍ مُصيبها ذلك العذابُ الذي أصاب قومَها لا محالة، فنتيجةُ إسراءِ لوطٍ بأهلِه لَم تدخُلْ فيها امرأتُه على كلا القولينِ، وما لا فائدةَ فيه كالعدمِ، فيستوي معنى أنَّه تركها، ولم يَسْرِ بها أصلًا، وأنَّه أسرى بها وهَلَكت مع الهالكينَ. فمعنى القولينِ راجِعٌ إلى أنَّها هالكة، وليس لها نفعٌ في إسراءِ لوطٍ بأهلِه، فلا فرقَ بين كونها بَقِيَت معهم، أو خَرَجَت وأصابَها ما أصابهم. فإذا كان الإسراءُ مع لوطٍ لم يُنجِها من العذابِ، فهي ومَن لم يسْرِ معه سواءٌ، والعلم عند الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧].

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

أي: إنَّ مَوعِدَ إهلاكِ قَومِك -يا لوطُ- الصُّبحُ بعد انقضاءِ هذه اللَّيلةِ، أليس وقتُ الصبحِ بقريبٍ لنُزولِ العذابِ بهم[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦].

وقد بيَّن الله تعالى أنَّ صيحةَ العذابِ وقَعتْ عليهم وقتَ الإشراقِ، وهو وقتُ طلوعِ الشمسِ[(٢)]، وذلك في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

أي: فلمَّا جاء أمرُنا بهلاكِ قومِ لُوطٍ، جَعَلْنا عاليَ قراهم أسفَلَها[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

قال القاسمي: (أي: مَوعِدُهم بالهلاكِ الصُّبحُ، والجملةُ كالتعليلِ للأمر بالإسراءِ، أو جوابٌ لاستعجالِ لوطٍ واستبطائِه العذابَ، أو ذُكِرَت ليتعجَّلَ في السَّيرِ؛ فإنَّ قُربَ الصُّبحِ داعٍ إلى الإسراعِ في الإسراءِ، للتَّباعُدِ عن موقعِ العذابِ). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٤).

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾.

أي: وأرسَلْنا على قرى قَومِ لوطٍ حِجارةً مِن طينٍ، شديدِ القوةِ، قد ضُمَّ بعضُه إلى بعضٍ، فصار حجارةً[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨].

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

أي: حجارةً مُعلَّمةً عند اللهِ بعلاماتٍ[2].

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾.

أي: وما هذه الحِجارةُ -التي أُمطِرَت على قومِ لوطٍ- ببعيدةٍ مِن الظالمين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٥، ٥٢٨، ٥٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٠).

قال القرطبي: (﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلمةً، من السيما وهي العلامةُ، أي كان عليها أمثالُ الخواتيم. وقيل: مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ مَن رُمي به، وكانت لا تشاكلُ حجارةَ الأرضِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣).

الفاعلينَ مثلَ فِعلِهم[١]؛ فلْيَحذروا أن يُصيبَهم ما أصابَهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ تضمَّن البيانَ عمَّا يُوجبُه حالُ المؤمنِ إذا رأى مُنكَرًا لا يقدِرُ على إزالتِه؛ أنَّه يتحَسَّرُ على فَقدِ قوة أو مُعينٍ على دَفعِه؛ لحِرصِه على طاعةِ ربِّه، وجَزَعِه مِن مَعصيتِه[٣].

٢- في قولِه تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فيه أنَّ المؤمنَ إذا رأَى منكَرًا لا يقدِرُ على إزالته أنْ عليه أن يُنكِرَ بلسانه ثم بقلبه إذا لم يُطِقِ الدفعَ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ التَّعبيرُ بصفةِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكون العقوبةِ آيةً مُرادةً لا مُصادفةً؛ يجعَلُ العبارةَ عِبرةً لكُلِّ الأقوامِ الظَّالمةِ في كلِّ زمانٍ، وإن كان العذابُ يختَلِفُ باختلافِ الأحوالِ مِن أنواعِ الظُّلمِ وكَثرته

---

(١) وممن اختار هذا المعنى المذكور: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٣).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُشركو قُرَيشٍ، وممن اختار هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣١).

وممن رُوي عنه هذا القولُ من السلفِ: مجاهدٌ، وقتادةُ، والسديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٤٦٥).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قومُ لوطٍ، والمعنى: أنَّ الحجارةَ لم تكنْ لتخطئَ قومَ لوطٍ، وضعَّفه الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((شرح صحيح البخارى)) لابن بطال (١٠/ ٢٩٤) (١٣/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٢٢٧).

وعُمومِه وما دونَهما[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ﴾ أي: حصَلَت له المَساءةُ بسببِ مجيئِهم إلى قريتِه؛ لِما يعلَمُ مِن لُؤمِ أهلِها، والتَّعبيرُ عن هذا المعنى بالمبنيِّ للمفعولِ أوقَعُ في النَّفسِ وأرشَقُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ سؤالٌ: وهو أن يقالَ: إنَّ قولَه ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ من باب أفعل التَّفضيلِ، فيقتضي أن يكونَ الذي يطلبونَه من الرِّجالِ طاهرًا، ومعلومٌ أنَّه مُحرَّمٌ فاسِدٌ نَجِسٌ، لا طهارةَ فيه البتَّةَ، فكيف قال: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾؟!

والجوابُ: أنَّ صيغةَ التفضيلِ قد تُطلق في القرآنِ واللغةِ مرادًا بها الاتصافُ، لا تفضيلُ شيءٍ على شيءٍ[٣]، وأيضًا فهذا جارٍ مجرى قولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢]، ومعلومٌ أنَّ شَجرةَ الزَّقُّومِ لا خيرَ فيها، وكقوله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم لَمَّا قيل يومَ أحُد: اعلُ هُبَلُ، قال: ((اللهُ أعلى وأجَلُّ))[٤]؛ إذ لا مماثلةَ بين اللهِ- عزَّ وجلَّ- والصَّنمِ، وإنَّما هو كلامٌ خرجَ مَخرجَ المقابلةِ[٥].

٣- قولُه: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓ﴾، أي: لا تَجعَلوني مَخْزيًّا عِندَ ضَيْفي؛ إذ يَلحَقُهم أذًى في ضِيافَتي؛ لأنَّ الضِّيافةَ جِوارٌ عندَ ربِّ المنزِلِ، فإذا لَحِقَت

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٣٨).
(٣) يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٢٥٨).
(٤) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.
(٥) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٦).

الضَّيفَ إهانةٌ كانت عارًا على ربِّ المنزِلِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ يحتمل أن سِرَّ النَّهي عن الالتفاتِ- إذا كان بمعنى النَّظَرِ إلى وراءٍ- هو أن يجِدُّوا في السَّيرِ؛ فإنَّ من يلتَفِتُ إلى ورائِه لا يخلو عن أدنى وَقفةٍ، أو ألَّا يَرَوا ما ينزِلُ بقَومِهم من العذابِ فيَرِقُّوا لهم[٢]، ويحتملُ أنَّ سببَ النَّهيِ عن الالْتِفاتِ التَّقصِّي في تحقيقِ معنى الهجرةِ غضَبًا لحُرماتِ اللهِ، بحيث يَقطَعُ التَّعلُّقَ بالوطَنِ، ولو تَعلُّقَ الرُّؤيةِ، وكان تَعْيينُ اللَّيلِ للخُروجِ؛ كَيْلا يُلاقِيَ مُمانَعةً مِن قومِه أو مِن زَوْجِه فيَشُقَّ عليه دِفاعُهم[٣].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ فيه أنَّ المرأةَ والأولادَ مِن الأهلِ[٤].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ ابتدأ الملائِكةُ خِطابَهم لوطًا عليه السَّلامُ بالتَّعريفِ بأنفُسِهم؛ لتعجيلِ الطُّمأنينةِ إلى نفسِه، لأنَّه إذا علِمَ أنَّهم ملائِكةٌ علِمَ أنَّهم ما نزلوا إلَّا لإظهارِ الحَقِّ[٥].

٧- صرَف اللهُ الكفَّارَ عن لُوطٍ عليه السَّلامُ، فرَجَعوا مِن حيثُ أتَوْا، ولو أزال عَن الملائكةِ التَّشكُّلَ بالأجسادِ البشَريَّةِ فأخفاهم عن عُيونِ الكُفَّارِ لحَسِبوا أنَّ لوطًا عليه السَّلامُ أخْفاهم، فكانوا يُؤْذون لوطًا عليه السَّلامُ؛ ولذلك قال له الملائكةُ: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾، ولم يَقولوا: لن يَنالوا؛ لأنَّ ذلك معلومٌ؛ فإنَّهم لَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣١).

أعلَموا لوطًا عليه السَّلامُ بأنَّهم ملائكةٌ ما كان يَشُكُّ في أنَّ الكفَّارَ لا يَنالونَهم، ولكنَّه يَخْشى سَوْرتَهم أن يتَّهِموه بأنَّه أخْفاهم[١].

٨- في قولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ...﴾ في هذه القِصَّةِ إثباتُ الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ، ناطِقونَ، مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، يخاطِبونَهم ويرونَهم في صورِ الآدميِّينَ أحيانًا- الأنبياءُ وغيرُ الأنبياءِ- كما رأتْهم سارَةُ امرأةُ الخليلِ عليه السَّلامُ، وكما كان الصَّحابةُ يَرَون جبريلَ إذا جاء، لَمَّا جاء في صورةِ أعرابيٍّ[٢]، وتارةً في صورةِ دِحيةَ الكَلبيِّ[٣].

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ لعلَّ جَعْلَ الصُّبحِ ميقاتًا لهلاكِهم؛ لِكونِ النُّفوسِ فيه أسكنَ وأودعَ، والرَّاحةُ فيه أجمَعُ[٤]، فيَكونُ حُلولُ العذابِ حينَئذٍ أفظَعَ، ولأنَّه أنسَبُ بكَوْنِ ذلك عِبرةً للنَّاظِرين[٥].

١٠- لما قلَب قومُ لوطٍ الأوضاعَ بإتيانِ الذُّكورِ دونَ الإناثِ؛ كان جزاؤُهم مِن جنسِ عملِهم، فقلَب الله عليهم قُراهم، قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾[٦].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ استدلَّ به من قال بِرَجمِ الفاعلِ والمفعولِ به في اللُّواطِ أُحصِنا أو لا[٧].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٦).

ويُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٥٩).

(٧) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

قال الشنقيطي: (وحجةُ مَن قال: إنَّ قتلَه بالرجمِ هو ... روايةُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، عن ابنِ

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ عبَّرَ بالرَّبِّ إشارةً إلى كثرةِ إحسانِه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه إنَّما أمَرَه بالإنذارِ رحمةً لأمَّتِه التي جعَلَها خيرَ الأُمَمِ، وسيجعَلُها أكثَرَ الأمَمِ، ولا يُهلِكُها كما أهلَكَهم[(١)].

١٥- في قولِه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ جُرِّد (بَعِيد) عن تاءِ التَّأنيثِ مع كونِه خبَرًا عن الحجارةِ، وهي مؤنَّثٌ لفْظًا، ومع كونِ (بَعِيد) هنا بمَعْنى (فاعِلٍ) لا بمَعْنى (مفعولٍ)؛ فالشَّأنُ أن يُطابِقَ مَوصوفَه في تأنيثِه، ولكنَّ العرَبَ قد يُجْرون (فَعيلًا) الَّذي بمَعْنى (فاعِلٍ) مَجْرى الَّذي بمَعْنى (مفعولٍ) إذا جَرى على مؤنَّثٍ غيرِ حقيقيٍّ التَّأنيثِ زيادةً في التَّخفيفِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقيل: إنَّ (بَعِيد) صفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: بِمَكانٍ بعيدٍ، أو بشيءٍ بعيدٍ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ فيه حذْفُ ما دَلَّ عليه المقامُ إيجازًا قرآنيًّا بديعًا، والتَّقديرُ: ففارَقوا إبراهيمَ، وذهَبوا إلى لوطٍ عليهما السَّلامُ، فلمَّا جاؤوا لوطًا... إلخ[(٣)].

عباس: أنَّه يُرجَم، وما ذكَره البيهقيُّ، وغيرُه عن عليٍّ أنَّه رجَم لوطيًّا، ويُستأنسُ لذلك بأنَّ الله رمَى أهلَ تلك الفاحشةِ بحجارةِ السجيلِ. ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٤- ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٤).

- ومِن بَديعِ تَرتيبِ هذه الجُمَلِ أنَّها جاءتْ على تَرتيبِ حُصولِها في الوجودِ؛ فإنَّ أوَّلَ ما يَسبِقُ إلى نَفْسِ الكارِهِ للأمْرِ أن يُساءَ به، ويَتطَلَّبَ المخلَصَ من هذا الأمْرِ؛ وذلك قولُه: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾، فإذا عَلِم أنَّه لا مَخلَصَ مِنه ضاق به ذَرْعًا، وذلك قولُه: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾، ثمَّ يُصدِرُ- تعبيرًا عن المعاني، وترتيبًا عنه- كلامًا يُريحُ به نفْسَه، وذلك قولُه عليه السَّلامُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ كنايةٌ عن شدَّةِ الانقِباضِ؛ للعجْزِ عن مُدافَعةِ المكروهِ والاحتيالِ فيه[2].

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، وفي سورةِ (العنكبوتِ) قال: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاوَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾[العنكبوت: ٣٣]، فورَدَت آيةُ (العنكبوتِ) بزيادةِ (أنْ) بعد (لَمَّا) بخِلافِ آيةِ هودٍ، ووجهُ ذلك: أنَّ (أنْ) هذه الخفيفةَ كثيرًا ما تُزادُ، وزيادتُها على ضَرْبَين؛ بقياسٍ، وغيرِ قياسٍ؛ فأمَّا الَّتي تُزادُ بقياسٍ فبعدَ (لَمَّا)، ولَمَّا ورَد في آيةِ (هودٍ) قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾، ثمَّ ورَد هذا اللَّفظُ بجُملَتِه في سورةِ (العَنكَبوتِ) مُتكرِّرًا بعَينِه، ورَد أوَّلًا بغيرِ (أنْ) على الأصلِ، وورَد ثانيًا بزيادةِ (أنْ) على الثَّاني؛ لِيَحصُلَ التَّوارُدُ بينَ ما يَرفَعُ تَثاقُلَ اللَّفظِ المذكورِ مع تَباعُدِ ما بينَ الآيتَينِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان اللَّفظُ هو اللَّفْظَ، وكان زيادةُ (أنْ) وعدَمُ زيادتِها هنا هيِّنًا فصيحًا جيءَ بالجائِزَين معًا،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٨).

وتأخَّرت الزِّيادةُ؛ إذ هي غيرُ الأصلِ إلى المتأخِّرِ مِن الآيتَين[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾

- قولُه: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ فيه إسنادُ الفِعلِ إلى القَبيلةِ إذْ فعَله بعضُها؛ إذ التَّقديرُ: جاءه بعضُ قومِه، وإنَّما أُسنِد المجيءُ إلى القومِ؛ لأنَّ مِثلَ ذلك المجيءِ دَأْبُهم وقد تَمالَؤوا على مِثلِه، فإذا جاء بعضُهم فسَيَعقُبُه مَجيءُ بعضٍ آخَرَ في وقتٍ آخَرَ[٢].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ جملةُ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ...﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا ناشئًا عن جملةِ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾؛ إذ قد عَلِم السَّامعُ غرَضَهم مِن مَجيئِهم، فهو بحيث يَسألُ عمَّا تلَقَّاهم به[٣].

- وفي افتِتاحِ الكَلامِ بالنِّداءِ وبأنَّهم قومُه بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ترقيقٌ لنُفوسِهم عليه؛ لأنَّه يَعلَمُ تَصلُّبَهم في عادَتِهم الفَظيعةِ[٤].

- قولُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ الإشارةُ بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُستعمَلةٌ في العرْضِ، و﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ تعليلٌ للعَرْضِ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارةٌ إلى جمعٍ؛ إذ بُيِّن بقولِه: ﴿بَنَاتِي﴾، وإطلاقُ البناتِ هنا؛ قيل: هو مِن قَبيلِ التَّشبيهِ البليغِ -لِمَا رُوِي أنَّه لم يَكُنْ له إلَّا ابنَتان- أي: هؤلاءِ نِساؤُهنَّ كبَناتي، وأرادَ نِساءً

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن قومِه بعدَدِ القومِ الَّذين جاؤوا يُهْرَعون إليه فإنَّ قومَه الَّذين حضَروا عِندَه كثيرون، فيكونُ المعنى: هؤلاءِ النِّساءُ فتزَوَّجوهنَّ(١).

- واسمُ التَّفضيلِ ﴿أَطۡهَرُ﴾ مسلوبُ المفاضَلةِ؛ قُصِد به قوَّةُ الطَّهارةِ(٢).

- قولُه: ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ الاستفهامُ في ﴿أَلَيۡسَ ...﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ لأنَّ إهانةَ الضَّيفِ مَسبَّةٌ لا يَفعَلُها إلَّا أهلُ السَّفاهةِ، وقولُه: ﴿مِنكُمۡ﴾ بمَعنى بَعْضِكم؛ أنكَر عليهم تَمالُؤَهم على الباطِلِ، وانعِدامَ رجُلٍ رَشيدٍ مِن بينِهم، وهذا إغراءٌ لهم على التَّعقُّلِ؛ لِيَظهَرَ فيهم مَن يَتفطَّنُ إلى فَسادِ ما هم فيه فيَنْهاهم، فإنَّ ظُهورَ الرَّشيدِ في الفِئةِ الضَّالَّةِ يَفتَحُ بابَ الرَّشادِ لهم، وبالعَكْسِ تَمالُؤهم على الباطلِ يَزيدُهم ضَراوةً به(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

- جملةُ ﴿قَالُواْ ...﴾ فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها، ولم تُعْطَفْ علَيها؛ لِوُقوعِها موقِعَ المحاوَرةِ مع لوطٍ عليه السَّلامُ(٤).

- وجملةُ: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ ...﴾ تأكيدٌ لكونِه يَعلَمُ؛ بتَنْزيلِه مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّه يَعلَمُ؛ لأنَّ حالَه في عرْضِه بَناتِه عليهم كحالِ مَن لا يَعلَمُ خُلقَهم، وكذلك التَّوكيدُ في ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾(٥).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾

- وجملةُ ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ مُبيِّنةٌ لإجمالِ جملةِ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾؛ فلذلك فُصِلَت فلم تُعطَفْ على الَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها بمَنزِلَةِ عطْفِ البيانِ، وهي موضِّحةٌ للَّتي قبْلَها؛ لأنَّهم إذا كانوا رسُلَ اللهِ لم يَصِلوا إليه، ولم يَقْدِروا على ضَررِه، وجيءَ بحرْفِ تأكيدِ النَّفْيِ (لَن)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم خاطَبوه بما يُزيلُ الشَّكَّ مِن نفْسِه[١].

- قولُه: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ الفاءُ لِترتيبِ الأمْرِ بالإسراءِ على الإخبارِ برسالَتِهم، المؤْذِنَةِ بوُرودِ الأمرِ والنَّهْيِ مِن جَنابِه عزَّ وجلَّ إليه عليه السَّلامُ[٢]، وتَفْريعُ الأمْرِ بالسُّرَى على جُملةِ ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾؛ لِمَا في حرْفِ (لَن) مِن ضَمانِ سَلامتِه في المستقبَلِ؛ فلمَّا رأى ابتِداءَ سَلامتِه منهم بانصِرافِهم؛ حَسُن أن يُبيِّنَ له وجْهَ سَلامتِه في المستقبَلِ منهم باستِئْصالِهم وبِنَجاتِه، فذلك موقِعُ فاءِ التَّفريعِ[٣].

- جملةُ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن الاستثناءِ مِن الكلامِ المقدَّرِ، وفيه استِعْمالُ فِعْلِ المضِيِّ ﴿مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ في مَعْنى الحالِ، ومُقتَضى الظَّاهرِ أن يُقالَ: (ما يُصيبُهم)؛ فاستِعْمالُ فِعلِ المُضِيِّ لِتَقريبِ زمَنِ الماضي مِن الحالِ، أو في مَعْنى الاستقبالِ؛ تَنْبيهًا على تَحقُّقِ وُقوعِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣١- ١٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٢).

نحوُ قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾(١) [النحل: ١].

- وأيضًا في جُملَةِ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ تَفْخيمُ شأنِ ما أصابَهم؛ إذِ الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشَّأنِ، وقولُه تعالى: ﴿مُصِيبُهَا﴾ خبرٌ، وقولُه: ﴿مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ مُبتدَأٌ، والجملةُ خبَرٌ لـ(إنَّ) الَّذي اسمُه ضميرُ الشَّأنِ(٢).

- وجملةُ ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، قُطِعَت عن الَّتي قبْلَها -أي: فُصِلَت ولم تُعْطَفْ عليها-؛ اهتِمامًا وتَهويلًا(٣).

- قولُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ جملةُ استِئْنافٍ بيانيٍّ؛ صدَر مِن الملائكةِ جَوابًا عن سُؤالٍ يَجيشُ في نفْسِه مِن استِبْطاءِ نُزولِ العذابِ، والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَلَيۡسَ﴾ تقريريٌّ؛ ولذلك يقَعُ في مِثلِه التَّقريرُ على النَّفيِ إرخاءً للعِنانِ مع المخاطَبِ المقرَّرِ؛ لِيَعرِفَ خطَأَه(٤).

- وأيضًا هذه الجملةُ ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ فيها إرسالُ المثَلِ أو التَّمثيلِ، وهو فَنٌّ يُمكِنُ تَعريفُه بأن يَكونَ ما يُخرِجُه المتكلِّمُ سارِيًا مَسيرَ الأمثالِ السَّائرةِ(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾، وقال في سورةِ (الحِجْر): ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]؛ فاستَثْنى

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٣-١٣٤).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤١١).

في سورةِ (هودٍ) مِن قولِه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قولَه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، ولم يَستَثنِ ذلك في سورةِ (الحِجرِ)، ووجهُ هذه المناسَبةِ: أنَّ الاستِثْناءَ في سورةِ (الحِجْرِ) أغْنى مِنه قولُه تعالى فيما حَكى عن الرُّسلِ: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٥٨-٦٠]، فهذا الاستثناءُ الَّذي لم يقَعْ مِثلُه في سورةِ (هودٍ) أغنى عن الاستثناءِ في قولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾(١).

- ومِن المناسبةِ أيضًا، أنَّه قال في سورةِ الحجرِ: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]، وترَكه هنا في سُورةِ هودٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه لَمَّا اقتَصَّ في هذه السُّورةِ بعضَ ما اقتَصَّ في الأُخرَى؛ فذَكَر أنَّ الرُّسُلَ قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾، والمعنى: لن يَصِلوا إليك وإلى المؤمِنين مِن أهلِك، قيَّد ذلك في قولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بأنْ أمَروه بإخراجِ أهلِه مِن بينِ أظهُرِهم ليلًا مِن غيرِ أن يُعرِّجَ أحدٌ منهم على شيءٍ خلْفَه يَعُوقُه عن المضيِّ إلى حيث ما أُمِر به، ولَمَّا قال في سورةِ الحجرِ: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [الحجر: ٥٩-٦٠] إخبارًا عن الرُّسلِ أنَّهم خاطَبوا إبراهيمَ عليه السَّلامُ به، ثمَّ أخبَر عن مُخاطَبتِهم لوطًا في هذه السُّورةِ بما يُضاهي قولَهم لإبراهيمَ عليه السَّلامُ، حيث أردَفوا قولَهم له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقولِهم: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]؛ لأنَّه إذا ساقَهم وكان مِن وَرائِهم، كان تحقيقًا لِخبَرِهم أنَّهم مُنجُّوهم أجمَعين، فزِيدَ:

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٧٠-٧٧١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٧-١٤٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٩).

﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾؛ لِتُجاوِبَ مُخاطبَتُهم له مُخاطبَتَهم لإبراهيمَ عليه السَّلامُ بسبَبِه[١].

- وأيضًا قال في سورةِ (الحِجْرِ): ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]، ولم يَذكُرْه في سورةِ (هودٍ)؛ وذلك أنَّ قولَه في سورةِ (الحِجْرِ): ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥] زيادةُ إخبارٍ بما ليس في سورةِ هودٍ، وقد تأخَّرَت سورةُ الحجرِ عنها؛ فوَفَّت بما لم يُذكَرْ في سورةِ هودٍ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾

- قولُه: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا﴾ فيه الاقتِصارُ على ذِكرِ جَعْل العالي سافِلًا، حيث جُعل عالِيها مَفعولًا أوَّلَ للجَعْلِ، وسافِلُها مَفعولًا ثانيًا له، وإنْ تَحقَّق القلبُ بالعَكْسِ أيضًا؛ لأنَّه أَدخَلُ في الإهانةِ، وأيضًا لِتَهويلِ الأمرِ، وتفظيعِ الخَطْبِ؛ لأنَّ جَعْلَ عالِيها- الَّذي هو مَقارُّهم ومَساكِنُهم- سَافِلَها أشَدُّ عليهم وأشَقُّ مِن جَعْلِ سافِلِها عالِيَها، وإن كان مُستلزِمًا له[٣].

- وفي قولِه: ﴿جَعَلۡنَا﴾ و﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ إسنادُ الجَعْلِ والإمطارِ إلى ضَميرِه سبحانه باعتبارِ أنَّه المسبِّبُ لِتَفخيمِ الأمرِ، وتَهويلِ الخَطْبِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿فَلَمَّا جَآءَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٧١-٧٧٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠).

أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾، وفي سورةِ (الحِجْرِ) قال: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]؛ ففي الأُولَى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾، والضَّميرُ للقريةِ، والمرادُ أهلُها، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾، والضَّميرُ لِقَومِ لوطٍ، فاختَلَف الضَّميرُ مع اتِّحادِ المقصودِ، ووجهُ ذلك: أنَّ كُلًّا مِن الموضوعَين مُراعًى فيه مُناسَبةُ ما تَقدَّمَه؛ فلمَّا تقدَّم آيةَ (الحِجْرِ) قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨]، فذكَر قومَ لوطٍ موصوفِين بالإجرامِ الموجِبِ لِهَلاكِهم، فرُوعِيَ هذا المتقدِّمُ، فقيل: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحجر: ٧٤]، ونَظيرُ هذا قولُه تعالى في سورةِ (الذَّارياتِ): ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ [الذاريات: ٣٢- ٣٣]، فقيل: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ لَمَّا تَقدَّم قولُه: ﴿إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾، وأمَّا آيةُ (هودٍ) فلم يتقدَّمْ فيها مثلُ هذا، فاكتَفى بضَميرِ القَريةِ، فقيل: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ [هود: ٨٢]، وأغنى ذلك عن ذِكْرِ المهلَكين؛ إذ هم المقصودون بالعذابِ؛ فورَد كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٢-٢٦٣).

الآيات (٨٤-٨٦)

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبْخَسُوا۟﴾: أي: تَنْقُصُوا، وتَظْلِموا، والبَخْسُ: نقص الشيء على سبيل الظلم، وأصلُ (بخس): نقص[(١)].

﴿تَعْثَوْا۟﴾: العثوُّ أشدُّ الفَسادِ، وأصلُ (عثي): يدُلُّ على فَسادٍ[(٢)].

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: أي: ما يُبقيه اللهُ لكم، وأصلُ (بقي): يدلُّ على دَوامٍ[(٣)].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسلَ إلى مَدْيَنَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم مِن إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلَّ وعلا، فأخلِصوا له العبادةَ، ولا تنقُصوا النَّاسَ حُقوقَهم في مَكاييلِهم ومَوازينِهم، إنِّي أراكم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص:٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦).

في سَعَةِ عَيشٍ، وإنِّي أخاف عليكم -بسبَبِ شِركِكم، وإنقاصِكم المكيالَ والميزانَ- عذابَ يومٍ يُحيطُ بكم، ويا قوم أتِمُّوا المكيالَ والميزانَ بالعَدلِ، ولا تَنقُصوا النَّاسَ حَقَّهم، ولا تَسيروا في الأرضِ تَعملونَ فيها بمعاصي اللهِ ونَشرِ الفَسادِ، إنَّ ما يبقى لكم بعدَ إيفاءِ الكَيلِ والميزانِ مِن الرِّبحِ الحلالِ خيرٌ لكم ممَّا تأخذونَه بالتَّطفيفِ ونَحوِه من الكَسبِ الحَرامِ، إن كُنتُم تؤمِنونَ باللهِ حَقًّا، فامتَثِلوا أمْرَه، وما أنا عليكم برقيبٍ أُحصي عليكم أعمالَكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انتهَت قِصَّةُ لوطٍ عليه السَّلامُ مُعلِمةً لِما قام به مِن أمرِ اللهِ غيرَ وانٍ فيه لرغبةٍ ولا رهبةٍ، وبما في إنزالِ الملائكةِ مِن الخطَرِ- أُتبِعت أقربَ القصَصِ الشَّهيرةِ إليها في الزَّمَنِ[١].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى أهلِ مَدينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (هم قبيلةٌ من العَرَب، كانوا يسكنونَ بين الحِجازِ والشَّامِ، قريبًا من بلاد مَعان، في بلدٍ يُعرَف بهم، يقال لها «مَدْيَن»). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾.

أي: قال: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه لا شريكَ له، ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه[١].

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا إلى العدلِ فيما بينَهم وبينَ الله، دعاهم إلى العدلِ فيما بينَهم وبينَ عَبيدِه في أقبَحِ ما كانوا قد اتَّخَذوه بعدَ الشِّركِ دَيدنًا، فقال[٢]:

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾.

أي: ولا تنقُصوا النَّاسَ حُقوقَهم في الكَيلِ والوَزنِ لهم[٣].

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾.

أي: إنِّي أراكم في سَعةٍ مِن الرِّزقِ، وكثرةِ نِعَمٍ، وخَيرٍ في معيشتِكم، فاشكُروا الله على ذلك[٤].

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾.

أي: وإنِّي أخافُ عليكم -بسبَبِ شِركِكم، وبَخسِكم حقوقَ النَّاسِ- أن يَنزِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

بكم عذابُ يومٍ يحيطُ بكم، فلا يُفلِتُ منه أحدٌ[١].

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان عدمُ النَّقصِ قد يُفهَمُ منه التَّقريبُ، أتبَعَه بما ينفي هذا الاحتمالَ، وللتَّنبيهِ على أنَّه لا يكفي الكفُّ عن تعمُّدِ التَّطفيفِ، بل يلزمُ السَّعيُ في الإيفاءِ، ولو بزيادةٍ لا يتأتَّى بدونِها[٢].

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

أي: ويا قومِ أتمُّوا للنَّاسِ حُقوقَهم في الكَيلِ والوَزنِ لهم بالعَدلِ، مِن غيرِ نَقصٍ[٣].

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾.

أي: ولا تَنقُصوا النَّاسَ مِن حُقوقِهم شَيئًا[٤].

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

قال الواحدي: (والمحيطُ مِن صفةِ اليومِ في الظَّاهر، وهو في المعنى من صفةِ العذابِ؛ وذلك أنَّ يومَ العذابِ إذا أحاط بهم فقد أحاط بهم العذابُ). ((البسيط)) (١١/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

أي: ولا تَسيروا في الأرض بِمَعصيةِ اللهِ، والإضرارِ بالخَلقِ(١).

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِقَومِه: ما يُبقيه اللهُ لكم بعد أن تُوَفُّوا النَّاسَ حُقوقَهم خيرٌ لكم من الحرامِ الذي تَجمَعونَه بظُلمِ النَّاسِ، شريطةَ أن تكونوا مؤمنينَ بما جئتُكم به(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾.

أي: وما أنا برقيبٍ عليكم عند كيلِكم ووَزنِكم، وليس عليَّ حفظُ أعمالِكم، وإنَّما عليَّ إبلاغُكم رسالةَ اللهِ(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الأنبياءُ عليهم السَّلامُ يَشرَعونَ في أوَّلِ الأمرِ بالدَّعوةِ إلى التوحيدِ؛ فلهذا قال شعيبٌ عليه السَّلامُ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ ثمَّ إنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٤).

قال القرطبي: (شَرطَ هذا؛ لأنَّهم إنما يعرفونَ صِحَّةَ هذا إن كانوا مؤمنينَ. وقيل: يحتملُ أنَّهم كانوا يعترفونَ بأنَّ الله خالقُهم، فخاطبهم بهذا). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

بعد الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، يَشرَعونَ في الأهمِّ ثمَّ الأهمِّ، ولَمَّا كان المعتادُ مِن أهلِ مَدْينَ البَخسَ في المكيالِ والميزانِ، دعاهم إلى تركِ هذه العادةِ في قولِه: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[1].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ سلك شعيبٌ عليه السَّلامُ في نهيِهم عن الفَسادِ مَسلَكَ التدرُّجِ، وهذا من أساليبِ الحِكمةِ في تهيئةِ النُّفوسِ بقَبولِ الإرشادِ والكَمالِ، فابتدأ بنَهيِهم عن نوعٍ مِن الفسادِ فاشٍ فيهم، وهو التَّطفيفُ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن جِنسِ ذلك النَّوعِ، وهو: أكلُ أموالِ النَّاسِ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن الجِنسِ الأعلى للفَسادِ الشَّاملِ لجميعِ أنواعِ المفاسدِ، وهو: الإفسادُ في الأرضِ كُلِّه[2].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: فلا تَتَسبَّبوا إلى زوالِه بفِعلِكم، ففيه أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمَلِ، فمَن بخسَ أموالَ النَّاسِ، يريدُ زيادةَ مالِه؛ عوقِبَ بنقيضِ ذلك، وكان سببًا لزوالِ الخيرِ الذي عندَه مِن الرِّزقِ[3].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ فيه أنَّ على العبدِ أن يقنَعَ بما آتاه اللهُ، ويقنعَ بالحلالِ عن الحرامِ، وبالمكاسبِ المُباحةِ عن المكاسبِ المحرَّمةِ، وأنَّ ذلك خيرٌ له؛ ففي ذلك من

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).

البَرَكةِ، وزيادةِ الرِّزقِ ما ليس في التكالُبِ على الأسبابِ المحرَّمةِ مِنَ المَحْقِ، وضِدِّ البَرَكةِ(١).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه أنَّ القناعةَ بالحلالِ عن الحرامِ، وبالمكاسبِ المباحةِ عن المكاسبِ المحرمةِ مِن لوازمِ الإيمانِ وآثارِه؛ فإنَّه رتَّبَ العملَ به على وجودِ الإيمانِ، فدَلَّ على أنَّه إذا لم يوجَدِ العمَلُ، فالإيمانُ ناقِصٌ أو معدومٌ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ دعاءُ شُعَيبٍ إلى عبادةِ اللهِ يقتضي أنَّهم كانوا يعبُدونَ الأوثانَ، وذلك بيِّنٌ مِن قَولِهم فيما بعدُ، وكُفرُهم هو الذي استوجَبوا به العذابَ لا معاصيهم؛ فإنَّ الله لم يعذِّبْ قطُّ أُمَّةً (عذابَ استئصالٍ عامٍّ) إلَّا بالكُفرِ، فإن انضافَت إلى ذلك معصيةٌ كانت تابعةً(٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ هذا النَّهيُ يتضمَّنُ الأمرَ بالإيفاءِ، وصرَّحَ به بعدُ في قولِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وهو يتضمَّنُ النَّهيَ عن النَّقصِ، ففي ذلك تأكيدٌ على الحَثِّ على عدمِ البَخسِ، وعلى الحثِّ على العدلِ(٤).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ فيه أنَّ نَقصَ المكاييلِ والموازينِ مِن كبائرِ الذُّنوبِ، وتُخشَى العقوبةُ العاجلةُ على مَن تعاطَى ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٩).

وأنَّ ذلك مِن سَرِقةِ أموالِ النَّاسِ، وإذا كانت سَرِقتُهم في المكاييلِ والموازينِ مُوجِبةً للوعيدِ، فسَرِقتُهم على وجهِ القَهرِ والغَلَبةِ مِن بابِ أَولَى وأحرَى[١].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ فيه أنَّ الكفَّارَ كما يُعاقَبونَ ويُخاطَبونَ بأصلِ الإسلامِ، فكذلك بشَرائِعِه وفروعِه؛ لأنَّ شُعَيبًا عليه السَّلامُ دعا قومَه إلى التَّوحيدِ، وإلى إيفاءِ المكيالِ والميزانِ، وجعلَ الوعيدَ مُرَتَّبًا على مجموعِ ذلك[٢].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بيَّن أنَّ ما فعلوه كان بَخسًا للنَّاسِ أشياءَهم؛ وأنَّهم كانوا عاثِينَ في الأرضِ مُفسِدينَ قبل أن ينهاهم، بخلافِ قولِ «المُجْبرةِ» أنَّ ظُلمَهم ما كان سيِّئةً إلَّا لَمَّا نهاهم، وأنه قَبلَ النَّهيِ كان بمنزلةِ سائرِ الأفعالِ مِن الأكلِ والشُّربِ وغيرِ ذلك، كما يقولونَ في سائرِ ما نهت عنه الرسُلِ مِن الشِّركِ والظُّلمِ والفواحشِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قيَّدَه بقَصدِ الإفسادِ؛ لأنَّ بعضَ ما هو إفسادٌ في الظَّاهرِ قد يرادُ به الإصلاحُ، أو دَفعُ أخَفِّ الضَّرَرين، كالذي يقعُ في الحربِ مِن قَطعِ الأشجارِ، أو فَتحِ سُدودِ الأنهارِ، أو إحراقِ بعضِ الأشياءِ بالنَّارِ، ومنه خَرقُ الخَضِرِ للسَّفينةِ التي كانت لمساكينَ يعمَلونَ في البَحرِ؛ لِمنعِ المَلِك الظَّالمِ الذي وراءَهم[٤].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لفظُ ﴿بَقِيَّتُ﴾ كلمةٌ جامعةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٧).

لمعانٍ في كلامِ العرَبِ، منها: الدَّوامُ، ومُؤذِنةٌ بضِدِّه وهو: الزَّوالُ، فأفادت أنَّ ما يقترِفونَه متاعٌ زائِلٌ، وما يَدعوهم إليه حظٌّ باقٍ غيرُ زائلٍ، وبقاؤُه دُنيويٌّ وأخرويٌّ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾ استِئْنافٌ وقَع جَوابًا عن سؤالٍ نشَأ عن صدرِ الكلامِ، فكأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال كما قال مَنْ قبلَه مِن الرُّسلِ عليهم السَّلامُ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾(٢).

- قولُه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ تحقيقٌ للتَّوحيدِ، وتعليلٌ للأمرِ به(٣).

- قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ...﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ فقدَّمَ النَّهيَ على الأمرِ؛ لأنَّ دفْعَ المفاسدِ آكَدُ مِن جلْبِ المصالحِ(٤).

- قولُه: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾: جملةٌ تعليليَّةٌ للنَّهيِ عن نقْصِ المكيالِ والميزانِ، أي: إنَّكم في غِنًى عن هذا التَّطفيفِ بما أُوتيتُم مِن النِّعمةِ والثَّروةِ، وهذا التَّعليلُ يَقْتضي قُبحَ ما يَرتكِبونه مِن التَّطفيفِ في نظَرِ أهْلِ المُروءةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٦٩).

ويَقطَعُ مِنهم العُذرَ في ارتِكابِه، وهذا حَثٌّ على وسيلةِ بَقاءِ النِّعمةِ[١]؛ ونبَّه بقولِه: ﴿بِخَيۡرٖ﴾ على العلَّةِ المقتضِيَةِ للوفاءِ لا للنَّقصِ[٢].

- قولُه: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ فيه وصْفُ اليوم بالإحاطةِ، وهو أبلَغُ مِن وصْفِ العذابِ به؛ لأنَّ اليومَ زَمانٌ يَشتمِلُ على الحوادثِ، فإذا أحاط بعَذابِه فقد اجتمَع للمُعذَّبِ ما اشتمَل عليه منه، كما إذا أحاط بنَعيمِه[٣]، وفيه أيضًا ارتِقاءٌ في تعليلِ النَّهيِ بأنَّه يَخافُ عليهم عَذابًا يَحِلُّ بهم؛ إمَّا يومَ القيامةِ وإمَّا في الدُّنيا، ولِصُلوحيَّتِه للأمْرينِ أجمَلَه بقولِه: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾، وهذا تحذيرٌ مِن عَواقِبِ كُفْرانِ النِّعمةِ، وعِصْيانِ واهِبِها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ في جُملةِ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ﴾؛ لزِيادةِ الاهتمامِ بالجُمْلةِ، والتَّنبيهِ لِمَضمونِها، وهو الأمرُ بإيفاءِ المكيالِ والميزانِ[٥].

- قولُه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ فيه تصريحٌ بالأمرِ بالإيفاءِ بعدَ النَّهيِ عن ضدِّه، وهو قولُه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٣- ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَٱلۡمِيزَانَ ﴾؛ مبالَغةً وتنبيهًا على أنَّه لا يَكْفيهم الكفُّ عن تَعمُّدِهم التَّطفيفَ، بل يَلزَمُهم السَّعيُ في الإيفاءِ؛ فهذا الأمرُ تأكيدٌ للنَّهيِ عن نَقصِهما، والشَّيءُ يُؤكَّدُ بنفيِ ضدِّه؛ لزيادةِ التَّرغيبِ في الإيفاءِ بطلَبِ حُصولِه بعدَ النَّهيِ عن ضدِّه، كقولِه تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾[1] [طه: ٧٩].

- وعبَّر بقولِه: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ ﴾؛ لِيَكونَ الإيفاءُ على جِهَةِ العدلِ والتَّسويةِ وهو الواجبُ؛ لأنَّ ما جاوزَ العدلَ فضلٌ، وأمرٌ مندوبٌ إليه[2].

- قولُه: ﴿مُفۡسِدِينَ ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لِعامِلِها ﴿تَعۡثَوۡاْ ﴾؛ مُبالَغةً في النَّهيِ عن الفسادِ[3].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ حصَل النَّهيُ عن الأعَمِّ بعدَ النَّهيِ عن العامِّ، وبه حصَلَت خَمسةُ مُؤكِّداتٍ: أوَّلُها: الأمرُ بعدَ النَّهيِ عن الفسادِ الخاصِّ، ثانيها: التَّعميمُ بعدَ التَّخصيصِ، ثالثُها: زيادةُ التَّعميمِ، رابعًا: تأكيدُ التَّعميمِ الأعَمِّ بتعميمِ المكانِ، خامِسُها: تأكيدُه بالمؤكِّدِ اللَّفظيِّ[4].

٣- قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾

- قولُه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾، أي: افْعَلوا ذلك باختيارِكم؛ لأنَّه لِصَلاحِكم، ولَسْتُ مُكْرِهَكم على فِعْلِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٧ - ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٣٨).

والمقصودُ من ذلك استِنْزالُ طائِرِهم لئلَّا يَشمئِزُّوا مِن الأمرِ، وهذا استقصاءٌ في التَّرغيبِ، وحُسْنِ الجدالِ[١].

- قولُه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فيه إضافةُ ﴿بَقِيَّتُ﴾ إلى اسْمِ الجلالةِ على المعاني كلِّها جَمْعًا وتفريقًا، إضافةَ تَشريفٍ وتيَمُّنٍ، وهي إضافةٌ على معنى اللَّامِ؛ لأنَّ البقيَّةَ مِن فضْلِه أو ممَّا أمَر به[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ جاء باسْمِ الفاعلِ ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ الَّذي هو حقيقةٌ في الاتِّصافِ بالفعلِ في زَمانِ الحالِ؛ تقريبًا لإيمانِهم بإظهارِ الحِرْصِ على حُصولِه في الحالِ، واستعجالًا بإيمانِهم؛ لِئَلَّا يَفْجَأَهمُ العذابُ فيَفُوتَ التَّدارُكُ[٣].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٤١).

الآيات (٨٧-٩٠)

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: يَحمِلنَّكم أو يُكسِبنَّكم، وأصلُ (جرم): يدلُّ على قَطعٍ[١].

﴿شِقَاقِيٓ﴾: أي: عداوتي، أو مُخالفتي، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾

﴿أَن نَّفۡعَلَ﴾: مصدرٌ مُؤَوَّلٌ في محلِّ نَصبٍ عطفًا على (ما) في ﴿مَا يَعۡبُدُ﴾، والتَّقديرُ: أصلاتُك تأمُرُك أن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤُنا، أو أن نترُكَ أن نفعَلَ في أموالِنا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠).

ما نشاءُ، وليس بمعطوفٍ على ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾؛ إذ ليس المعنى: أصلاتُك تأمُرُك أن نفعَلَ في أموالِنا ما نشاءُ(١).

المعنَى الإجماليُّ:

تُبَيِّنُ الآياتُ ما ردَّ به قومُ شُعَيبٍ عليه، فقالوا له: يا شُعَيبُ أهذه الصَّلاةُ التي تُداوِمُ عليها تأمُرُك بأن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤنا من الأصنامِ والأوثانِ، أو أن نترُكَ التصَرُّفَ في كَسبِ أموالِنا بما نستطيعُ مِن احتيالٍ ومكرٍ؟ وقالوا- استهزاءً به-: إنَّك لأنت الحليمُ الرَّشيدُ، فقال لهم: يا قومِ أرأيتُم إن كنتُ على طريقٍ واضحٍ مِن ربِّي فيما أدعوكم إليه مِن إخلاصِ العِبادةِ له، وفيما أنهاكم عنه مِن ظُلمِ النَّاسِ، ورزَقَني منه رِزقًا واسِعًا حلالًا طَيِّبًا، أفأضِلُّ كما ضَلَلْتُم؟ وما أريدُ أن أخالِفَكم فأرتكِبَ أمرًا نهيتُكم عنه، وما أريدُ فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه إلَّا إصلاحَكم قَدْرَ طاقتي واستطاعَتي، وما توفيقي- في إصابةِ الحَقِّ، ومحاولةِ إصلاحِكم- إلَّا باللهِ، على اللهِ وَحْدَه توكَّلتُ، وإليه أرجِعُ بالتَّوبةِ والإنابةِ، ويا قومِ لا تحمِلَنَّكم عداوتي وبُغضي ومُخالفتي في ديني على العنادِ والإصرارِ على ما أنتم عليه من الكُفرِ باللهِ، فيُصيبَكم مثلُ ما أصاب قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ مِن الهلاكِ، وما قومُ لوطٍ- الذين حلَّ بهم العذابُ- ببَعيدٍ منكم لا في الدَّارِ ولا في الزَّمانِ، واطلُبوا من ربِّكم المغفرةَ لذُنوبِكم، ثمَّ ارجِعوا إلى طاعتِه واستمِرُّوا عليها؛ إنَّ ربِّي رحيمٌ كثيرُ المودَّةِ والمحبَّةِ لِمَن تاب إليه وأناب.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٧٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧١١-٧١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧٢-٣٧٣).

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

أي: قال قومُ شُعَيبٍ مُستهزئينَ بنبيِّهم: يا شُعيبُ، أصلاتُك[١] تأمُرُك أن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤُنا من الأوثانِ والأصنامِ[٢]؟!

﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾.

أي: أو تأمُرُك صلاتُك أن نترُكَ فِعلَ ما نريدُ في أموالِنا من التَّطفيفِ في الكَيلِ والميزانِ[٣]؟!

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

أي: قال قومُ شُعَيبٍ مُستهزئينَ بنبيِّهم: إنَّك- يا شُعَيبُ- لأنت الحليمُ الرَّشيدُ[٤] في أمرِك لنا بتَركِ عبادةِ الأصنامِ، وتَركِ بَخسِ النَّاسِ، يعنونَ بذلك وصفَه عليه السَّلامُ بالسَّفَهِ والجَهلِ[٥]!

(١) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَصَلَاتُكَ﴾: الصلواتُ المعروفةُ: الزمخشريِّ والقرطبيِّ والسعدي وابنِ عاشور، وهو قولُ الحسنِ، وجعَل ابنُ عطيةَ هذا القولَ- وكذلك القولُ بأنَّها (الدعوات)- أقربَ الأقوال. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٠).

وقيل: إنَّ المرادَ بها: دينُه، قاله عطاءٌ. وقيل: قراءتُه، قاله الأعمش. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣).

(٤) قال ابن عاشور: (والحليمُ: ذو الحِلْمِ، أي: العقلِ، والرَّشيدُ: الحسنُ التَّدبيرِ في المالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤، ٥٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا اتَّهمَ قومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ شُعَيبًا بأنه يأمرهم بالقطيعةِ لآبائهم واتهموه بالسَّفَهِ، وعَنوا بقولِهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ نسبتَه إلى السفهِ والغيِّ على طريقِ التهكمِ؛ شرعَ في إبطالِ ما قالوا، ونَفيِ التُّهمةِ فيه[1].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾.

أي: قال شُعَيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على يقينٍ وعلمٍ مِن الله فيما أمَرَني أن أدعوَكم إليه من توحيدِه، وفيما أنهاكم عنه مِن ظُلمِ

قيل: المرادُ بقولهم: (الحليم الرشيد): (السفيه الجاهل)، فوصفوه بالحلم والرشدِ على سبيلِ التهكُّمِ والاستهزاءِ به. وممن قال بذلك: ابنُ جرير والواحديُّ، والزمخشري، والشوكانيُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨- ٥٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

وممن قال ذلك من السلف: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، وميمونُ بنُ مهران، وابنُ جريج، وابنُ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤).

وقيل: إنَّه عليه السلامُ كان مشهورًا عندَهم بأنَّه حليمٌ رشيدٌ، فلمَّا أمَرهم بمفارقةِ طريقتِهم قالوا له: إنَّك لأنت الحليمُ الرشيدُ، المعروفُ الطريقةِ في هذا البابِ، فكيف تنهانا عن دينٍ ألفيناه مِن آبائنا وأسلافِنا، فما تأمرُ به لا يطابقُ حالَك، وما شُهِرت به. والمقصودُ استبعادُ مثلِ هذا العملِ ممن كان موصوفًا بالحلمِ والرشدِ. وممن اختار هذا المعنى: الرازي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٧).

النَّاسِ، وأعطاني اللهُ مِن فَضلِه مالًا حلالًا طيِّبًا، أفأتَّبِعُ الضَّلالَ، وأضِلُّ كما ضَلَلتُم[١]؟

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾.

أي: وما أريدُ أن أنهاكم عن شيءٍ ثمَّ أفعلَ خِلافَه[٢].

عن أسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُؤْتَى بالرَّجُلِ يومَ القيامةِ فيُلقى في النَّار، فتندلِقُ أقتابُ بَطنِه[٣]، فيدورُ بها كما يدورُ الحِمارُ بالرَّحى، فيَجتَمِعُ إليه أهلُ النَّارِ، فيقولونَ: يا فلانُ، ما لك؟! ألم تكُن تأمُرُ بالمعروفِ وتنهى عن المُنكَر؟! فيقولُ: بلى، قد كنتُ آمُرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾: المالُ الحلالُ الطَّيِّبُ: ابنُ جرير، والواحدي- ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ- والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٤٦٧).

وممَّن اختار أنها النُّبُوَّة: الزمخشري وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٣).

وقال ابن كثير: (قيل: أراد النبوَّة. وقيل: أراد الرِّزقَ الحلالَ، ويحتمِلُ الأمرينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٣).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ عند جميع المفسِّرينَ من التابعينَ فمَن بَعدَهم: ما أريدُ ممَّا نهيتُكم عنه أن أمنَعَكم أفعالًا وأنا أفعَلُها، أي: لم أكنْ لأنهاكم عن شيءٍ وأنا أفعَلُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٣).

(٣) فتندلِقُ أقتابُ بطنِه: أي تخرجُ أمعاؤُه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٧).

بالمعروفِ ولا آتيه، وأنهى عن المُنكَرِ وآتيه))[١].

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

أي: ما أُريدُ بنصيحتي لكم إلَّا إصلاحَ أمورِكم وأحوالِكم، ونَفْعَكم في دُنياكم وآخِرتكم بقَدرِ جُهدِي[٢].

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الكلامُ السَّابِقُ فيه نوعُ تَزكيةٍ للنَّفسِ، دفَعَ هذا بقوله[٣]:

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

أي: وما إصابتي الحَقَّ فيما أريدُه، وتيسُّرُ الخيرِ لي، إلَّا بإعانةِ اللهِ وَحدَه[٤].

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

أي: على اللهِ اعتمَدتُ، وفوَّضتُ إليه جميعَ أموري، وإليه وَحْدَه أرجِعُ بالتَّوبةِ والطَّاعةِ والدُّعاءِ[٥].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩)﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠، ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه عُذرَه بما انتَفَت به تُهمتُه، أتبَعَه بما يدُلُّهم على أنَّ الحَقَّ وضَحَ لهم وضوحًا لم يبقَ معه إلَّا المُعاندةُ، فحَذَّرَهم عواقِبَها، وذكَّرَهم أمرَ مَن ارتكَبَها[(١)].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾.

أي: قال شُعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِقَومِه: ويا قومِ لا تحمِلَنَّكم مُخالفتي في ديني، وبُغضُكم لي، على الإصرارِ على الكُفرِ، وظُلمِ النَّاسِ، فيُصيبَكم مِن عذابِ اللهِ مثلُ ما أصاب قومَ نُوحٍ مِن الغرَقِ، أو قومَ هُودٍ مِن الرِّيحِ، أو قومَ صالحٍ مِن الرَّجفةِ[(٢)].

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

أي: وما قومُ لوطٍ ببعيدٍ مِنكم، بل هم قريبٌ مِن ديارِكم، وأهلَكَهم اللهُ في زمانٍ قريبٍ مِن زمانِكم، فاعتَبِروا بهم[(٣)].

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا رهَّبَ شُعَيبٌ عليه السَّلامُ قَومَه، أتبَعَه التَّرغيبَ في سياقٍ مُؤذِنٍ بأنَّهم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦). قال ابن كثير: (قيل: المرادُ في الزَّمان... وقيل: في المكانِ، ويحتملُ الأمران). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦).

إن لم يبادِروا إلى المَتاب، بادَرَهم بالعذاب[١].

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

أي: واستَغفِروا ربَّكم- يا قومِ- فاطلُبوا منه سَترَ ذُنوبِكم السَّالفةِ مِن الكُفرِ وظُلمِ النَّاسِ، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بذلك، ثم توبُوا إلى ربِّكم فيما تَستَقبِلونَه؛ بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والرُّجوعِ إلى طاعتِه، وامتثالِ أمرِه، وتَركِ مَعصيتِه[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي رحيمٌ بمن رجع إليه، محِبٌّ لعبادِه المُنيبينَ التَّائبينَ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ نبَّهَت هذه الأجوبةُ الثَّلاثةُ على أنَّ العاقِلَ يجِبُ أن يُراعيَ في كلِّ ما يأتي ويذَرُ أحدَ حُقوقٍ ثلاثةٍ؛ أهمُّها وأعلاها: حقُّ اللهِ، وثانيها: حقُّ النَّفسِ، وثالثُها: حقُّ العبادِ، على وجهِ الإخلاصِ في الكُلِّ[٤].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الواعظَ إذا أراد أن يُقبَلَ منه الأمرُ والنَّهيُ، فلا بدَّ له إذا أَمَرَ بشيءٍ أن يكونَ أوَّلَ الفاعلينَ له المُؤتَمِرينَ به، وإذا نهى عن شيءٍ أن يكونَ أوَّلَ المُنتهينَ عنه؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٦٢ - ٣٦٤)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٩).

النُّفوسَ مَجبولةٌ على عدمِ الانتفاعِ بكلامِ مَن لا يعملُ بعلمِه، ولا يَنتَفِعُ به(١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ فيه ما يدُلُّ على أنَّ المُنتَقدينَ قِسمانِ: قِسمٌ ينتَقِدُ الشَّيءَ، ويقِفُ عند حدِّ النَّقدِ دون ارتقاءٍ إلى بيانِ ما يُصلِحُ المَنقودَ، وقِسمٌ ينتقِدُ ليبيِّنَ وجهَ الخطأ، ثم يُعقِبُه ببيان ما يُصلِحُ خَطأَه(٢).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ هذه الصيغةُ تفيدُ الحصرَ، فلا ينبغي للإنسانِ أن يتوكَّلَ على أحدٍ إلَّا على الله تعالى(٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ النَّدمَ على فِعلِ الفَسادِ والظُّلمِ- بالتَّوبةِ واستغفارِ الرَّبِّ تعالى- من أسبابِ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ(٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ بيانُ أنَّ وُدَّه سُبحانه هو لِمَن تابَ إليه وأنابَ، فلا يَستوحِش أهلُ الذُّنوبِ، ويَنفَرونَ منه؛ فإنَّه ودودٌ رحيمٌ بالمؤمنينَ، يحبُّ التَّوابين ويحِبُّ المتطهِّرينَ(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ﴾ سمَّوه باسمِه جفاءً وغِلظةً(٦).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢١).
(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٦٩).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٦).

ءَابَآؤُنَآ ﴾ لَمَّا كانت الصلاةُ أخَصَّ أعمالِه المُخالفةِ لمُعتادِهم، جعلوها المُشيرةَ عليه بما بلَّغَه إليهم من أمورٍ مُخالِفةٍ لمُعتادِهم[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ المقصودُ: بيانُ أنَّه مأمورٌ بذلك أمرًا يعُمُّ الأُمَّةَ وإيَّاه، وذلك شأنُ الشَّرائعِ، فخِطابُ الأمَّةِ يشمَلُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ما لم يدُلَّ دليلٌ على تخصيصِه بخلافِ ذلك، ففي هذا إظهارُ أنَّ ما نهاهم عنه ينهى أيضًا نفسَه عنه[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ دلالةٌ على أنَّه يُشترطُ فيمَن يَختارُ الإمامُ لمنصبِ الحِسْبَةِ[٣] أنْ يكونَ مُخلِصًا متجرِّدًا للنُّصحِ، فلا تكونُ له مصلحةٌ شخصيَّةٌ فيما يأمرُ أو يَنهى عنه، وإنَّما تكونُ غايتُه الإصلاحَ[٤].

٥- جَمَعَ قولُه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ بين الأصلينِ: التوكُّلِ (وهو الوسيلةُ)، وبين الإنابةِ (وهي الغايةُ)؛ فإنَّ العبدَ لا بُدَّ له مِن غايةٍ مطلوبةٍ، ووسيلةٍ مُوصلةٍ إلى تلك الغايةِ، فأشرفُ غاياتِه التي لا غايةَ له أَجَلُّ منها: عبادةُ ربِّه والإنابةُ إليه، وأعظمُ وسائلِه التي لا وسيلةَ له غيرُها البتَّةَ: التوكُّلُ على اللهِ والاستعانةُ به[٥]، وهذان الأصلانِ يجمعانِ الدِّينَ كلَّه[٦].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ لله تعالى، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى يحِبُّ أصحابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٤٤).
(٣) الحِسْبَة: منصبٌ كان يَتولَّاه فِي الدُّوَلِ الإسلامية رَئِيسٌ يُشرفُ على الشؤونِ العامَّة؛ مِن مراقبةِ الأسعارِ ورعايةِ الآدَابِ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٧١).
(٤) يُنظر: ((الحسبة)) لابن تيمية (ص: ٧٨).
(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٦).
(٦) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٣).

هذه الأعمالِ، فهو يحبُّ التَّوابينَ، وإنَّما يكونون توَّابينَ بعد الذَّنبِ، ففي هذه الحالِ يحبُّهم[(١)].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ بعد قولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ بيانُ مودَّتِه سُبحانه للمُذنِبِ إذا تاب إليه[(٢)].

٨- قال شعيبٌ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ما ألطَفَ اقترانَ اسمِ الودودِ بالرَّحيمِ وبالغفورِ؛ فإنَّ الرجُلَ قد يغفِرُ لِمَن أساء إليه ولا يحِبُّه، وكذلك قد يرحَمُ من لا يحِبُّ، والرَّبُّ تعالى يغفِرُ لعبدِه إذا تاب إليه، ويرحَمُه ويحِبُّه مع ذلك؛ فإنَّه يحِبُّ التوَّابينَ، وإذا تاب إليه عبدُه أحبَّه، ولو كان منه ما كان[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾

- جملةُ: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ فيه وصْفُهم لِشُعيبٍ عليه السَّلامُ بالوَصْفَين على طريقةِ التَّهكُّمِ، وإنَّما أرادوا بذلك وصْفَه بضِدَّيْهما[(٤)].

- وقد جاءت الجملةُ مؤكَّدةً بحرفِ (إنَّ)- في: ﴿إِنَّكَ﴾- ولامِ القسَمِ، وبصيغةِ القَصْرِ في جُملةِ: ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، وهي تعريفُ الجُزأَينِ (أنتَ- الحليمُ)؛ فاشتمَلَت على أربعةِ مؤكِّداتٍ[(٥)].

- وفي جملة ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ما يُعرَفُ بالتمكينِ أو ائتلافِ

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٩).
(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

الفاصلةِ، ويُسمِّيه بعضُهم المُلاءَمَة[١]؛ وذلك أنَّه لَمَّا تقدَّم في الآية ذِكرُ العبادةِ، وتلاه ذِكرُ التصرُّفِ في الأموالِ في قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾؛ اقتضَى ذلك ذِكرَ الحِلمِ والرُّشدِ على الترتيبِ؛ لأنَّ الحِلمَ العقلُ الذي يَصِحُّ به تكليفُ العباداتِ ويَحضُّ عليها، والرشدَ حُسنُ التصرُّفِ في الأموالِ؛ فكان آخِرُ الآيةِ مُناسِبًا لأوَّلِها مُناسَبةً معنويَّةً[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ...﴾ فيه مُراجعةٌ لطيفةٌ، واستِنْزالٌ حسَنٌ، واستِدْعاءٌ رقيقٌ، وهو ما يُسمَّى باستِدْراجِ المخاطَبِ؛ للبُلوغِ إلى الغرَضِ[٣].

- وحُذِف جوابُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ ولَم يُثبَتْ كما أُثبِتَ في قصَّةِ نوحٍ ولوطٍ؛ لأنَّ إثباتَه في القِصَّتَينِ دلَّ على مَكانِه، ومعنى الكلامِ يُنادي عليه[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ فيه إيرادُ حرْفِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ مع جَزْمِ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ بكَونِه على ما هو عليه مِن البيِّناتِ والحُجَجِ؛ لاعتبارِ حالِ

---

(١) التمكينُ (الملائمة): هو أن يُمَهَّد قبلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصلةُ مُمَكَّنةً في مكانها، مُستقرَّةً في قرارِها، مُطمئِنَّةً في موضعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقَةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلامِ كلِّه تَعلُّقًا تامًّا، بحيثُ لو طُرِحتْ لاختلَّ المعنى، واضطرَب الفَهمُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٨٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٨).

المخاطَبين ومُراعاةِ حُسنِ المحاورةِ معَهم[١].

- قولُه: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ على القول بأنَّ المرادَ بالرِّزقِ الحسَنِ هنا هو نِعمةُ النُّبوَّة؛ ففيه تعبيرُ شُعيبٍ عليه السَّلامُ عَن النُّبوَّةِ بالرِّزقِ؛ على وجْهِ التشبيهِ مُشاكَلةً لقولِهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ﴾؛ لأنَّ الأموالَ أرزاقٌ[٢].

- قولُه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾؛ لأنَّ انتِفاءَ إرادةِ المخالَفةِ إلى ما نَهاهم عنه مُجمَلٌ فيما يُريدُ إثباتَه مِن أضدادِ المنفيِّ، فبيَّنه بأنَّ الضِّدَّ المرادَ إثباتُه هو: الإصلاحُ في جميعِ أوقاتِ استطاعته بتَحْصيلِ الإصلاحِ؛ فالقَصْرُ قَصرُ قَلبٍ[٣]، وأفادَت صيغةُ القصرِ (إنْ... إلَّا) تأكيدَ ذلك؛ لأنَّ القَصْرَ قد كان يَحصُلُ بمجرَّدِ الاقتصارِ على النَّفيِ والإثباتِ، نحوُ أن يَقولَ: (ما أريدُ أن أُخالِفَكم، أُريدُ الإصلاحَ)[٤].

- قولُه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ الاستقبالِ ﴿أُنِيبُ﴾ على الماضي الأنسَبِ للتَّقرُّرِ والتَّحقُّقِ كما في ﴿تَوَكَّلْتُ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

(٣) القصر- في اصطلاح البلاغيين -: هو تخصيص شيء بشيء وحصره فيه، ويُسمَّى الأمر الأول: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنما زيد قائم، و: ما ضربت إلَّا زيدًا. وقصر القلب: أن يقلب المتكلم فيه حُكم السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلة معينة أو طرف معين، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧- ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٧).

والدَّلالةِ على الاستمرارِ[١].

- وقولُه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ يفيدُ الحصرَ، فيدُلُّ على أنَّه لا مآبَ للخَلقِ إلَّا إلى اللهِ تعالى[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ للأمرِ بالاستغفارِ والتَّوبةِ[٣].

- ولفظةُ: ﴿وَدُودٞ﴾ بِناءُ مُبالَغةٍ مِن وَدَّ الشَّيءَ، أي: أحَبَّه وآثَرَه[٤].

- وقولُه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، و﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ فيه تَفنُّنٌ في إضافةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ نفسِه مرَّةً، وإلى ضميرِ قومِه أخرى؛ لِتَذكيرِهم بأنَّه ربُّهم؛ كَيْلا يَستمِرُّوا على الإعراضِ، وللتَّشرُّفِ بانتِسابِه إلى مَخلوقيَّتِه[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٧).

الآيات (٩١-٩٥)

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَفْقَهُ﴾: أي: نفهمُ، ويقال: فقهتُ الكلام إذا فهمتَه حقَّ فهمِه، والفقهُ: هو التوصلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، وأصلُ (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشيءِ، والعلمِ به[٦].

﴿رَهْطُكَ﴾: أي: عشيرتُك وقومُك، وأصلُ (رهط): يدلُّ على تجمُّعٍ في النَّاسِ وغيرِهم[٧].

﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾: أي: لقتلناك رميًا بالحجارةِ، أو لَسَبَبْنَاك، وأصلُ (رجم): رميٌ بالحجارةِ[٨].

---

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١).

(٨) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((الكليات))

﴿ظِهْرِيًّا﴾: الظِّهْرِيُّ: كلُّ شَيءٍ تجعَلُه بظَهرٍ، أي: تَنساه، كأنَّك قد جعلتَه خلفَ ظَهرِك؛ إعراضًا عنه وتركًا له، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[١].

﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: طَريقتِكم التي أنتم عليها، تقولُ للرَّجُلِ إذا أمَرْتَه أن يَثبُتَ على حالِه: على مكانَتِك، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عن قومِ شُعَيبٍ أنَّهم قالوا له: يا شُعَيبُ لا نفهم كثيرًا ممَّا تقولُ، وإنَّا لَنراك فينا ضعيفًا، ولولا مُراعاةُ عَشيرتِك- الذين هم من أهلِ مِلَّتِنا- لرجمناك، وليس لك قَدْرٌ أو مكانةٌ في نفوسِنا. قال: يا قومِ أعشيرتي أعزُّ وأكرَمُ عليكم من اللهِ؟ وجعلتُموه خلفَ ظُهورِكم، لا تأتَمِرونَ بأمرِه، ولا تنتَهونَ بنهيِه، إنَّ ربِّي بما تَعملونَ مُحيطٌ، لا يخفى عليه من أعمالِكم مِثقالُ ذَرَّةٍ، وسيُجازيكم عليها.

ويا قومِ اعمَلوا على طريقتِكم وحالتِكم، إنِّي عاملٌ مُثابِرٌ على طريقتي ودِيني، سوف تعلمونَ مَن مِنَّا يأتيه عذابٌ يذِلُّه، ومَن منَّا كاذبٌ في قولِه، أنا أم أنتم؟ وانتَظِروا ما سيَحُلُّ بكم، إنِّي معكم من المُنتَظِرينَ، ولَمَّا جاء أمرُنا بإهلاكِ قَومِ شُعَيبٍ نجَّينا رسولَنا شُعيبًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منَّا، وأخذتِ الذين ظلَموا الصَّيحةُ من السَّماءِ فأهلكَتْهم، فأصبحوا في ديارِهم باركينَ على رُكَبِهم، مُنكبِّينَ على وُجوهِهم؛ ميِّتينَ، لا حِرَاك بهم، كأنْ لم يُقيموا في ديارِهم وقتًا من الأوقاتِ، ألا بُعدًا لـمَدينَ- إذ أهلَكها اللهُ وأخزاها- كما بَعِدَت قبلَهم ثمودُ.

للكفوي (ص: ٤٨٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٤٥٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا رأى قومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ أنَّه لا يَنزِعُ عنهم، ولم يَقدِروا لكلامِه على جوابٍ؛ أيأسُوه من الرُّجوعِ إليه بأن أنزَلوا أنفُسَهم- عنادًا في الفَهمِ لهذا الكلامِ الواضحِ جِدًّا- إلى عِدادِ البهائمِ، وهَدَّدوه[١].

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾.

أي: قال قومُ شُعَيبٍ: يا شُعَيبُ لا نفهَمُ كثيرًا ممَّا تَعِظُنا وتُخبِرُنا به[٢].

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

أي: وإنَّا لنراك فينا ضعيفًا، لا قُوَّةَ لك تقدِرُ بها على أنْ تمنعَ نفسَكَ مِنَّا[٣].

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦).

قال القرطبي: (﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهمُ؛ لأنَّك تحمِلُنا على أمورٍ غائبةٍ مِن البعث والنُّشورِ، وتَعِظُنا بما لا عهدَ لنا بمِثلِه. وقيل: قالوا ذلك إعراضًا عن سماعِه، واحتقارًا لكلامِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٩٠)، ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٧).

قيل في معنى ﴿ضَعِيفًا﴾ أي: ليس لك جندٌ وأعوانٌ تقدرُ بها على مخالفتِنا، وقيل: المعنى: لست من الكبارِ والرؤساءِ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

أي: ولولا معَزَّتُنا لِعَشيرتِك وجماعتِك -الذين هم على دينِنا- لرجمناك[(١)].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾.

أي: وما أنت علينا بكَريمٍ، ولا مَعَزَّةَ لك عندنا ولا قدْرَ، ولا نُبالي بإذلالِك[(٢)].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال شعيبٌ لقومِه: يا قومِ أعشيرتي أعظَمُ مِن اللهِ في قُلوبِكم وأعَزُّ عليكم منه، فتركتُم رجمي لأجلِ عَشيرتي وليس لله عزَّ وجلَّ[(٣)]؟!

﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾.

أي: وجعلتُم اللهَ خلفَ ظُهورِكم مُستخِفِّينَ به، لا تخافونَ منه، ولا تُطيعونَه، ولا تعَظِّمونَه[(٤)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

قيل: معنى ﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾: لقتلناك رجمًا بالحجارةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١).

وقيل المراد: لسَبَبْناك. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

قال الواحدي: (وجميعُ أهلِ المعاني قالوا: الكِنايةُ في قولِه: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ تعودُ إلى أمرِ اللهِ، وما جاءَهم به شُعَيبٌ مِن الله تعالى، وهو في الظَّاهِرِ يعودُ على اسمِ اللهِ تعالى، ولكنَّه يُعرَفُ

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي مُحيطٌ عِلمًا بجميعِ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[1].

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا يئِسَ نبيُّ الله شُعيبٌ مِن استجابةِ قَومِه له، وأعيَوه، وعجَزَ عنهم، قال[2]:

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾.

أي: ويا قومِ، اعمَلوا على حالِكم وطريقتِكم التي أنتم عليها، إنِّي عامِلٌ على طريقتي وديني[3].

كما قال سُبحانَه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ

بالمعنى: أنَّ المرادَ منه الأمرُ، كما تقولُ العرَبُ: جعلتَني خَلْفَ ظَهرِك ودَبْرَ أُذُنِك؛ يريدونَ: جعلتَ أمري وحاجَتي وكَلامي). ((البسيط)) (١١/ ٥٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٢) ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾.

أي: سوفَ تعلمونَ مَن يأتيه عذابٌ من اللهِ يُذِلُّه، ومَن هو كاذِبٌ منا، أنا أم أنتم[(١)]؟

﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾.

أي: وانتَظِروا نزولَ العذابِ، إنِّي معكم مُنتَظِرٌ نُزولَه بكم[(٢)].

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾.

أي: ولَمَّا أتى عذابُنا نجَّينا شُعَيبًا والمؤمنينَ معه بفَضلٍ منَّا عليهم[(٣)].

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: وأصابت الصَّيحةُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ، فصاروا في مَنازِلِهم لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، ومُنكَبِّينَ على وُجوهِهم صَرْعى، خامِدينَ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ إمَّا أن يُقصَدَ الإخبارُ عن الرحمةِ التي لحِقَت شُعيبًا لنبوَّتِه وحُسنِ عَمَلِه وعمَلِ متَّبعيه، وإمَّا أن يُقصَدَ أنَّ التَّنجيةَ لم تكنْ إلَّا بمجَرَّدِ رحمةٍ، لا بعمَلٍ من أعمالِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٤).

حياةَ فيهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[الأعراف: ٩١].

وقال سُبحانه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ﴾.

أي: كأنَّ قومَ شُعَيبٍ لَمَّا جاءهم العذابُ لم يعيشُوا في ديارِهم، ولم يتمتَّعوا فيها[(٢)].

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.

أي: ألا أبعدَ اللهُ مَدْيَنَ مِن رحمتِه، كما بَعِدَت مِن قَبلِهم ثمودُ[(٣)].

كما قال تعالى عن ثمود: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

أنَّه تعالى إنَّما خَلَّصَه من ذلك العذابِ لِمَحضِ رحمتِه؛ تنبيهًا على أنَّ كُلَّ ما يصِلُ إلى العبدِ، فليس إلَّا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] من يتدَبَّرْ ما ذكَرَه اللهُ عن أعداءِ الرُّسُلِ مِن نفيِ فِقهِهم وتكذيبِهم، يجِدْ بعضَ ذلك فيمن أعرَضَ عن ذِكرِ اللهِ وعن تدبُّرِ كتابِه، واتَّبَع ما تتلوه الشَّياطينُ، وما تُوحيه إلى أوليائِها(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ فيه أنَّ اللهَ يَدفَعُ عن المؤمنينَ بأسبابٍ كثيرةٍ قد يعلمونَ بعضَها، وقد لا يعلمونَ شَيئًا منها، وربَّما دفع عنهم بسبَبِ قَبيلتِهم أو أهلِ وَطنِهم الكُفَّارِ، وأنَّ هذه الرَّوابِطَ التي يحصُلُ بها الدَّفعُ عن الإسلامِ والمُسلمينَ لا بأسَ بالسَّعيِ فيها، بل ربَّما تعيَّنَ ذلك؛ لأنَّ الإصلاحَ مَطلوبٌ على حسَبِ القُدرةِ والإمكانِ(٣).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ الرَّجمُ: القتلُ بالحِجارةِ رَميًا -على أحدِ وجْهَي التفسيرِ- وهو قِتلةُ حَقارةٍ وخِزيٍ، وفيه دَلالةٌ على أنَّ حُكمَ من يخلعُ دينَه الرَّجمُ في عوائِدِهم(٤).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ ذكَرَ هاهنا أنَّه أتَتهم صيحةٌ، وفي الأعرافِ رَجفةٌ، وفي الشُّعَراءِ عذابُ يومِ الظُّلَّة،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٣).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٠).

وهم أمَّةٌ واحدةٌ[١]، اجتمع عليهم يومَ عذابِهم هذه النِّقَمُ كُلُّها، وإنَّما ذُكِرَ في كلِّ سياقٍ ما يُناسِبُه، ففي الأعرافِ لَمَّا قالوا: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨] ناسبَ أن يُذكَرَ هناك الرَّجفةُ، فرجَفَت بهم الأرضُ التي ظَلَموا بها، وأرادوا إخراجَ نبيِّهم منها، وهاهنا لَمَّا أساؤوا الأدبَ في مقالتِهم على نبيِّهم ناسب ذِكر الصَّيحةِ التي أسكَتَتْهم وأخمَدَتهم، وفي الشُّعَراءِ لَمَّا قالوا: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] قال: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وهذا من الأسرارِ الغريبةِ الدَّقيقةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾

---

(١) قال الشنقيطي: (والعلماءُ مختلفونَ: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم، فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ، وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ، كانوا يعبدونَ أيكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللَّه سماهم مرةً بنسبهم «مدين» ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيره، وَمِمَّن اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ.
والذين قالوا: إنهما أُمَّتانِ قالوا: في «مدين» قال: إنَّه أخوهم حيث قال: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ [الأعراف: ٨٥] أما أصحابُ الأيكةِ فلم يَقُلْ: إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧] ولم يقلْ: أخوهم شعيبٌ.
وأُجِيب عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَر مَدينَ ذَكَر الجدَّ الذي يشملُ القبيلةَ، ومِنْ جُملتِها شعيبٌ، ذكر أنه أخوهم من النسبِ. أما قولُه: ﴿أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يعبدونها، ولَمَّا ذَكَرهم في مقامِ الشركِ وعبادةِ غيرِ اللَّهِ لم يُدْخِلْ معهم شعيبًا في ذلك وهم أمةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم، واللَّهُ أعلمُ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧).

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فيه تأكيدُهم للكلامِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ مُبالَغةً في تنزيلِه مَنزِلةَ مَن يَجهَلُ أنَّهم يَعلَمون ذلك فيه، أو مَن يُنكِرُ ذلك[١].

- وجملةُ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ مؤكِّدةٌ لمضمونِ قولِه: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾؛ لأنَّه إذا انتفَى كونُه قويًّا في نُفوسِهم، تعَيَّن أنَّ كَفَّهم عن رَجْمِه -مع استِحْقاقه إيَّاه في اعتقادِهم- ما كان إلَّا لأجلِ إكرامِهم رَهْطَه، لا للخوفِ منهم، وعُطِفَت هذه الجملةُ على الَّتي قبْلَها -مع أنَّ حقَّ الجملةِ المؤكِّدةِ أنْ تُفصَلَ ولا تُعطَفَ- لأنَّها مع إفادتِها تأكيدَ مضمونِ الَّتي قبْلَها أفادَت أيضًا حُكمًا يَخُصُّ المخاطَبَ؛ فكانت بهذا الاعتبارِ جَديرةً بأن تُعطَفَ على الجُمَلِ المفيدةِ أحوالَه مِثلُ جملةِ ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ والجُمَلِ بَعدَها[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَرَهۡطِيٓ﴾ إنكاريٌّ؛ أي: اللهُ أعَزُّ مِن رَهْطي، وهو كنايةٌ عن اعتزازِه باللهِ لا برَهْطِه، فلا يَريبُه عدَمُ عِزَّةِ رَهْطِه عليهم، وهذا تهديدٌ لهم بأنَّ اللهَ ناصِرُه؛ لأنَّه أرسَلَه فعِزَّتُه بعِزَّةِ مُرْسِلِه[٣]، وإنَّما أنكَر عليهم أعَزِّيَّةِ رهطِه منه تعالى مع أنَّ ما أثبَتوه إنَّما هو مُطْلَقُ عِزَّةِ رهطِه، لا أعَزِّيَّتهم منه عزَّ وجلَّ، مع الاشتِراك في أصلِ العزَّة؛ لِتثنيةِ التَّقريع، وتَكْريرِ التَّوبيخِ؛ حيث أنكَر عليهم أوَّلًا ترجيحَ جَنْبةِ الرَّهطِ على جَنْبةِ اللهِ تعالى،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وثانيًا بنَفْيِ العِزَّةِ بالمرَّةِ(١).

- قولُه: ﴿ظِهۡرِيًّا﴾ فيه كِنايةٌ عن النِّسيانِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الموضوعَ بالوَراءِ يُنْسى؛ لقِلَّةِ مُشاهَدتِه؛ فهو يُشبِهُ الشَّيءَ المجعولَ خَلْفَ الظَّهرِ في ذلك(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ استئنافٌ، أو تعليلٌ لِمَفهومِ جُملةِ ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الَّذي هو توكُّلُه عليه واستِنْصارُه به، وفيه تعريضٌ بالتَّهديدِ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾

- قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ ذَكَر عمَلَهم على مكانتِهم وعمَلَه على مكانتِه، ثم أتْبعه ذِكرَ عاقبةِ العاملينَ منه ومنهم، وكان الظاهرُ أنْ يقولَ: (مَن يأتيه عذابٌ يُخزيه ومَن هو صادقٌ)؛ حتَّى ينصرِفَ ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ إلى الجاحِدين، و(مَن هو صادقٌ) إلى النبيِّ المبعوثِ إليهم؛ ولكنَّهم لَمَّا كانوا يَدْعُونه كاذبًا، قال: ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ يعني: في زعْمِكم ودَعواكم؛ تَجهيلًا لهم. وقيل: إنَّ الكَلامينِ ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ جميعًا لهم؛ فالأوَّل مُضمَّنٌ ذِكرَ جُرمِهم الذي يُجازون به، وهو الكذبُ، ويكون مِن بابِ عَطف الصِّفةِ على الصِّفةِ، والموصوفُ واحدٌ، كما تقولُ لِمَن تُهدِّدُه: ستَعلمُ مَن يُهانُ ومَن يُعاقبُ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٥١-١٥٢).

والمخاطبُ هو المقصودُ في الكلامَين؛ فإذا ثبَت صَرْفُ الكلامينِ إليهم كان فيه دَلالةٌ على ذِكرِ عاقبتِه هو؛ لأنَّ أحدَ الفريقين إذا كان مُبطِلًا فالآخَرُ هو المحقُّ قطعًا؛ فذِكرُه لإحْدى العاقبتَينِ صريحًا يُفهِمُ ذِكرَ الأخرى تَعريضًا، والتعريضُ في كثيرٍ مِن مواضعِه أبلغُ وأوقعُ من التصريحِ، وهذا مِنه، ويَدُلُّ على أنَّ الكَلامَين لهما أنَّ عاقِبةَ أمْرِ شُعيبٍ لم تُذكَرْ؛ استِغْناءً عنها بذِكْرِ عاقِبَتِهم، وكذلك قولُه في سورةِ الأنعامِ: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾؛ فذكَر هناك أيضًا إحْدى العاقِبَتَين؛ لأنَّ المرادَ بهذه العاقبةِ عاقبةُ الخيرِ، ومَتى أُطلِقَت فلا يُعْنى إلَّا ذلك، كقولِه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واستَغْنى عن ذِكْرِ مُقابِلَتِها، وهنا في آيةِ هودٍ فقد ذكَر عاقبتَهم، وهي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، واستَغْنى بها عن عاقِبتِه، فلْيُتأمَّلْ هذا؛ فإنَّه تُحفةٌ لِمَن همُّه نَظْمُ دُررِ الكِتابِ العزيزِ، وضَمِّ بعضِها إلى بَعضٍ[٤].

- والأمرُ في ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ للتَّهديدِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾، وقال في (الأنعام): ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، وكذلك في سورةِ (الزُّمرِ) في قولِه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - الحاشية)) (٢/ ٤٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٢).

مُّقِيمٌ ﴾ [الزمر: ٣٩-٤٠]؛ فأُفرِدَت آيةُ (هودٍ) هذه بمَجيءِ حرْفِ التَّسويفِ (سوف) بلا فاءِ التَّعقيبِ، بخلافِ الأُخرَيَينِ مع اتِّفاقِ الآياتِ الثَّلاثِ في التَّهديدِ، وحرْفِ التَّسويفِ، ووجهُ ذلك: أن قولَه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ بالفاءِ حيثُ وقَع، وفى هودٍ: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ بغيرِ فاءٍ؛ لأنَّه تقدَّم فى هذه السورةِ وغيرِها ﴿قُلۡ﴾ فأمَرهم أمرَ وعيدٍ بقولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ أى: اعملوا فستجزَونَ، فوقَع جوابًا بالأمرِ قبْلَه، ولم يكُنْ فى (هودٍ) (قل) فصار استئنافًا؛ لأنَّه لم يتَقدَّمْه أمرٌ. وقيل: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ فى سورةِ (هودٍ) صفةٌ لـ ﴿عَٰمِلٌ﴾، أَى: إِنِّى عاملٌ سوفَ تعلمون، فحَذَف الفاءَ[1].

وقيل: لم يُقرَنْ حرفُ (سَوف) في قولِه: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ في هذه الآيةِ بالفاءِ، وقُرِن في آيةِ سورةِ (الأنعام) بالفاءِ مِن قولِه تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٥]؛ لأنَّ جُملةَ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ هنا جُعِلَت مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ إذ لَمَّا فاتَحَهم بالتَّهديدِ كان ذلك يُنشِئُ سُؤالًا في نُفوسِهم عمَّا يَنشَأُ على هذا التَّهديدِ، فيُجابُ بالتَّهديدِ بـ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾؛ ولكونِه كذلك كان مُساويًا للتَّفريعِ بالفاءِ الواقعِ في آيةِ (الأنعامِ) في المآلِ، ولكنَّه أبلَغُ في الدَّلالةِ على نَشْأةِ مَضمونِ الجملَةِ المستأنَفةِ عن مضمونِ الَّتي قبْلَها؛ ففي خِطابِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ قومَه مِن الشِّدَّةِ ما ليس في الخِطابِ المأمورِ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سورةِ (الأنعام)؛ جَريًا على ما أرسَل اللهُ به رَسولَه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن اللِّينِ لهم: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكذلك التَّفاوُتُ بين مَعمولَيْ ﴿تَعۡلَمُونَ ﴾؛ فهو هنا غَليظٌ شديدٌ:

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٧٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ١٩٨). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل)) للإسكافي (٢/ ٥٥١- ٥٥٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧١- ١٧٢).

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾، وهو هنالِك ليِّنٌ: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾[(١)].

- وأيضًا مِن الفَرْقِ بينَ إدخالِ الفاءِ ونَزْعِها في ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: أنَّ إدخالَ الفاءِ وصْلٌ ظاهرٌ بحَرْفٍ موضوعٍ للوَصْلِ، ونَزْعَها وصْلٌ خفيٌّ تقديريٌّ بالاستِئْنافِ الَّذي هو جَوابٌ لسُؤالٍ مقدَّرٍ، فيَجعَلُه جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: أنَّه لَمَّا قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾، فكأنَّهم قالوا: فماذا يَكونُ إذا عَمِلنا نحنُ على مَكانتِنا وعَمِلتَ أنت؟ فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ فوصَل تارةً بالفاءِ وتارةً بالاستئنافِ؛ للتَّفنُّنِ في البلاغةِ، كما هو عادةُ البُلَغاءِ، وأقوى الوَصْلَين وأبلَغُهما الاستئنافُ، وهو بابٌ مِن أبوابِ عِلمِ البيانِ، تتَكاثَرُ مَحاسِنُه؛ فظهَر أنَّ حذْفَ حرْفِ الفاءِ هاهنا أكمَلُ في بابِ الفظاعةِ والتَّهويلِ[(٢)].

- قولُه: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فيه وصْفُ العذابِ بالإخزاءِ؛ تَعْريضًا بما أَوعَدوا شُعيبًا عليه السَّلامُ به مِن الرَّجْمِ؛ فإنَّه مع كونِه عَذابًا فيه خِزْيٌ ظاهِرٌ، حيث لا يكون إلَّا بجنايةٍ عَظيمةٍ تُوجِبُه[(٣)].

- قولُه: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: في زيادةِ ﴿مَعَكُمْ﴾ إظهارٌ مِنه عليه السَّلامُ لكَمالِ الوُثوقِ بأمرِه[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ولفظةُ: ﴿رَقِيبٌ﴾ على وَزْنِ فَعيلٍ؛ للمُبالَغةِ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ فيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث ساق قصَّةَ عادٍ وقصَّةَ مَدْيَنَ بالواوِ، وساقَ الوُسْطَيَين (قِصَّتَيْ صالحٍ ولوطٍ) بالفاءِ؛ لأنَّ الوُسْطَيَين وقَعَتا بعد ذِكْرِ الوعدِ، وذلك قولُه: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾؛ فجيءَ بالفاءِ الَّذي هو للتَّسْبيبِ، كما تقولُ: وعَدتُه، فلمَّا جاء الميعادُ كان كَيْتَ وكَيْتَ، وأمَّا الأُخْرَيانِ فلَم تَقَعا بتِلك المثابةِ، وإنَّما وقَعَتا مُبتدَأتَين؛ إذْ لم يَسبِقْه ذِكْرُ وعدٍ يَجْري مَجْرى السَّببِ له؛ فكان حقُّهما أن تُعطَفا بحرفِ الجمعِ على ما قَبْلَهما، كما تُعطَفُ قصَّةٌ على قصَّةٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مَوضِعَ المضمَرِ -حيث لم يَقُلْ: (وأخَذَتْهم)-؛ تسجيلًا عليهم بالظُّلمِ، وإشعارًا بأنَّ ما أخَذَهم إنَّما أخَذَهم بسَببِ ظُلمِهمُ الَّذي فُصِّل فيما سبَق[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ فيه العُدُولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لِيَكونَ أدَلَّ على طُغْيانِهم الَّذي أدَّاهم إلى هذه المرتَبةِ، ولِيَكونَ أنْسَبَ بمَنْ شُبِّهَ هَلاكُهم بهَلاكِهم وهم ثَمودُ، وإنَّما شُبِّه هَلاكُهم بهَلاكِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٧).

لأنَّهما أُهلِكَتا بنَوعٍ من العذابِ، وهو الصَّيحةُ[١].

- قولُه: ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ فيه تَشبيهُ (البعد) الَّذي هو انقِراضُ مَدْينَ بانقراضِ ثَمودَ، ووَجهُ الشَّبَهِ التَّماثُلُ في سبَبِ عِقابِهم بالاستئصالِ، وهو عَذابُ الصَّيحةِ، ويجوزُ أن يكونَ المقصودُ من التَّشبيهِ الاستِطْرادَ بذَمِّ ثَمودَ؛ لأنَّهم كانوا أشَدَّ جُرأَةً في مُناوَأَةِ رُسلِ اللهِ تعالى، فلمَّا تَهيَّأ المقامُ لاختِتامِ الكلامِ في قَصصِ الأممِ البائدةِ؛ ناسَب أن يُعادَ ذِكرُ أشَدِّها كُفرًا وعِنادًا، فشُبِّه هُلْكُ مَدْينَ بهُلْكِهم[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٤).

الآيات (٩٦-٩٩)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿سُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا(١).

﴿ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾: أي: المَدخَلُ المَدخولُ، وأصلُ (ورد): يدلُّ على المُوافاةِ إلى الشَّيءِ(٢).

﴿ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾: أي: العطاءُ المُعطَى، والعونُ المُعانُ، وأصلُ (رفد): يدلُّ على مُعاونةٍ ومُظاهرةٍ بالعَطاءِ وغيرِه(٣).

المعنى الإجماليّ:

يُخبِرُ الله تعالى أنَّه قد أرسَلَ مُوسى بحُجَجٍ مِن عندِه سُبحانَه، ومُعجزةٍ باهرةٍ ظاهرةٍ، دالَّةٍ على صِدقِه ونبُوَّتِه، إلى فِرعَونَ وأتباعِه وأشرافِ قَومِه، فاتَّبَعوا طريقةَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٢). ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

فِرعونَ، وما هو عليه مِن الكُفرِ، وتَركوا الإيمانَ بما جاءهم به موسى، وما طريقُ فِرعونَ وما هو عليه بسديدٍ ولا حميدِ العاقبةِ، ولا يدعو إلى خيرٍ، يَتقدَّمُ فِرعونُ قَومَه يومَ القيامةِ حتى يُدخِلَهم النَّارَ، فكما كان قُدوتَهم في الضَّلالِ والكُفرِ في الدُّنيا، فكذلك هو قُدوتُهم وإمامُهم في النَّارِ، وقَبُحَ المَدخلُ الذي يدخُلونَه! وأتبَعَهم اللهُ في هذه الدُّنيا طردًا وبُعدًا عن الرَّحمةِ، وكذلك يومَ القيامةِ، وبِئسَ العطاءُ المُعطَى؛ حيث ترادَف عليهم لعنةٌ في الدُّنيا، ولعنةٌ في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا نبيَّنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالةِ على صِدقِه- كالعصا، واليدِ ونحوِهما من الآياتِ- وبحُجَّةٍ ظاهرةٍ؛ ليؤمِنوا بالله وحدَه[1].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: أرسَلْناه إلى فِرعونَ وأشرافِ قَومِه، فاتَّبعوا مَنهجَ فِرعونَ وطَريقتَه في الغَيِّ والضَّلالِ، وكفَروا باللهِ ورَسولِه[2].

﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

أي: وما مَنهَجُ فِرعونَ بصوابٍ يهدي النَّاسَ إلى الهُدى والخيرِ والصَّلاحِ، وإنَّما هو جَهلٌ وضَلالٌ، وكُفرٌ وعِنادٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير))

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

أي: يتقدَّمُ فِرعونُ قَومَه يومَ القيامةِ، فيَمضي بهم إلى النَّارِ فيَدخُلونَها معه[1].

﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

أي: وبئسَ المَدخَلُ الذي يدخُلونَه[2].

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

أي: وأتبَعَهم اللهُ في هذه الدُّنيا -مع غَرقِهم في البحرِ- لعنةً، ويومَ القيامةِ يُلعَنونَ لَعنةً أخرى[3].

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

أي: بئسَ ما اجتَمع لهم، وترادَف عليهم؛ حيث ترافَدَت عليهم لعنتانِ مِن اللهِ؛ لعنةُ الدُّنيا، ولَعنةُ الآخرةِ[4].

(٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ العِبرةُ في هذه الآياتِ: أنَّه لا يزالُ يوجَدُ في البشَرِ فَراعنةٌ يَغوونَ النَّاسَ ويستخِفُّونَهم ويَستعبِدونَهم، فيُطيعونَهم، ويَذِلُّونَ لهم ذُلَّ العبدِ لسَيِّده، والحيوانِ لمالِكه، ولم يَستفيدوا شيئًا من هدايةِ القرآنِ ورُشدِه، وتجهيلِه لقومِ فِرعونَ في اتِّباعِ أمْرِه، مع وَصفِه بقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وبيانِ أنَّه كان سببًا لإتْباعِهم لعنةً في الدُّنيا ولعنةً يومَ القيامةِ، وأنَّه سيقودُهم في الآخرةِ إلى النَّارِ، كما قادهم في الدُّنيا إلى الغَيِّ والفَسادِ، ومنهم من يدَّعونَ الإسلامَ، ولم يفقَهوا قولَ الله تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في آيةِ مُبايعةِ النِّساءِ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقولَه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ، إنَّما الطاعةُ في المعروفِ))[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ فرعونَ مات كافرًا، ووجهُ ذلك: إخبارُه سبحانَه عن فرعونَ أنَّه يَقدُمُ قومَه -ولم يقُلْ: يَسوقُهم- وأنَّه أورَدَهم النَّارَ، ومعلومٌ أنَّ المتقدِّمَ إذا أَوردَ المتأخِّرينَ النَّارَ، كان هو أوَّلَ مَن يَردُها، وإلَّا لم يكُنْ قادِمًا، بل كان سائِقًا؛ يوضِّحُ ذلك أنَّه قال سُبحانَه: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ فعُلِمَ أنَّه وهُم يَرِدونَ النَّارَ؛ وأنَّهم جميعًا ملعونونَ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢٦).
والحديث أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠) واللفظ له.
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ لَمَّا كان فِرعونُ مَوصوفًا بعِظَمِ الحالِ وكَثرةِ الجُنودِ والأموالِ، وضَخامةِ المَملكةِ؛ حقَّرَ تعالى دُنياه بتَحقيرِ جميعِ الدُّنيا التي هي منها، بإسقاطِها في الذِّكرِ؛ اكتفاءً بالإشارةِ إليها[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بـ (قَدْ)[2].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (غافرٍ): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، وقال في سورةِ (الزُّخرُفِ): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، وقال في سورةِ (المؤمنون): ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٧]، وفي سورةِ (الأعرافِ): ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وفي سورةِ (يونُسَ): ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥]؛ فورَد في سورةِ (هودٍ) وفي سورةِ (المؤمنون) وسورةِ (غافِرٍ) زيادةُ قولِه: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، ولم ترِدْ هذه الزِّيادةُ في السُّوَرِ الثَّلاثِ الأُخَرِ، وورَد في سُورةِ (يونُسَ) وسورةِ (المؤمنون) ذِكْرُ تأييدِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

موسى بأخيه هارونَ عليهما السَّلامُ، ولم يَرِدْ ذلك في غيرِهما، وانفرَدَت سورةُ (المؤمِنون) بالجَمْعِ بينَ تأييدِه عليه السَّلامُ بأخيه وسُلطانٍ مُبينٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه حيث يُذكَرُ سُوءُ ردِّ المرسَلِ إليهم، وقُبْحُ جَوابِهم، يُقابَلُ أبَدًا بتأييدِه بأخيه أو تَعضيدِه بالآياتِ؛ ممَّا يَقتَضي القَهْرَ والإرغامَ، وهو المعبَّرُ عنه بـ (السُّلطانِ المبينِ)؛ فيَكونُ ذلك مُقابَلةً لِشَنيعِ مُجاوَبتِهم وسوءِ رَدِّهم بالجملةِ، فإذا اجتمَع إفصاحُهم بالتَّكذيبِ واستكبارُهم، جَمَع في التَّهديدِ المتقدِّمِ بينَ التَّأييدِ بهارونَ وسلطانٍ مبينٍ، وحيث يُصرِّحُ بالتَّكذيبِ أو ما يُعْطيه بَيانًا كقولِه في سورةِ هودٍ: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ يُقدَّمُ ذلك التَّأييدُ بـ (السُّلطانِ المبينِ)، وحيثُ تُذكَرُ صِفَتانِ مُحتويتَانِ على تكذيبٍ مِن غيرِ إفصاحٍ، يُقدَّمُ ذِكْرُ التَّأييدِ بهارونَ عليه السَّلامُ، وما كان دونَ ما ذُكِر لم يُذكَرْ هارونُ ولا السُّلطانُ المبينُ. أمَّا حيثُ لم يَرِدْ ذِكرُ السُّلطانِ، فنَجِدُ جَوابَهم في ذلك دونَ ما تقدَّم مِن التَّشديدِ، كقَولِهم في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وقوله في سورةِ (الزُّخرُفِ): ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧]؛ فليس موقِعُ جَوابِهم في هاتَين السُّورتَين كمَوقِعِ ما تَقدَّم في الآيتينِ؛ فنُوسِبَ بينَ طرَفَي الادِّعاءِ والجوابِ[1].

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه لَمَّا قال في سُورةِ (هود): ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾، وقال في سورةِ غافرٍ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، وقال في سورةِ (الزخرف): ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، جاء في الآيتَينِ المتقدِّمَتين مع ذِكْرِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٣-٢٦٤).

السُّلطانِ المبينِ، ولم يَجِئْ في الآيةِ الأخيرةِ إلَّا الآياتُ وحْدَها؛ لأنَّ الآياتِ هي الأَماراتُ الَّتي يُكتَفى بها في صِدْقِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ، وبها تقومُ الحُجَّةُ على مَن تُبعَثُ إليهم، والسُّلطانُ المبينُ هو الحُجَجُ القاهرةُ التي تَقهَرُ القومَ، كأنواعِ العذابِ الَّتي أُنزِلَت على قومِ موسى عليه السَّلامُ وكانت عندَ قولِه؛ فلمَّا كان القصدُ في الآيتَينِ المتقدِّمتَين ذِكْرَ جُملَةِ أمْرِهم إلى مُنتَهى حالِهم مِن هلاكِ الأبدِ، انطوَتْ تلك الجملةُ على جَميعِ ما احتجَّ به عليهم إلى أنْ زال التَّكليفُ عنهم، وأخبَرَ عن مُستقَرِّهم مِن العقابِ الدَّائمِ عليهم؛ فذكَر في الآيتَين جَميعَ ما احتجَّ به عليهم مِن الآياتِ الَّتي سَخِروا بها عندَ رؤيتِها، والآياتِ الَّتي فَزِعوا إلى مَسألتِه عندَ مُشاهَدتِها في كَشْفِها. وأمَّا الآيةُ الثَّالثةُ الَّتي اقتصَر فيها على ذِكْرِ (آيَاتِنَا) دونَ (السُّلْطَانِ الْمُبِينِ) وهي قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦- ٤٧]، فلم يَكُنِ القَصدُ إلى ذِكْرِ جُملَةٍ ممَّا عُومِلوا به في الدُّنيا وانتهائِه بهم إلى عذابِ الأخرى، بل كان بعدَه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]؛ فاقتَصَّ ما عُومِلوا به حالًا بعدَ حالٍ إلى أن أُهلِكوا في الدُّنيا، حيث قال: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥- ٥٦].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾

- عقَّب ذِكْرَ إرسالِ موسى عليه السَّلامُ بذِكْرِ اتِّباعِ الملأِ أمْرَ فِرعونَ؛ لأنَّ اتِّباعَهم أمْرَ فِرعَونَ حصَل بأثَرِ الإرسالِ؛ ففُهِم منه أنَّ فِرعونَ أمَرَهم بتَكْذيبِ تلك الرِّسالةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

- قولُه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فيه تَخصيصُ مَلأِ فِرعونَ بالذِّكرِ، مع عُمومِ رِسالةِ مُوسَى عليه السَّلامِ لقَومِه كافَّةً؛ لأصالةِ هؤلاءِ الملأِ في الرأيِ، وتَدبيرِ الأمورِ واتِّباعِ غيرِهم لهم في الوُرودِ والصُّدورِ[1].

- واقتُصِرَ هنا على ذِكْرِ شَأنِ ملَأِ فِرعونَ -حيثُ قال: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ...﴾- ولم يُصرِّحْ بكُفرِ فِرْعونَ بآياتِ اللهِ تعالى، وانهِماكِه فيما كان عليه مِن الضَّلالِ والإضلالِ؛ للإيذانِ بوُضوحِ حالِه؛ فكأنَّ كُفرَه وأمْرَ ملَئِه بذلك أمرٌ محقَّقُ الوُجودِ غيرُ مُحتاجٍ إلى الذِّكرِ صَريحًا، وإنَّما المحتاجُ إلى ذلك شأنُ مَلئِه المتردِّدين بينَ هادٍ إلى الحقِّ وداعٍ إلى الضَّلالِ، فنَعى عليهم سوءَ اختيارِهم[2].

- وفي قولِه: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ إيرادُ الفاءِ في اتِّباعِهم المترتِّبِ على أمرِ فِرعونَ المبنيِّ على كفرِه المسبوقِ بتَبليغِ الرِّسالةِ؛ للإشعارِ بمُفاجأَتِهم في الاتِّباعِ، ومُسارَعةِ فِرعونَ إلى الكُفرِ وأمْرِهم به؛ فكأنَّ ذلك كلَّه لم يتَراخَ عن الإرسالِ والتَّبليغِ، بل وقَع جميعُ ذلك في وقتٍ واحدٍ، فوقَع إثرَ ذلك اتِّباعُهم[3].

- قولُه: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -حيث لم يَقُلْ: و(أَمْرُه)- فأظهَر اسْمَ فِرعونَ في المرَّةِ الثَّانيةِ والمرَّةِ الثَّالثةِ دونَ الضَّميرِ؛ للتَّشهيرِ بهم، والإعلانِ بذَمِّه، وهو انتفاءُ الرُّشدِ عن أمرِه، ولزيادةِ تَقْبيحِ حالِ المتَّبِعين؛ فإنَّ فرعونَ عَلَمٌ في الفسادِ والإفسادِ، والضَّلالِ والإضلالِ؛ فاتِّباعُه لِفَرْطِ الجَهالةِ، وعدَمِ الاستبصارِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فيه إجراءُ وصْفِ (رَشِيدٍ) مُبالَغةً في اشتمالِ الأمرِ على ما يَقتَضي انتفاءَ الرُّشدِ؛ فكأنَّ الأمرَ هو الموصوفُ بعدَمِ الرُّشدِ، وعَدَلَ عن وصْفِ أمرِه بالسَّفيهِ إلى نَفْيِ الرُّشدِ عنه؛ تَجهيلًا للَّذين اتَّبَعوا أمرَه؛ لأنَّ شأنَ العُقلاءِ أن يتطَلَّبوا الاقتداءَ بما فيه صلاحٌ، وأنَّهم اتَّبَعوا ما ليس فيه أَمارةٌ على سَدادِه واستحقاقِه لأن يُتَّبَعَ، فماذا غرَّهم باتِّباعِه[(١)]؟!

٣- قولُه تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾

- قولُه: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ فيه تهَكُّمٌ؛ حيث عبَّر بالإيرادِ عن التَّقدُّمِ بالنَّاسِ إلى العذابِ، وهو تهَكُّمٌ؛ لأنَّ الإيرادَ يكونُ لأجلِ الانتفاعِ بالسَّقْيِ، وأمَّا التَّقدُّمُ بقومِه إلى النَّارِ؛ فهو ضدُّ ذلك[(٢)].

- وجاء ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تَحْقيقِ وُقوعِ ذلك الإيرادِ، وإلَّا فقَرينةُ قولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَدُلُّ على أنَّه لم يقَعْ في الماضي[(٣)].

- وقولُه أيضًا: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ فيه تشبيهٌ لِفرعونَ بالفارِطِ الَّذي يتَقدَّمُ الوارِدةَ إلى الماءِ، وتَشبيهُ أتباعِه بالواردةِ، وتشبيهُ النَّارِ بالماءِ الَّذي يَردونه[(٤)].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾

- قولُه: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ لإنشاءِ ذَمِّ اللَّعنةِ[(٥)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ حَذْفُ المخصوصِ بالذَّمِّ، وهو إيجازٌ؛ لِيَكونَ الذَّمُّ متوجِّهًا لإحدى اللَّعنتَينِ لا على التَّعْيينِ؛ لأنَّ كِلتَيهِما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٧).

بَئِيسٌ[١].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٠٠ - ١٠٨)

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا
ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ
إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ
عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ
إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ
١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ
مَجۡذُوذٖ ١٠٨ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَحَصِيدٞ﴾: خَرابٌ قد مُحِيَ أثَرُه، وأصلُ (حصد): يدلُّ على قَطعِ شَيءٍ[١].

﴿تَتۡبِيبٖ﴾: أي: تَخسيرٍ وهلاكٍ، وأصلُ (تبب): يدلُّ على خُسرانٍ[٢].

﴿زَفِيرٞ﴾: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدلُّ على صَوتٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات))

﴿وَشَهِيقٌ﴾: الشَّهيقُ: النَّشيجُ في البُكاءِ، إذا اشتَدَّ ترَدُّدُه في الصَّدرِ، وارتفَعَ به الصَّوتُ، وهو بمنزلةِ آخرِ صَوتِ الحِمارِ، وأصلُ (شهق): يدُلُّ على عُلُوٍّ[1].

﴿مَجْذُوذٍ﴾: أي: مَقطوعٍ، وأصلُ (جذذ): يدلُّ على قَطعٍ[2].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ الله تعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: ذلك الذي ذكَرْناه لك -يا محمَّدُ- مِن أخبارِ القُرى التي أهلَكْنا أهلَها نُخبِرُك به، ومِن تلك القُرى ما له آثارٌ باقيةٌ، ومنها ما قد مُحِيَت آثارُه، فلم يَبقَ منه شيءٌ، وما كان إهلاكُهم بغيرِ سَبَبٍ وذنبٍ يستَحِقُّونَه، ولكِنْ ظَلَموا أنفُسَهم بشِرْكِهم، وإفسادِهم في الأرضِ، فما نفَعَتْهم آلهتُهم -التي كانوا يدعُونَها، ويطلُبونَ منها أن تدفَعَ عنهم الضُّرَّ- لَمَّا جاء أمرُ رَبِّك بعَذابِهم، وما زادَتْهم آلهتُهم غيرَ تدميرٍ وإهلاكٍ وخُسرانٍ، وكما أخذتُ أهلَ القُرى الظَّالمةِ بالعذابِ؛ لِمُخالفتِهم أمري وتكذيبِهم برُسلي، آخُذُ غيرَهم مِن أهلِ القُرى إذا ظلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي، إنَّ أخْذَ اللهِ للظَّالِمينَ لأليمٌ مُوجِعٌ شَديدٌ، إنَّ في أخْذِنا لأهلِ القُرى السَّابقةِ الظَّالِمةِ لَعِبرةً وعِظةً لِمَن خاف عقابَ اللهِ وعذابَه في الآخرةِ، ذلك اليومُ الذي يُجمَعُ له النَّاسُ جميعًا للمُحاسَبةِ والجَزاءِ، ويشهَدُه الخلائِقُ كُلُّهم، وما نُؤخِّرُ يومَ القيامةِ عنكم إلَّا لانتهاءِ مُدَّةٍ معدودةٍ في عِلمِنا، لا تزيدُ ولا تَنقُصُ عن تَقديرِنا لها بحِكمَتِنا.

يوم يأتي يومُ القيامةِ لا تتكَلَّمُ نَفسٌ إلَّا بإذنِ رَبِّها؛ فمنهم شقيٌّ مستَحِقٌّ

للكفوي (ص: ٤٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٨)، ((تفسير المنار)) لرشيد رضا (١٢/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٣).

للعذابِ، وسعيدٌ مُتفَضَّلٌ عليه بالنَّعيمِ؛ فأمَّا الذين شَقُوا فالنَّارُ مُستَقَرُّهم، لهم فيها- مِن شِدَّةِ ما هم فيه مِن العذابِ- زفيرٌ وشَهيقٌ، وهما أشنَعُ الأصواتِ وأقبَحُها، ماكثينَ في النَّارِ أبدًا ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، فلا ينقَطِعُ عذابُهم ولا ينتهي، إلَّا ما شاء ربُّك من إخراجِ عُصاةِ الموحِّدينَ بعدَ مُدَّةٍ مِن مُكثِهم في النَّارِ، إنَّ رَبَّك -أيُّها الرَّسولُ- فعَّالٌ لِما يريدُ، وأمَّا الذين رزَقَهم اللهُ السَّعادةَ فيدخُلونَ الجنَّةَ خالدينَ فيها ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ، إلَّا الفريقَ الذي شاء اللهُ تأخيرَه، وهم عُصاةُ الموَحِّدينَ؛ فإنَّهم يَبقَونَ في النَّارِ مدَّةً مِن الزَّمَن، ثمَّ يخرُجونَ منها إلى الجنَّةِ بمشيئةِ اللهِ ورَحمتِه، ويُعطي ربُّك هؤلاءِ السُّعَداءَ في الجنَّةِ عطاءً غيرَ مَقطوعٍ عنهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾.

أي: ذلك الذي قصَصْناه عليك- يا محمَّدُ- في هذه السُّورةِ مِن أخبارِ القُرى التي أهلَكْنا أهلَها نُخبِرُك به؛ لتُنذِرَ به النَّاسَ، ويكونَ آيةً على رسالتِك، وموعظةً وذِكرى للمُؤمنينَ[(١)].

﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾.

أي: مِن تلك القرى التي قَصَصْنا عليك قُرًى عامِرٌ بُنيانُها، ومنها خَرابٌ قد تهدَّمَ بُنيانُها[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ١٠١﴾.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

أي: وما ظَلَمْنا أهلَ تلك القرى حينَ أهلَكْناهم، ولكنْ ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي فاستحَقُّوا العِقابَ(١).

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

أي: فما نفعَتْهم آلهتُهم التي كانوا يعبُدونَها من دونِ اللهِ، ولم تدفَعْ عنهم شيئًا لَمَّا أتاهم عذابُ الله(٢).

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾.

أي: وما زادت هذه الآلهةُ عابِدِيها غيرَ تخسيرٍ وإهلاكٍ وتدميرٍ، عندَما جاءَ أمرُ اللهِ بعقابِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

قال ابن الجوزي: (فإن قيل: الآلهةُ جَمادٌ، فكيف قال: ﴿زَادُوهُمْ﴾؟! فعنه جوابان: أحدهما: وما زادتهم عبادتُها. والثاني: أنَّها في القيامة تكونُ عونًا عليهم فتزيدُهم شَرًّا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٠).

وقال ابن عطية: (صورةُ زيادة الأصنام التتبيبَ إنَّما يُتصوَّر: إمَّا بأنَّ تأليهَها والثِّقةَ بها والتعَبَ في عبادتِها، شغَلَت نُفوسَهم وصَرفَتْها عن النظَرِ في الشَّرعِ وعاقَتْها، فلَحِقَ عن ذلك عنَتٌ

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٠٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في كتابِه بما فعلَ بأُمم من تقَدَّمَ مِن الأنبياءِ- لَمَّا خالفوا الرُّسُلَ وردُّوا عليهم- مِن عذابِ الاستئصالِ، وبيَّنَ أنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم فحَلَّ بهم العذابُ في الدُّنيا- بيَّن بَعدَه أنَّ عذابَه ليس بمقتَصِرٍ على من تقدَّمَ، بل الحالُ في أخذِ كُلِّ الظالمينَ يكونُ كذلك[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾.

أي: وكما أهلَك ربُّك -يا محمَّدُ- أهلَ القُرى التي قصَصْنا عليك، كذلك نُهلِكُ أمثالَهم مِن الظَّالمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ والمعاصي[٢].

عن أبي موسى رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظَّالم، حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾))[٣].

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: إنَّ إهلاكَ اللهِ وعِقابَه للظَّالمينَ مُوجِعٌ، شديدُ الإيلامِ[٤].

وخُسرانٌ، وإمَّا بأنَّ عذابَهم على الكُفرِ يزادُ إليه عذابٌ على مجرَّدِ عبادةِ الأوثانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان ممَّا جرَّ هذه القِصَص وهذه المواعِظَ تكذيبُ الكافرينَ لِما يُوعَدونَ مِن العذابِ النَّاشئِ عن إنكارِ البَعثِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾؛ أشار تعالى إلى تحقُّقِ أمرِ الآخرةِ، وأنَّه ممَّا ينبغي الاهتمامُ به؛ إعلامًا بأنَّه لا فرقَ بينه وبين ما تحقَّقَ إيقاعُه من عذابِ هذه الأمَمِ في القُدرةِ عليه، بقولِه مؤكِّدًا لأجلِ جُحودِهم أن يكونَ في شيءٍ ممَّا مضى دلالةٌ عليه بوجهٍ مِن الوجوهِ(١).

وأيضًا فهي بَيانٌ للتَّعريضِ وتَصريحٌ بعد تلويحٍ، والمعنى: وكذلك أخذُ ربِّك فاحذَرُوه، واحذَرُوا ما هو أشدُّ منه، وهو عذابُ الآخرةِ(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ اللهِ للظَّالمينَ لَعِبرةً وعِظةً لِمَن يخافُ عذابَ اللهِ في الآخرةِ(٣).

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾.

أي: هذا اليومُ -يومُ القيامةِ- يَجمَعُ اللهُ فيه كُلَّ النَّاسِ أوَّلَهم وآخِرَهم؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٧٤-٣٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

ليُجازيَهم فيه بأعمالِهم[(١)].

﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾.

أي: وهو يومٌ يشهَدُه جميعُ الخلائقِ؛ مِن الملائكةِ والإنسِ، والجِنِّ والطَّيرِ، والوُحوشِ والدوابِّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التكوير: ٥].

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾.

أي: وما نؤخِّرُ مجيءَ يومِ القيامةِ إلَّا لوقتٍ مُحدَّدٍ معدودٍ عندَ الله، لا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ جُملةَ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ تفصيلٌ لِمَدلولِ جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وبيَّنَت عظَمةَ ذلك اليوم في الشَّرِّ والخيرِ تبعًا لذلك التَّفصيلِ. فالقصدُ الأوَّلُ من هذه الجملةِ هو قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وما بعدَه، وأمَّا ما قَبلَه فتمهيدٌ له أفصحَ عن عظَمةِ ذلك اليومِ[1].

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

أي: حينَ يأتي يومُ القيامةِ لا تتكلَّمُ أيُّ نَفْسٍ إلَّا إذا أذِنَ اللهُ لها بذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه في حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ: أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((ولا يتكَلَّمُ يومَئذٍ إلَّا الرُّسُلُ، ودعوى الرُّسُلِ يومَئذٍ: اللهُمَّ سلِّمْ سلِّمْ))[3].

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

أي: فمِنَ النَّاسِ أشقياءُ يومئذٍ، وهم الكافرونَ، وسُعَداءُ، وهم المُؤمِنونَ المُتَّقون[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: فأمَّا الذين حصَلَت لهم الشَّقاوةُ، فهم مُنغَمِسونَ في عذابِ النَّارِ، لهم فيها زفيرٌ قبيحٌ يخرجُ مِن حُلوقِهم، وشَهيقٌ شديدٌ في صُدورِهم؛ مِن شِدَّةِ العذابِ الذي هم فيه[1].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

أي: لابثينَ في النَّارِ أبدًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
قال ابنُ الجوزي في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: (فيه قولان: أحدُهما: أنَّها السَّمواتُ المعروفة عندنا، والأرضُ المعروفة. قال ابن قتيبة، وابن الأنباري: للعربِ في معنى الأبدِ ألفاظٌ؛ تقول: لا أفعل ذلك ما اختلف الليلُ والنَّهار، وما دامت السَّموات والأرض... في أشباه لهذا كثيرةٍ؛ ظنًّا منهم أنَّ هذه الأشياءَ لا تتغيَّرُ، فخاطبَهم الله بما يستعمِلونَ في كلامِهم. والثاني: أنَّها سمواتُ الجنَّة والنارِ وأرضُهما). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٣٦).
وقال ابن تيميَّة: (قال طوائفُ من العُلَماءِ: إنَّ قولَه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أراد بها سماءَ الجنَّة وأرضَ الجنَّة كما ثبت في الصَّحيحين عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم أنَّه قال: «إذا سألتُم اللهَ الجنَّةَ فاسألوه الفِردوسَ؛ فإنَّه أعلى الجنة، وأوسَطُ الجنَّة، وسَقفُه عرشُ الرَّحمن»، وقال بعض العلماءِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] هي أرضُ الجنة. وعلى هذا فلا مُنافاةَ بين انطواءِ هذه السَّماء وبقاءِ السَّماءِ التي هي سقفُ الجنَّة؛ إذ كلُّ ما علا فإنَّه يسمَّى في اللغة سماءً، كما يُسمَّى السحابُ سماءً، والسَّقفُ سماءً، وأيضًا فإنَّ السَّمواتِ وإن طُويَت وكانت كالمُهلِ واستحالَت عن صورتِها؛ فإنَّ ذلك لا يوجِبُ عدَمَها وفسادَها، بل أصلُها باقٍ بتحويلِها من حالٍ إلى حالٍ،

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

أي: إلَّا من[1] شاء ربُّك - يا محمَّدُ - أن يُخرِجَهم من النَّارِ مِن عُصاةِ الموحِّدينَ، فيُدخِلهم الجنَّةَ برَحمتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وإذا بُدِّلَت فإنَّه لا يزالُ سماءٌ دائمةٌ وأرضٌ دائمة. والله أعلم). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٠٩-١١٠).

(١) ومعنى ﴿مَا شَآءَ﴾: (من شاء)؛ لأنَّه لما كان هؤلاء صنفًا ساغَتْ في العبارةِ عنهم ﴿مَا﴾، وإطلاقُ ﴿مَا﴾ وإرادةُ (من) نظيرُه في القرآنِ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٥)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٦٠).

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ المُختارِ في معنى الاستثناءِ المذكور: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، ونسبه ابنُ كثير إلى كثيرٍ مِن العلماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥١، ٣٥٢).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباس، وأبو سنان، والضحاكُ بنُ مزاحم، وخالدُ بنُ معدان، والحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٢).

وقيل المعنى: إلَّا المدَّةَ التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولِها، فالاستثناءُ على هذا راجعٌ إلى ما قبل دخولِها، فهم خالدون فيها جميعَ الأزمانِ، سوى الزَّمَن الذي قبل الدُّخولِ فيها. وممَّن اختار هذا القول: السعدي، ونسبه إلى جمهورِ المفَسِّرين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وذهب القاسمي إلى أنَّ الاستثناءَ بالمشيئةِ قد استُعمِلَ في أسلوبِ القُرآنِ للدَّلالةِ على الثبوتِ والاستمرارِ، والنُّكتةُ في الاستثناءِ بيانُ أنَّ هذه الأمورَ الثَّابتةَ الدائمة إنَّما كانت كذلك بمشيئةِ الله تعالى لا بطبيعتِها في نفسِها، ولو شاء تعالى أن يغيِّرَها لفعل. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٣٢).

قال ابن القيم: (الذي دلَّ عليه القُرآنُ أنَّ الكُفَّارَ خالدونَ في النَّارِ أبدًا، وأنَّهم غير خارجينَ منها، وأنَّه لا يُفَتَّرُ عنهم عذابُها وأنَّهم لا يموتونَ فيها، وأنَّ عذابَهم فيها مقيمٌ، وأنَّه غرامٌ لازِمٌ لهم، وهذا كلُّه ممَّا لا نزاع فيه بين الصَّحابة والتابعين وأئمَّة المُسلِمينَ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٣٦٣). وممَّن ذكر الإجماعَ على هذه المسألةِ: القرطبي، والألوسي. يُنظر: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤٠).

كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وفي حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ عن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثمَّ أعودُ الرَّابعةَ فأحمَدُه بتلك المحامدِ، ثمَّ أخِرُّ له ساجدًا، فيُقال: يا محمَّدُ، ارفَعْ رأسَك، وقُل يُسمَعْ، وسَلْ تُعطَه، واشفَعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، ائذَنْ لي فيمن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فيقول: وعِزَّتي وجلالي، وكبريائي وعظَمتي لأُخرجَنَّ منها من قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ))[1].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَخرُجُ من النَّارِ مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وفي قَلبِه وزنُ شعيرةٍ مِن خَيرٍ، ويخرجُ من النَّارِ من قال: لا إلهَ إلَّا الله، وفي قلبِه وزنُ بُرَّةٍ مِن خيرٍ، ويخرجُ مِن النَّارِ من قال: لا إلهَ إلَّا الله، وفي قلبه وزن ذَرَّةٍ من خيرٍ))[2].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللّهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُدخِلُ اللهُ أهلَ الجَنَّةِ الجنَّةَ، يُدخِلُ مَن يشاءُ برَحمتِه، ويُدخِلُ أهلَ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقولُ: انظُروا مَن وجدْتُم في قلبِه مِثقالَ حبَّةٍ مِن خردلٍ مِن إيمانٍ فأخرِجوه، فيخرجونَ منها حُمَمًا[3] قد امْتَحَشُوا[4]، فيُلقَونَ في نَهرِ الحياةِ أو الحَيا، فيَنبُتونَ فيه كما تَنبُتُ الحِبَّةُ[5] إلى جانبِ السَّيلِ، ألم تَرَوها كيف تَخرُجُ صَفراءَ مُلتَويةً؟!))[6].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

(٣) الحممُ: الفحمُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣٦).

(٤) امتَحَشوا: أي: احترَقوا. يُنظر ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٠٢).

(٥) الحِبَّةُ (بالكسر): بُزورُ البُقولِ وحَبُّ الرَّياحين. وقيل: هو نبتٌ صغيرٌ يَنبُتُ في الحَشيشِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٢٦).

(٦) أخرجه البخاري (٢٢) ومسلم (١٨٤)، واللفظ له.

وعن عمرانَ بنِ حصينٍ رضي الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَخرجُ قومٌ مِن النارِ بشفاعةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيدخلونَ الجنةَ، يُسمَّون الجهنَّميينَ))[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

أي: إنَّ ربَّك - يا محمَّدُ - لا يمنَعُه مانِعٌ مِن فِعلِ ما يُريدُه، بحسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه سُبحانه[٢].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

أي: وأمَّا الذين رزَقَهم اللهُ السَّعادةَ برَحمتِه، فهم في الجنَّةِ لابثينَ فيها أبدًا[٣].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

أي: إلَّا من شاء ربُّك - يا مُحمَّدُ - أن يُدخِلَهم النَّارَ مِن عُصاةِ الموحِّدينَ، ثمَّ يُخرِجهم إلى الجنَّةِ برَحمتِه[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٤، ٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٦٠).

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ المختارِ في معنى الاستثناءِ المذكور: ابن جرير، والسمعاني. يُنظر: المصدران السابقان، و((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، والضحَّاك، ومقاتلٌ، وخالدُ بنُ مهران، والحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾.

أي: عطاءً مِن اللهِ لأهلِ الجنَّةِ مُستمِرًّا غيرَ مَقطوعٍ عنهم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ هذا الخبَرُ مِن الله تعالى ذِكرُه، وإن كان خبرًا عمَّن مضى من الأمَمِ قبلَنا، فإنَّه وعيدٌ مِن الله جلَّ ثناؤُه لنا- أيَّتُها الأمَّةُ- أنَّا إن سلَكْنا سبيلَ الأمَمِ قَبْلَنا في الخلافِ عليه وعلى رَسولِه، سلَكَ بنا سبيلَهم في العُقوبةِ، وإعلامٌ منه لنا أنَّه تعالى لا يظلِمُ أحدًا من خَلْقِه، وأنَّ العِبادَ هم الذين يظلِمونَ أنفُسَهم(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كلُّ من التجأ إلى غيرِ اللهِ، لم ينفَعْه ذلك عند نزولِ الشَّدائِدِ(٣).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ بيَّنَ أنَّ عذابَه تعالى ليس بمقتَصِرٍ على من تقَدَّمَ، بل الحالُ في أخذِ كلِّ الظالمينَ يكونُ كذلك، والآيةُ تدُلُّ على أنَّ من أقدَمَ على ظُلمٍ فإنَّه يجِبُ

وقال ابن كثير: (معنى الاستثناءِ هاهنا: أنَّ دوامَهم فيما هم فيه من النَّعيم ليس أمرًا واجبًا بذاتِه، بل هو موكولٌ إلى مشيئةِ الله تعالى، فله المنَّةُ عليهم دائمًا؛ ولهذا يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما يُلهَمونَ النَّفَس). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: أبو سنان. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٠-٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٩).

عليه أن يتدارَكَ ذلك بالتَّوبةِ والإنابةِ؛ لئلَّا يقعَ في الأخذِ الذي وصفَه الله تعالى بأنَّه أليمٌ شَديدٌ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ عُومِلَ ﴿زَادُوهُمْ﴾ مُعاملةَ العُقلاءِ في الإسنادِ إلى واوِ الضَّميرِ الذي هو لِمَن يعقِلُ؛ لأنَّهم نزَّلوهم منزلةَ العُقَلاءِ في اعتقادِهم أنَّها تنفَعُ، وعبادتِهم إيَّاهم[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هذه آيةُ وعيدٍ تعُمُّ قُرى المؤمنينَ؛ فإنَّ (ظَالِمة) أعَمُّ مِن (كافرة)، وقد يُمهِلُ الله تعالى بعضَ الكَفَرةِ، وأمَّا الظَّلَمةُ في الغالبِ فمُعاجَلونَ[٣]. وقوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فيه تحذيرٌ عظيمٌ عن الظلمِ كفرًا كان أو غيرَه، لغيرِه أو لنفسِه، ولكلِّ أهلِ قريةٍ ظالمةٍ[٤].

٣- لَمَّا ذكر سُبحانَه عقوباتِ الأُمَمِ المكَذِّبينَ للرسُلِ وما حَلَّ بهم في الدُّنيا من الخِزيِ، قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ فأخبَرَ أنَّ عُقوباتِه للمُكذِّبينَ عِبرةٌ لِمَن خاف عذابَ الآخرةِ، وأمَّا من لا يؤمِنُ بها ولا يخافُ عذابَها، فلا يكونُ ذلك عبرةً وآيةً في حَقِّه؛ إذا سَمِعَ ذلك قال: لم يزَلْ في الدَّهرِ الخَيرُ والشَّرُّ، والنَّعيمُ والبُؤسُ، والسَّعادةُ والشَّقاوةُ، وربما أحال ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٧/ ١٧٢).

على أسبابٍ فلَكيَّةٍ وقُوًى نفسانيَّةٍ[(١)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ أشار إلى يُسرِ البَعثِ وسُهولتِه عليه وأنَّه أمرٌ ثابِتٌ لا بدَّ منه، باسمِ المفعولِ، مِن قَولِه: ﴿مَّجۡمُوعٞ لَّهُ﴾[(٢)].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف الجمعُ بين هذه الآيةِ وبين سائرِ الآياتِ التي تُوهِمُ كونَها مُناقِضةً لهذه الآيةِ؛ منها قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، ومنها أنَّهم يَكذِبونَ ويَحلِفونَ بالله عليه، وهو قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ومنها قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

والجوابُ من أوجهٍ:

الأولُ: أنَّه حيث ورد المنعُ مِن الكلامِ، فهو محمولٌ على الجواباتِ الصَّحيحةِ.

الثاني: أنَّ ذلك اليومَ يومٌ طويلٌ وله مواقِفُ؛ ففي بعضِها يُجادِلونَ عن أنفُسِهم، وفي بعضِها يكُفُّونَ عن الكلامِ، وفي بعضِها يُؤذَنُ لهم فيتكَلَّمون، وفي بعضِها يُختَمُ على أفواهِهم، وتتكَلَّمُ أيديهم، وتشهَدُ أرجُلُهم[(٣)].

الثالثُ: أنَّهم لا ينطقونَ بما لهم فيه فائدةٌ، وما لا فائدةَ فيه كالعدمِ.

الرابعُ: أنَّهم بعدَ أن يقولَ الله لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٨).

١٠٨] ينقطعُ نطقُهم، ولم يبقَ إلَّا الزَّفيرُ والشهيقُ[١].

٦- قول الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هذا الاستِثناءُ يُفيدُ إخراجَ أهلِ التَّوحيدِ مِن النَّارِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾ يفيدُ أنَّ جُملةَ الأشقياءِ مَحكومٌ عليهم بهذا الحُكمِ، ثمَّ قولَه تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يُوجِبُ ألَّا يبقى ذلك الحُكمُ على ذلك المَجموعِ، ويكفي في زوالِ حُكمِ الخُلودِ عن المَجموعِ زوالُه عن بعضِهم، فوجبَ ألَّا يبقى حُكمُ الخلودِ لبَعضِ الأشقياءِ، ولَمَّا ثَبت أنَّ الخُلودَ واجِبٌ للكُفَّارِ، وجَبَ أن يُقالَ: الذين زال حُكمُ الخُلودِ عنهم هم الفُسَّاقُ من أهلِ الصَّلاةِ[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ثمَّ عقَّبَ ذلك بقَولِه تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: غير مقطوعٍ؛ لئلَّا يتوهَّمَ مُتوهِّمٌ بعد ذِكرِه المَشيئةَ أنَّ ثَمَّ انقطاعًا، أو لبسًا، أو شيئًا، بل ختَمَ له بالدَّوامِ وعدمِ الانقطاعِ، كما بيَّنَ هنا أنَّ عذابَ أهلِ النَّارِ في النَّارِ دائمًا مردودٌ إلى مشيئتِه، وأنَّه بعَدلِه وحِكمتِه عذَّبَهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وهنا طَيَّبَ القُلوبَ وثَبَّتَ المقصودَ بقَولِه تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[٣].

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ دلالةٌ على أبديَّةِ الجنَّةِ؛ وأنَّها لا تفنى

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٣). ويُنظر أيضًا: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

ولا تَبيدُ[١].

٩- دلَّ الاستثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ على خُلُودِ السُّعَدَاءِ في الجنَّةِ كلَّ وقتٍ؛ إلَّا وقتًا يشاءُ اللهُ ألَّا يكونوا فيها، وذلك يتناولُ وَقتَ كونِهم في الدُّنيا، وفي البَرزَخِ، وفي موقفِ يومِ القيامةِ، وعلى الصِّراطِ، وكَونِ بعضِهم في النَّارِ مُدَّةً[٢]. هذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾

- جملةُ ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ حالٌ مِن اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وعبَّر بالمضارعِ ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ مع أنَّ القَصصَ مَضى؛ لاستِحْضارِ حالةِ هذا القَصصِ البليغِ[٣].

- قولُه: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ فيه تَشبيهٌ بليغٌ؛ فالقائمُ: الزَّرعُ المستقِلُّ على سُوقِه. والحَصيدُ: الزَّرعُ المحصودُ، وكِلاهما مُشبَّهٌ به للباقي مِن القرى والعافي. والمرادُ بالقائمِ ما كان مِن القرى الَّتي قصَّها اللهُ في القرآنِ قُرًى قائمًا بعضُها كآثارِ بلَدِ فِرعونَ، وقُرى بائدةً مِثلَ دِيارِ عادٍ، وقُرى قومِ لوطٍ، والمقصودُ مِن هذه الجملةِ الاعتبارُ[٤].

- قولُه: ﴿وَحَصِيدٌ﴾ جعَل حَصْدَ الزَّرعِ كنايةً عن الفَناءِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٧).

ﱡﭐ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﱠ

- قولُه: ﱡﭐ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ﱠ تفريعٌ على قولِه: ﱡﭐ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﱠ؛ ووجهُ ذلك التَّفريعِ: أنَّ ظُلمَهم أنفُسَهم مَظهَرُه في عِبادتِهم الأصنامَ، والغرضُ مِن هذا التَّفريعِ التَّعريضُ بتَحذيرِ المشرِكين مِن العرَبِ من الاعتمادِ على نَفعِ الأصنامِ(١).

- وأُوثِرَت صيغةُ المضارِعِ في قولِه: ﱡﭐ يَدۡعُونَ ﱠ؛ حِكايةً للحالِ الماضيَةِ، أو دَلالةً على استمرارِ عِبادتِهم لها(٢).

٣- قوله تعالى: ﱡﭐ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﱠ

- قولُه: ﱡﭐ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﱠ تذييلٌ فيه تعريضٌ بتهديدِ مُشرِكي العرَبِ مِن أهلِ مكَّةَ وغيرِها(٣).

- قولُه: ﱡﭐ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ ﱠ فيه تشبيهٌ في الكيفيَّةِ والعاقبةِ؛ إذِ الإشارةُ بـ ﱡﭐ كَذَٰلِكَ ﱠ إلى استِئْصالِ تلك القُرى، وهو ما يدُلُّ عليه قولُه: ﱡﭐ أَخۡذُ رَبِّكَ ﱠ، والتَّقديرُ: وكذلك الأخذِ الَّذي أخَذْنا به تلك القُرى أخْذُ ربِّك إذا أخَذَ القُرى(٤).

- وقولُه: ﱡﭐ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ﱠ قولُه: ﱡﭐ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ﱠ حالٌ مِن القُرى، وهي في الحقيقةِ لأهلِها، لكنَّها لَمَّا أُقيمَت مَقامَهم في الأخْذِ أُجرِيَتِ الحالُ عليها، وفائدتُها: الإشعارُ بأنَّهم إنَّما أُخِذوا بظُلمِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).

لِيَكونَ ذلك عِبْرةً لكلِّ ظالمٍ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ في موضِعِ البيانِ لِمَضمونِ قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ﴾، وفيها إشارةٌ إلى وجْهِ الشَّبهِ[٢]، وفيه ما لا يَخفْى مِن التَّهديدِ والتَّحذيرِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى يوم القيامةِ؛ لأنَّ عذابَ الآخِرةِ دَلَّ عليه؛ وتذكيرُ اسْمِ الإشارةِ مُراعاةً لِمَعنى الآخِرةِ[٤].

- وأوثِرَ اسْمُ المفعولِ ﴿مَّجۡمُوعٞ﴾ على فِعْلِه (يُجْمَعُ)؛ لِما في اسْمِ المفعولِ مِن دَلالةٍ على ثَباتِ مَعنى الجمْعِ لليومِ، وأنَّه يومٌ لا بدَّ مِن أن يَكونَ ميعادًا مَضروبًا لِجَمْعِ النَّاسِ له، وأنَّه الموصوفُ بذلك صِفةً لازِمةً، وهو أثبَتُ أيضًا لإسنادِ الجمعِ إلى النَّاسِ، وأنَّهم لا يَنفكُّون منه[٥].

- وعَطفُ جُملةِ ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ على جُملَةِ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾؛ لزيادةِ التَّهويلِ لليَومِ بأنَّه يُشهَدُ، وطُويَ ذِكْرُ الفاعلِ- فلم يُقَلْ: (يَشْهَدُه الشَّاهِدون)-؛ إذ ليس القَصْدُ إلى شاهِدِين مُعيَّنِين[٦].

- قولُه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ مُعترِضٌ بينَ قولِه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ وبينَ قولِه: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، والمقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٧- ٤٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦١).

بالاعتراضِ الرَّدُّ على المنكِرين للبعثِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾

- قوله: ﴿نَفْسٌ﴾ يَعمُّ جميعَ النُّفوسِ؛ لوقوعِه في سِياقِ النَّفيِ مع كونِه نَكِرةً؛ فشَمِلَ النُّفوسَ البرَّةَ والفاجرةَ، وشمِلَ كلامَ الشافعِ وكلامَ المجادِلِ عن نفْسِه، وقد فُصِّلَ عُمومُ النفوسِ باختلافِ أحوالِها، وهذا التَّفصيلُ مُفيدٌ تَفصيلَ النَّاسِ في قوله: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، ولكنَّه جاء على هذا النَّسْجِ لأجلِ ما تَخلَّل ذلك مِن شِبْهِ الاعتراضِ بقولِه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، إلى قولِه: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، وذلك نسيجٌ بديعٌ[٢].

- وقولُه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فيه تقديمُ الشَّقيِّ على السَّعيدِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تحذيرٍ وإنذارٍ[٣]، وقد جاء نَظْمُ الكلامِ على تَقديمٍ وتأخيرٍ اقتَضاه وضْعُ الاستطرادِ بتَعظيمِ هَولِ اليومِ في موضِعِ الكلامِ المتَّصِلِ؛ لأنَّه أسعَدُ بتَناسُبِ أغراضِ الكلامِ، والظُّروفُ صالِحةٌ لاتِّصالِ الكلامِ كصَلاحيةِ الحروفِ العاطفةِ وأدواتِ الشَّرطِ[٤].

- قولُه: ﴿وَسَعِيدٌ﴾، أي: (ومِنْهم سَعيدٌ)؛ حُذِف الخبَرُ؛ لِدَلالة الأوَّلِ عليه[٥].

٦- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤١).

خَصَّ بالذِّكرِ مِن أحوالِهم في جَهنَّمَ الزَّفيرَ والشَّهيقَ؛ تَنفيرًا مِن أسبابِ المصيرِ إلى النَّارِ؛ لِما في ذِكْرِ هاتَينِ الحالَتَينِ مِن التَّشويهِ بهم؛ وذلك أخوَفُ لهم مِن الألَمِ(١).

٧- قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾

- في قولِه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ...﴾ الآيات: ما يُعرَفُ بالجمعِ مع التفريقِ والتقسيمِ؛ فالجمعُ في قولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ معنًى؛ إذ النَّكرةُ في سِياقِ النفيِ تعمُّ، والتفريقُ في قولِه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾، والتقسيمُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٣٠).

الآيات (١٠٩-١١٥)

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ
وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ
فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)
وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ
(١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ
ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَرْكَنُوا﴾: أي: تَميلُوا أو: تَطمئِنُّوا، وتَسْكُنوا[1].

﴿وَزُلَفًا﴾: الزُّلَفُ: السَّاعاتُ القَريبُ بَعضُها مِن بَعضٍ، مِن أزلَفَه: إذا قَرَّبَه؛ لأنَّ كُلَّ ساعةٍ منها تَقرُبُ مِن الأخرى، وأصل (زلف): يَدُلُّ على اندِفاعٍ، وَتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شيءٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

﴿كُلًّا﴾ اسم إنَّ منصوبٌ، و﴿لَمَّا﴾ حرفُ نَفيٍ وجَزمٍ، حُذِفَ فِعلُه المجزومُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢).

به، والتقديرُ: لَمَّا يُوَفَّوْا أعمالَهم[١]، ودلَّ على المحذوفِ قَولُه: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾، والجملةُ مِن (لَمَّا) ومدخولِها المحذوفِ (يُوَفَّوْا أعمالَهم) في محلِّ رفعٍ خبرُ إنَّ، وجملة: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ ...﴾ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، جوابُ قَسَمٍ مقدَّرٍ، والقسَمُ وجوابُه كلامٌ مُستأنَفٌ. وقيل غيرُ ذلك[٢].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلا تكُنْ- يا محمَّدُ- في شَكٍّ مِن بُطلانِ ما يعبُدُ هؤلاءِ المُشرِكونَ مِن قَومِك؛ ما يعبُدونَ مِن الأوثانِ إلَّا مِثلَ ما يعبُدُ آباؤهم مِن قبلُ، وإنَّا لمُوفُّوهم ما وعَدْناهم تامًّا غيرَ مَنقوصٍ، ولقد آتَينا موسى التَّوراةَ، فاختلفَ فيها قومُه؛ فآمنَ بها جماعةٌ وكفرَ بها آخرونَ، كما فعل قومُك بالقُرآنِ، ولولا كَلِمةٌ سبقَت من ربِّك بأنَّه لا يُعجِّلُ لخَلْقِه العذابَ، لحلَّ بهم في دُنياهم قضاءُ اللهِ بإهلاكِ المكَذِّبينَ، ونجاةِ المُؤمنينَ، وإنَّ أهل الكتاب لفي شَكٍّ مِن كتابِهم، موقعٍ في الريبةِ والتهمةِ، وإنَّ كُلَّ أولئك الأقوامِ المُختَلفينَ الذين ذكَرْنا لك أخبارَهم، ليُوفِّيَنَّهم ربُّك جزاءَ أعمالِهم يومَ القيامةِ؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا

---

(١) هذا رأيُ ابنِ هشامٍ في ((المغني))، وقدَّره ابن الحاجب في ((أماليه)): لَمَّا يُهمَلوا، أو لَمَّا يُترَكوا؛ لِما تقدَّمَ من الدَّلالةِ عليه مِنْ تفصيل المجموعين لقَولِه ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، ثم ذكرَ الأشقياءَ والسُّعَداءَ ومجازاتَهم، ثم بَيَّن ذلك بقولِه: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾، وقد ردَّ ابن هشام هذا التقديرَ بقوله: (إنَّ منفيَّ «لَمَّا» متوقَّعُ الثبوتِ، والإهمالُ غيرُ متوقَّعِ الثُّبوت). ويُنظر: ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٦٤)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (١/ ٣٧١).
أمَّا أبو حيَّان فقد قدَّر الفعل بقوله: (وإنَّ كلًّا لَمَّا يُنقَصْ من جزاءِ عَمَلِه؛ لأنَّ جواب القسَم في قولِه تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يدلُّ عليه).اهـ. هذا وحذفُ منفيِّ (لَمَّا) وارد في لسان العرب؛ يقولون: قاربتُ المدينةَ ولَمَّا.. أي: ولَمَّا أدخُلْها. وثمَّةَ أقوالٌ كثيرة في تأويل (لَمَّا) المشدَّدةِ، وكلُّها تخريجاتٌ ضعيفةٌ جدًّا يُنَزَّه القرآنُ عنها، كما قال أبو حيان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٨)، ويُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (١٢/ ٣٦١)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (١/ ٦٧٧).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤١٠).

فشَرٌّ، إنَّ رَبَّك بما يعملونَ خَبيرٌ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم وأتباعَه بالاستقامةِ والثباتِ على هذا الدينِ، فيقولُ: فاستقِمْ -أيُّها النبيُّ- كما أمَرَك ربُّك، أنت ومن تاب معك، ولا تتَجاوَزوا ما حدَّه اللهُ لكم؛ إنَّ ربَّكم بما تَعمَلونَ مِن الأعمالِ كلِّها بصيرٌ، لا يخفى عليه شيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها، ولا تَميلوا إلى هؤلاء الظَّلَمةِ فتُصيبَكم النَّارُ، وما لكم مِن دونِ اللهِ مِن ناصرٍ ينصُرُكم، ويتولَّى أمورَكم، وأدِّ الصَّلاةَ- أيُّها النبيُّ- على أتمِّ وجهٍ طَرَفَي النَّهارِ في الصَّباحِ والمساءِ، وفي ساعاتٍ مِن اللَّيلِ؛ إنَّ فِعْلَ الخيراتِ يكفِّرُ الذُّنوبَ السَّالفةَ، ويمحو آثارَها، ذلك الذي تقدَّم- ممَّا أمَرَكم اللهُ به ونهاكم عنه- مَوعِظةٌ لِمَن اتَّعظَ بها وتذكَّرَ، واصبِرْ- أيُّها النبيُّ- على ما أمَرَك اللهُ به وعلى ما تَلْقَى مِن الأذى مِن مُشركي قومِك؛ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ ثوابَ المُحسنينَ في أعمالِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ قَصَصَ عبَدةِ الأوثانِ مِن الأمَمِ السَّالِفةِ، وأتبعَ ذلك بذِكرِ أحوالِ الأشقياءِ والسُّعَداءِ؛ شرحَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحوالَ الكُفَّارِ من قَومِه، وأنَّهم متَّبِعو آبائِهم، كحالِ من تقدَّمَ مِن الأمَمِ في اتِّباعِ آبائِهم في الضَّلالِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بوقوعِ القَضاءِ بتَمييزِ النَّاسِ في اليومِ المَشهودِ، كان ذلك كافيًا في الثَّباتِ على أمرِ اللهِ، والمضيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٥).

لإنفاذِ جميعِ ما أُرسِلَ به- وإن شقَّ- اعتمادًا على النُّصرةِ في ذلك اليومِ بحضرةِ تلك الجُموعِ، فكان ذلك سببًا للنَّهيِ عن القلَقِ في شيءٍ مِن الأشياءِ، وإن جَلَّ وقعُه وتعاظَمَ خَطبُه[1].

وأيضًا فهذه الآيةُ تفريعٌ على القصَصِ الماضيةِ؛ فإنَّها تُكسِبُ سامِعَها يقينًا بباطلِ ما عليه عبَدةُ الأصنامِ، وبخَيبةِ ما أمَّلوه فيهم من الشَّفاعةِ في الدُّنيا، وأنَّ سابِقَ شَقائِهم في الدُّنيا بعذابِ الاستِئصالِ يؤذِنُ بسوءِ حالِهم في الآخرةِ؛ ففرَّعَ على ذلك نهيَ السَّامعِ أن يشُكَّ في سوءِ الشِّركِ وفَسادِه[2].

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

أي: فلا تكُنْ -يا مُحمَّدُ- في شكٍّ ممَّا يعبُدُ مُشرِكو قومِك من الأصنامِ أنَّه باطلٌ، وضلالٌ، وشركٌ باللهِ تعالى[3].

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾.

أي: ما يعبُدُ هؤلاء المُشرِكونَ إلَّا كعبادةِ آبائِهم مِن قبلُ، فهم يقلِّدونَهم بلا حجَّةٍ[4].

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
قال ابن عطية: (لفظُ الخِطابِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمعنى له ولأمَّتِه، ولم يقَعْ لأحدٍ شَكٌّ فيقَعَ عنه نهيٌ، ولكن من فصاحةِ القَولِ في بيانِ ضلالةِ الكَفَرةِ إخراجُه في هذه العبارةِ، أي: حالُهم أوضَحُ مِن أن يُمترى فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٨).

أي: وإنَّا سنُوفِّي هؤلاء المُشرِكينَ حظَّهم ممَّا كُتِبَ لهم مِن الخيرِ في الدُّنيا، وحَظَّهم من العذابِ في الآخرةِ كاملًا بلا نقصٍ[١].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى في الآيةِ الأولى إصرارَ كفَّارِ مكَّةَ على إنكارِ التَّوحيدِ؛ بيَّن أيضًا إصرارَهم على إنكارِ نبوَّةِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتكذيبَهم بكتابِه، وبيَّن تعالى أنَّ هؤلاء الكُفَّارَ كانوا على هذه السِّيرةِ الفاسدةِ مع كلِّ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وضرب لذلك مثلًا، وهو: أنَّه لَمَّا أنزل التَّوراةَ على موسى عليه السَّلامُ اختلفوا فيه، فقَبِلَه بعضُهم، وأنكَره آخرون، وذلك يدلُّ على أنَّ عادةَ الخَلقِ هكذا[٢].

وأيضًا لما ذكَّر اللهُ قومَ خاتَمِ النبيِّينَ وأمَّتَه أوَّلًا بالأقوامِ الذين غلَبَ عليهم الكُفرُ والجُحودُ، فلم يؤمِنْ إلَّا قليلٌ منهم، فوفَّاهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم في الدُّنيا، وسيُوَفِّيهم إيَّاها في الآخرةِ- ذكَّرَهم في هاتينِ الآيتينِ بقَومِ موسى الذين آتاهم الكِتابَ فاختَلَفوا فيه، وكلِمَته في تأخيرِ جزائِهم إلى الآخرةِ؛ لأنَّهم لم يستحِقُّوا عذابَ الاستئصالِ في الدُّنيا، وأنَّ مَثَلَ الذين يختَلِفون من أمَّتِه في الكتابِ كمَثَلِ هؤلاء[٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسَى التَّوراةَ، فاختَلَف قومُ موسى فيها، فآمَنَ بها بعضُهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٤).

ولم يؤمِنْ بها بعضٌ آخَرون[١] فلا تحزَنْ- يا محمَّدُ- من تكذيبِ مُشركي قومِك بما آتيناك من القُرآنِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾.

أي: ولولا كَلِمةٌ سبَقَت من ربِّك- يا محمَّدُ- بتأخيرِهم، وعدمِ معاجلتِهم بالعذابِ، لأهلَكَهم في الحالِ، وميَّز بين أهلِ الحَقِّ بنَجاتِهم، وأهلِ الباطلِ بهلاكِهم[٣].

---

(١) قال محمد رشيد رضا: (أي: فاختلف فيه قومُه مِن بعدِه بغيًا بينهم، وتنازُعًا على الرِّياسةِ، فكانوا شِيَعًا، كلُّ شِيعةٍ تنتَحِلُ مذهبًا، وتُعادي من يخالفُها فيه، وإنَّما أوتوا الكتابَ لجَمعِ الكَلِمةِ). ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٤، ١٣٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وقال ابن عاشور: (معنى الاختلافِ فيه: اختلافُ أهلِ التَّوراةِ في تقريرِ بعضِها، وإبطالِ بعضٍ، وفي إظهارِ بعضِها، وإخفاءِ بعضٍ، مثل حُكمِ الرَّجمِ، وفي تأويلِ البَعضِ على هواهم، وفي إلحاقِ أشياءَ بالكتابِ على أنَّها منه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٠ - ١٧٢).

قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ...﴾ إلى آخرِ الآية، يحتمِلُ أن يريدَ به أمَّةَ موسى، ويحتملُ أن يريدَ به مُعاصري محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وأن يعُمَّهم اللَّفظُ أحسَنُ عندي، ويؤكِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٠).

قال ابنُ كثير: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بالكلمة: أنَّه لا يعذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليه، وإرسالِ الرَّسولِ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ فإنَّه قد قال في الآيةِ الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا

كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّ المنتسبينَ إلى كتابِ موسَى عليه السلامُ لفي شكٍّ مِن أمرِ كتابِهِ التوراةِ، مُوقِعٍ فِي الريبةِ والتهمةِ، فلا يَدرونَ أحقٌّ هو أمْ باطِلٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠]. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٣) (١٣/ ٦٠٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وممن اختار أنَّ الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعودُ على أهلِ الكتابِ: ابنُ جريرٍ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إن حُمِلتْ على قوم موسَى، أي: لفي شكٍّ مِن كتابِ موسَى، فهم في شكٍّ مِن القرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٤).

قال السعدي: (وإذا كانتْ هذه حالَهم، معَ كتابِهم، فمع القرآنِ الذي أوحاه الله إليك، غيرُ مستغربٍ مِن طائفة اليهودِ، أن لا يؤمنُوا به، وأن يكونُوا في شكٍّ منه مريبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وممن اختار أنَّ الضميرَ يعودُ على كفارِ مكةَ: الرازي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختيارُ القاسمي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٣٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: من القرآنِ، إن حُمِل على قومِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو مِن التوراةِ إن حُمِل على قومِ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٩٩).

سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾.

أي: وإنَّ كلَّ المُختَلِفينَ ليُوفيَنَّهم ربُّك- يا محمَّدُ- جزاءَ أعمالِهم يومَ القيامةِ، فيُجازي كلَّ إنسانٍ بما يستحِقُّه(١).

﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِهم كُلِّها، لا يخفَى عليه شيءٌ منها(٢).

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى بعدمِ استقامةِ أهلِ الكِتابِ، التي أوجَبَت اختلافَهم وافتراقَهم، أمر نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه مِن المؤمنينَ أن يستَقيموا كما أُمِروا، فيَسلُكوا ما شرَعَه اللهُ مِن الشَّرائع، ويعتَقِدوا ما أخبَرَ الله به من العقائدِ الصَّحيحةِ، ولا يَزيغوا عن ذلك يَمنةً ولا يَسرةً، ويَدوموا على ذلك، ولا يطغَوا بأن يتجاوَزوا ما حَدَّه اللهُ لهم من الاستقامةِ(٣).

وأيضًا فإنَّه ترتَّبَ على التَّسليةِ التي تضَمَّنَها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٠).

ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ ﴾ [هود: ١١٠] وعلى التَّثبيتِ المُفادِ بقَولِه تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ ﴾ [هود: ١٠٩] الحَضُّ على الدَّوامِ على التمَسُّكِ بالإسلامِ على وجهٍ قويمٍ، وعبَّرَ عن ذلك بالاستقامةِ[١].

وأيضًا فسياقُ هذه الآيةِ والتي تليها تفصيلٌ للأوامرِ والنَّواهي التي هي ثمرةُ الاعتبارِ بما كان مِن سيرةِ الأُمَمِ مع الرُّسُلِ؛ مَن جَحَدوا فأُهلِكوا، ومن آمَنوا ثم اختَلَفوا وتفرَّقوا، فمن جمع بين هذا الأمرِ والنَّهيِ كَمَلَ إيمانُه، وما بعدهما تفصيلٌ لهما[٢].

﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾.

أي: فاثبُتْ- يا محمَّدُ- على الدِّينِ الذي أمَرَك الله به أنت ومَن اتَّبَعك من المؤمنينَ الذين رجَعوا معك إلى طاعةِ اللهِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ ﴾ [فصلت: ٦].

وعن سُفيانَ بنِ عبدِ الله الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، قلْ لي في الإسلامِ قولًا، لا أسألُ عنه أحدًا بَعدَك، قال: قل: آمنتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

قال ابنُ رجب: (الاستقامةُ: هي سُلوكُ الصِّراطِ المستقيم، وهو الدينُ القيِّمُ مِن غيرِ تعريجٍ عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشملُ ذلك فعلَ الطاعاتِ كلِّها؛ الظاهرةِ والباطنةِ، وترْكَ المنهيَّاتِ كلِّها كذلك). ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٥١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٣٨).

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾.

أي: ولا تتجاوَزوا ما حدَّه اللهُ لكم من الاستقامةِ إلى ما نهاكم عنه[١].

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بما تَعملونَ - أيُّها النَّاسُ - بصيرٌ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِكم؛ خيرِها وشَرِّها، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنه بعدَ أن نهاهم عن الطُّغيانِ الذي يشملُ أصولَ المفاسدِ، وكان هذا النهيُ جامعًا لأحوالِ مصادرِ الفسادِ مِن نفسِ المفسدِ، وبقِي ما يُخشَى عليه مِن عدوَى فسادِ خليطِه؛ لذا نهاهم عن التَّقارُبِ مِن الظالمينَ[٣]، فقال:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ولا تَميلوا -أيُّها النَّاسُ- إلى الظَّلَمةِ؛ فإنكم إن مِلتُم إليهم، ووافقتُموهم على أفعالِهم ورضيتُم بها، وداهنتُموهم؛ تُصِبْكم[٤] النارُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٧-١٧٨).

(٤) قال ابن عاشور في قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾: (والمسُّ: مستعملٌ في الإصابةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

أي: ولا تَجِدونَ- إن رَكَنتُم إلى الظَّلَمةِ- أعوانًا مِن دونِ اللهِ يَنفعونكم، ولا تَجِدونَ مَن يُخلِّصُكم مِن عذابِه[1].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا أمرٌ بأعظَمِ العباداتِ وبأعظَمِ الأخلاقِ، اللَّذَينِ يُستَعانُ بهما على ما قَبلَهما؛ من الأمرِ بالاستقامةِ، والنَّهيِ عن الطُّغيانِ، والرُّكونِ إلى أولي الظُّلمِ؛ ولذلك عُطِفا عليهما[2].

سببُ النُّزُولِ:

عن عبد الله بن مَسعود رَضيَ الله عنه: ((أنَّ رجُلًا أصاب من امرأةٍ قُبلةً، فأتى رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرَ ذلك له، فأُنزِلَت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، قال الرَّجُل: ألي هذه؟ قال: لِمَن عَمِلَ بها مِن أُمَّتي))[3].

قال القُرطبي: (قولُه تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قيل: أهلُ الشِّركِ. وقيل: عامَّةٌ فيهم وفي العُصاة، على نحوِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ...﴾ الآية [الأنعام: ٦٨] وهذا هو الصَّحيحُ في معنى الآيةِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٣).

قال ابنُ تيمية: (قولُه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وغير ذلك مِن الآياتِ التي نزلَتْ بمكةَ ثمَّ جرَى بالمدينةِ سببٌ يقتضي الخطابَ، فأُنزِلَت مرة

وعن أبي اليَسَرِ كعب بن عَمرو رَضيَ الله عنه، قال: ((أتَتْني امرأةٌ تبتاعُ تمرًا، فقُلْتُ: إنَّ في البيتِ تَمرًا أطيَبَ منه، فدخَلَت معي في البيتِ، فأهويتُ إليها فقبَّلْتُها، فأتيتُ أبا بكرٍ فذكَرتُ ذلك له، قال: استُرْ على نفسِك وتُبْ، ولا تخبِرْ أحدًا، فلم أصبِرْ، فأتيتُ عُمرَ فذكَرتُ ذلك له، فقال: استُرْ على نفسِك وتُبْ، ولا تخبِرْ أحدًا، فلم أصبِرْ، فأتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرتُ ذلك له، فقال: أخلَّفتَ غازيًا في سبيلِ اللهِ في أهلِه بمِثلِ هذا؟! حتى تمنَّى أنَّه لم يكُنْ أسلَمَ إلَّا تلك السَّاعةَ، حتى ظَنَّ أنَّه من أهلِ النَّارِ، قال: وأطرَقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طويلًا حتى أوحى اللهُ إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قال أبو اليَسَر: فأتيتُه فقَرَأها عليَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال أصحابُه: يا رسولَ اللهِ، ألهذا خاصَّةً أم للنَّاسِ عامَّةً؟ قال: بل للنَّاسِ عامَّةً))[1].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾.

أي: وأقِمِ الصلاةَ المفروضةَ، في أوَّلِ النهارِ وآخرِه، وهي صلاةُ الفجرِ والظهرِ والعصرِ[2].

ثانية). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٣١٤-٣١٥).

(١) أخرجه الترمذي (٣١١٥) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٣٢٧)، والبزار (٢٣٠٠). قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وقال الزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (٢/ ١٥٣): أصلُ الحديثِ في الصحيحين، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٩).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ في المرادِ بالصَّلواتِ طَرَفَي النهار: الزجاجُ، والزمخشري، وابنُ عطية، وابنُ تيمية، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠).

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾.

أي: وأقمِ الصلاةَ أيضًا في ساعاتٍ مِن الليلِ، وهي صلاةُ المغربِ والعشاءِ[١].

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، ومحمدُ بن كعب القرظيُّ، وهو رواية عن الحسن البصري، ورواية عن الضحاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤).

وقيل: المرادُ: صلاةُ الفجرِ والمغربِ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٥)، ((الوجيز)) (ص: ٥٣٦).

وقيل: المرادُ: صلاةُ الفجرِ والعصرِ، وممن اختار ذلك: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٨).

قال ابن جرير: (اختلف أهلُ التَّأويلِ في التي عُنِيَت بهذه الآيةِ مِن صلواتِ العَشيِّ بعد إجماعِ جميعِهم على أنَّ التي عُنِيَت من صلاةِ الغداةِ: الفَجر). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠١-٦٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (انتقَل مِن خطابِ المؤمنين إلى خطابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا الخطابُ يتناولُ جميعَ الأمةِ بقرينةِ أنَّ المأمورَ به مِن الواجباتِ على جميعِ المسلمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٩).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور في المرادِ بـ﴿زُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾: الزجاج، والزمخشري، وابن عطية، وابن تيمية، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، والحسنُ البصري في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، ومحمدُ بنُ كعبٍ القرظي، والضحَّاك، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٥).

قال السعدي: (﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ ويدخلُ في ذلك صلاةُ المغربِ والعشاءِ، ويتناولُ ذلك قيامَ الليلِ؛ فإنها مما تزلفُ العبدَ، وتقرِّبُه إلى اللهِ تعالى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

وقيل: المرادُ: صلاةُ العشاءِ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٦).

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾.

أي: إنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ مِن الصَّلاةِ وغَيرِها تُكفِّرُ صغائِرَ الذُّنوبِ[(١)].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّه سَمِعَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((أرأيتُم لو أنَّ نهرًا ببابِ أحَدِكم يغتَسِلُ منه كلَّ يومٍ خَمسَ مرَّاتٍ، هل يبقى من دَرَنِه[(٢)] شيءٌ؟ قالوا: لا يبقى مِن دَرَنِه شيءٌ، قال: فذلك مثَلُ الصَّلواتِ الخَمسِ؛ يمحو اللهُ بهنَّ الخَطايا))[(٣)].

وعنه أيضًا رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((الصَّلواتُ الخمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورمضانُ إلى رَمضانَ؛ مكَفِّراتٌ ما بينهُنَّ إذا اجتَنَبَ الكبائِرَ))[(٤)].

﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

أي: ذلك -الذي تقدَّمَ ممَّا أمَرَكم اللهُ به ونهاكم عنه- تذكِرةٌ وعِظةٌ للمتَّعِظينَ

وقيل: المرادُ: صلاةُ المغربِ والعشاءِ والوترِ. وممن اختار ذلك الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٥).

وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المراد بالحَسَنات هنا الصلواتُ الخَمسُ، وهو من بابِ التفسيرِ بالمثالِ، ومن هؤلاء: ابن جرير، ونسبه ابن عطية والقرطبي إلى جمهورِ المفسِّرينَ مِن الصَّحابة والتَّابعين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وابنُ مسعودٍ، وسلمانُ، وكعبٌ، وسعيدُ بنُ المسيبِ، ومحمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والحسنُ البصري، والضحَّاك، ومسروقٌ، ومقاتلُ بنُ سليمانَ، ومقاتلُ بنُ حيانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٦).

(٢) الدَّرَنُ: الوسَخُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ١٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧)، واللفظ له.

(٤) أخرجه مسلم (٦٦٧).

الذين يذكُرونَ اللهَ، ويذكُرونَ وَعْدَه ووعيدَه، فيَرجونَ ثوابَه ويخافون عِقابَه[١].

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ وقوعِ الأمرِ بالصَّبرِ عَقِبَ الأمرِ بالاستقامةِ والنَّهيِ عن الرُّكونِ إلى الذين ظَلَموا: أنَّ المأموراتِ لا تخلو عن مشَقَّةٍ عَظيمةٍ، ومُخالَفةٍ لِهَوى كثيرٍ مِنَ النُّفوسِ، فناسب أن يكونَ الأمرُ بالصَّبرِ بعد ذلك؛ ليكونَ الصَّبرُ على الجميعِ، كلٌّ بما يناسِبُه[٢].

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾.

أي: واحبِسْ نفسَك على طاعةِ اللهِ، وتَرْكِ مَعصيتِه، وتحمُّلِ أذى الكفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ ثوابَ المُطيعينَ لله، ويُعطيهم ثوابَهم كاملًا غيرَ مَنقوصٍ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ يدُلُّ على وجوبِ اتِّباعِ النُّصوصِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦١٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩٣).
وممَّن قال بعودِ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّم مِن الأمرِ بالاستقامةِ وما بعدَها: الرازي، والشوكاني، ومال إليه السعدي، واختاره ابنُ عاشورٍ، ونسَبه الخازنُ إلى جمهورِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٧).
وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى القرآنِ. وممن قال بذلك: الواحديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣).
وقيل: تعودُ إلى الصلواتِ. وممن قال بذلك: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

في الأمورِ الدِّينيَّةِ[(١)].

٢- قولُه: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أفاد قولُه: ﴿ فَٱسْتَقِمْ ﴾ الدَّوامَ على العمَلِ بتعاليمِ الإسلامِ دوامًا جِماعُه الاستقامةُ عليه، والحذَرُ مِن تغييرِه[(٢)].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن الرُّكونِ إلى كلِّ ظالمٍ، والمرادُ بالرُّكونِ: المَيلُ والانضمامُ إليه بظُلمِه، وموافقتُه على ذلك، والرِّضا بما هو عليه من الظُّلمِ، وإذا كان هذا الوعيدُ في الرُّكونِ إلى الظَّلَمةِ، فكيف حالُ الظَّلَمةِ أنفُسِهم[(٣)]؟! فهذه الآيةُ مِن أشدِّ الآياتِ النازلةِ في زجرِ الظلمةِ وردعِهم[(٤)].

٤- قَوْلُهُ: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ فيه دليلٌ على المنعِ من مصادقةِ المشركين، وموالاةِ الظالمينَ، والميلِ إليهم بالمحبةِ والسُّكونِ[(٥)].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ المقصودُ أن تكونَ الصَّلاةُ أوَّلَ أعمالِ المُسلِمِ إذا أصبحَ- وهي صلاةُ الصُّبحِ- وآخِرَ أعمالِه إذا أمسى- وهي صلاةُ العِشاءِ- لتكونَ السَّيِّئاتُ الحاصِلةُ فيما بين ذلك ممحُوَّةً بالحَسَناتِ الحافَّةِ بها[(٦)].

٦- إقامةُ الصَّلواتِ المَفروضاتِ على وجهِها يُوجِبُ مُباعدةَ الذُّنوبِ، ويُوجِبُ أيضًا إنقاءَها وتطهيرَها؛ قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٠).
(٤) يُنظر: ((رموز الكنوز)) للرسعني (٣/ ٢٥١).
(٥) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٧٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٩).

وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(١)].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بل يتقبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ الذي عَمِلوا، ويجزيهم أجرَهم بأحسَنِ ما كانوا يعمَلونَ، وفي هذا ترغيبٌ عظيمٌ لِلُزومِ الصَّبرِ، بتشويقِ النَّفسِ الضَّعيفةِ إلى ثوابِ اللهِ كلَّما وَنَت وفتَرَت[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ لَمَّا كانت التَّوفيةُ قد تُطلَقُ على مجرَّدِ الإعطاءِ، وقد يكون ذلك على التَّقريبِ؛ نفَى هذا الاحتمالَ بقَولِه تعالى: ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾[(٣)].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ لَمَّا كان من المقطوعِ به أنَّ الآمِرَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن له الأمرُ كُلُّه، بُني للمفعولِ قَولُه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[(٤)].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ عَظيمٌ في الشَّريعةِ؛ وذلك لأنَّ القرآنَ لَمَّا ورد بالأمرِ بأعمالِ الوُضوءِ مُرتَّبةً في اللَّفظِ، وجب اعتبارُ التَّرتيبِ فيها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، ولَمَّا ورد الأمرُ في الزَّكاةِ بأداءِ الإبلِ مِنَ الإبلِ، والبقَرِ مِن البقَرِ؛ وجبَ اعتبارُها، وكذا القولُ في كلِّ ما ورد أمرُ الله تعالى به[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٦).

٤- جَمَع قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ وقولُه: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أصلَي الدِّينِ، وهما: الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ، وقال الحسنُ: (جَعَلَ اللَّهُ الدِّين بَين لائين ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾، ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾)[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ استدَلَّ به من مَنع الاستِعانة بالكفَّارِ في الحربِ، ومَنع استِعمالَهم في مصالحِ المُسلمينَ[٢].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في سَدِّ ذرائِعِ الفسادِ المحَقَّقةِ أو المَظنونةِ[٣].

٧- لَمَّا كان الرُّكونُ إلى الظَّالِمِ -وهو الميلُ إليه، والاعتِمادُ عليه- دونَ مُشارَكتِه في الظُّلمِ؛ أخبر أنَّ العِقابَ عليه دونَ العقابِ على الظُّلمِ، فأتى بلفظِ (المسِّ) الَّذي هو دونَ الإحراقِ والاصطِلاءِ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، وإنْ كان المسُّ قد يُطلقُ ويُرادُ به الإشعارُ بالعذابِ[٤].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ لَمَّا أمر تعالى بالاستقامةِ، أردَفَه بالأمرِ بالصَّلاةِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ أعظَمَ العِباداتِ -بعد الإيمانِ بالله- الصَّلاةُ[٥].

٩- تكفيرُ الصَّغائرِ يقَعُ بشَيئينِ: أحدهما: الحسَناتُ الماحيةُ، والثاني: اجتِنابُ الكبائرِ. وقد نصَّ عليها سبحانَه وتعالى فى كتابِه، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).
(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣٧٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٥/ ١٧٤٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٧).

طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾[1] [النساء: ٣١].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أتى بعد أن أمَرَ بالصَّبرِ بلفظٍ عامٍّ، وهو ﴿أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾؛ ليندرِجَ فيه كلُّ من أحسَنَ بسائرِ خِصالِ الإحسانِ ممَّا يحتاجُ إلى الصَّبرِ فيه، وما قد لا يحتاجُ، كطَبعِ مَن خُلِقَ كريمًا، فلا يتكَلَّفُ الإحسانَ؛ إذ هو مركوزٌ في طبعِه[2].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، أي: أجرَ أعمالِهم، عدلَ عن الضَّميرِ؛ ليكونَ كالبُرهانِ على المقصودِ، ودليلًا على أنَّ الصَّلاةَ والصَّبرَ إحسانٌ، وإيماءً بأنَّه لا يُعتَدُّ بهما دونَ الإخلاصِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴾

- قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ ﴾ الفاءُ لترتيبِ النَّهْيِ على ما قُصَّ من القصصِ، وبُيِّن في تَضاعيفِها مِن العَواقبِ الدُّنيَويَّةِ والأُخرَويَّةِ[4].

- جُمْلَةُ ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ ﴾ مُستأنَفةٌ؛ تعليلًا لانتفاءِ الشَّكِّ في عاقبةِ أمرِهم في الدُّنيا[5].

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٨).

- وعبَّر عن عبادةِ الآباءِ بالمضارِعِ ﴿يَعۡبُدُ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِهم على تلك العبادةِ؛ أي: إلَّا كما اعتاد آباؤُهم عبادتَهم، والقرينةُ على المُضِيِّ قولُه: ﴿مِّن قَبۡلُ﴾[(١)].

- وقولُه: ﴿لَمُوَفُّوهُمۡ﴾ و﴿نَصِيبَهُمۡ﴾ وارِدٌ على سبيلِ التَّهكُّمِ؛ كأنَّ لهم عَطاءً يَسألونه فوُفُّوه[(٢)].

- قولُه: ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ وقَع حالًا مؤكِّدةً مِن النَّصيبِ؛ لتحقيقِ التَّوفيةِ؛ زيادةً في التَّهكُّمِ، لأنَّ مِن إكرامِ الموعودِ بالعطاءِ أن يُؤكَّدَ له الوعدُ، ويُسمَّى ذلك بالبشارةِ، والمرادُ نَصيبُهم مِن عذابِ الآخرةِ، ومِن فَوائدِه أيضًا: دفْعُ تَوهُّمِ التَّجوُّزِ وجَعلُها مُقيدةً له؛ لِدَفعِ احتمالِ كَونِه مَنقوصًا في حَدِّ نفسِه، مبنيٌّ على الذُّهولِ عن كَونِ العاملِ هو التَّوفيةَ[(٣)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ اعتراضٌ لِتَثبيتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسْليتِه بأنَّ أهْلَ الكتابِ- وهُم أحسَنُ حالًا مِن أهلِ الشِّركِ- قد أُوتوا الكتابَ فاختَلفوا فيه، وهم أهلُ مِلَّةٍ واحدةٍ؛ فلا تأْسَ مِن اختِلافِ قومِك عليك[(٤)].

- قولُه: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ هذا الاختلافُ بأنواعِه وأحوالِه يَرجِعُ إلى الاختلافِ في شيءٍ مِن الكتابِ، فجُمِعَت هذه المعاني جَمعًا بديعًا في تعديَةِ الاختلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٩).

بحَرْفِ (في)، وهي كالمُلابَسةِ، أي: فاختُلِف اختِلافًا يُلابِسُه، أي: يُلابِسُ الكتابَ[١].

- وبُني فعلُ (اختُلِف) للمجهولِ؛ إذ لا غرَضَ إلَّا في ذِكْرِ الفعلِ لا في فاعِلِه؛ لأنَّ الغرَضَ لم يَكُنْ مُتعلِّقًا ببيانِ المختلِفين ولا بذَمِّهم، بل كان للتَّحذيرِ مِن الوقوعِ في مثلِه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تَضمَّنَت هذه الآيةُ عِدَّةَ توكيداتٍ: التَّوكيدَ بـ (إنَّ)، وبـ (كلٍّ)، وباللَّامِ في الخبَرِ وبالقسَمِ، وبـ (ما) إذا كانت زائدةً، وبنونِ التَّوكيدِ وباللَّامِ قبْلَها؛ وذلك مُبالَغةً في وعْدِ الطَّائعِ ووعيدِ العاصي، وأردَفَ ذلك بالجملةِ المؤكِّدةِ، وهي: ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾، وهذا الوصفُ يَقتَضي عِلمَ ما خَفي[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ استئنافٌ وتعليلٌ للتَّوفيَةِ؛ لأنَّ إحاطةَ العلمِ بأعمالِهم مع إرادةِ جَزائِهم تُوجِبُ أن يَكونَ الجزاءُ مُطابِقًا للعمَلِ تمامَ المطابَقةِ؛ وذلك محقَّقُ التَّوفيةِ[٤].

٤- قولُه: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

- في قولِه: ﴿ فَاسْتَقِمْ ﴾ توجيهُ الأمرِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تَنويهًا بشأنِه؛ لِيَبنِيَ عليه قولَه: ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾؛ فيُشيرَ إلى أنَّه المتلقِّي للأوامرِ الشَّرعيَّةِ ابتِداءً، وهذا تنويهٌ له بمقامِ رسالتِه، ثمَّ أعلَم بخِطابِ أُمَّتِه بذلك بقولِه:

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٥).

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾(١).

- قولُه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ فيه تشبيهُ الاستقامةِ المأمورِ بها بما أُمِر به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِكَونِ الاستقامةِ مُماثِلةً لسائرِ ما أُمِر به، وهو تشبيهُ المجمَلِ بالمفصَّلِ في تفصيلِه بأن يَكونَ طِبْقَه، ويَؤُولُ هذا المعنى إلى أن تَكونَ الكافُ في مَعْنى (على)، كما يُقالُ: كُن كما أنت، أي: لا تَتغيَّرْ، ولْتُشْبِهْ أحوالُك المستقبَلةُ حالَتَك هذه(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ في معنى التَّعليلِ للأمْرِ والنَّهيِ(٣).

- وفي قولِه تعالى هنا: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ * وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ * فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال في مثلِ هذا السِّياقِ من سورةِ (الشُّورى): ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ * فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ [الشورى: ١٤- ١٥]؛ ووجهُ ذلك: أنَّه في سورةِ (هودٍ) اكتَفى بالأمرِ بالاستقامةِ على الجادَّةِ، والنَّهيِ عن الطُّغيانِ، ومنه البغيُ الَّذي يورِثُ الاختلافَ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ العِبْرةِ العامَّةِ بقَصصِ الرُّسلِ كافَّةً، لا بحالِ قومِ موسى ومَن أورِثوا الكتابَ خاصَّةً، وأمَّا في سورةِ الشُّورى فأمَرَه أن يَدْعوَ إلى الدِّينِ الذي كان عليه الرُّسلُ في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥١).

عُصورِهم، قبلَ الاختلافِ فيه الَّذي ابتُدِع مِن بَعدِهم، وأن يَستَقيمَ عليه كما أمَرَه اللهُ، وأن يُخاطِبَ أهلَ الكتابِ بما يَتبرَّأُ به مِن الاختلافِ، ومِن إثارتِه بحُججِ الجدالِ؛ فهذا فرقُ ما بين المقامَين في هذه الآياتِ المتشابِهة[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾؛ والرُّكونُ هو الْمَيلُ اليَسيرُ، وقال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: إلى الَّذين وُجِد منهم الظُّلمُ، ولم يَقُلْ: (إلى الظَّالِمين)، وهو أبلَغُ؛ فقد حُكي عن بعضِ السَّلفِ: أنَّه صلَّى خلْفَ الإمامِ فقرَأ بهذه الآيةِ فغُشي عليه، فلمَّا أفاق قيل له، فقال: هذا فيمَن ركَن إلى مَن ظلَم؛ فكيف بالظَّالم[٢]؟!

- لفظةُ: ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ المسُّ كنايةٌ عن الإصابةِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾

- جملةُ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مَسوقةٌ مَساقَ التَّعليلِ للأمرِ بإقامةِ الصَّلواتِ، وتأكيدُ الجملةِ بحَرفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ وتحقيقِ الخبَرِ، و(إنَّ) فيه مُفيدةٌ معنى التَّعليلِ والتَّفريعِ، وهذا التَّعليلُ مُؤْذِنٌ بأنَّ اللهَ جعَل الحسَناتِ يُذْهِبْن السَّيِّئاتِ، والتَّعليلُ مُشعِرٌ بعُمومِ أصحابِ الحسَناتِ؛ لأنَّ الشَّأنَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢١).

أن تكونَ العِلَّةُ أعَمَّ مِن المعلولِ مع ما يَقتَضيه تعريفُ الجمعِ باللَّامِ مِن العمومِ[١].

- وخَصَّ الذَّاكرينَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهم المُنتَفِعونَ بالذِّكرى[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه الرجوعُ إلى التَّذكيرِ بالصَّبرِ بعدَما جاء بما هو خاتِمةٌ للتَّذكيرِ، وهذا الرجوعُ لِفَضلِ خُصوصيَّةٍ ومَزيَّةٍ، وتَنبيهٌ على مَكانِ الصَّبرِ ومَحلِّه، كأنَّه قال: (وعَليك بما هو أهَمُّ ممَّا ذُكِّرتَ به، وأحَقُّ بالتَّوصيَةِ، وهو الصَّبرُ على امتِثالِ ما أُمِرتَ به والانتهاءُ عما نُهيتَ عنه)؛ فلا يَتِمُّ شيءٌ منه إلَّا به[٣].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ حرفُ التَّأكيدِ (إنَّ) مَجلوبٌ للاهتمامِ بالخبَرِ، وسُمِّي الثَّوابُ أجْرًا؛ لوُقوعِه جَزاءً على الأعمالِ ومَوعودًا به؛ فأشبَهَ الأجرَ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٢).

الآيات (١١٦-١١٩)

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ
١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧ وَلَوْ شَآءَ
رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ
خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١١٩﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾: أي: ذوو فَضلٍ ودينٍ وعِلمٍ، وسُمِّى الفضلُ (بقيةً)؛ لأنَّ الرجلَ يَستَبقي مِمَّا يُخرِجُه أجوَدَه وأفضَلَه، فصار لفظُ (البقيَّةِ) مثلًا في الجَودةِ والفَضلِ، وأصلُ (بقي): يدلُّ على الدَّوامِ[١].

﴿أُتْرِفُواْ﴾: أي: أُعطوا من الأموالِ ونُعِّموا؛ مِن التَّرَف: وهو السَّعةُ والنَّعيمُ[٢].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى: فهلَّا وُجِدَ مِن القُرونِ الماضيةِ بقايا مِن أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ، ينهونَ أهلَ الكُفرِ عن كُفرِهم، وعن الفَسادِ في الأرضِ، لم يُوجَدْ من أولئك الأقوامِ إلَّا قليلٌ ممَّن آمنَ، فنجَّاهم الله بسبَبِ ذلك مِن عذابِه حين أخذ الظَّالمينَ، واتَّبع عامَّتُهم -من الذين ظَلَموا أنفُسَهم- ما مُتِّعوا فيه مِن لذَّاتِ الدُّنيا ونعيمِها،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٥).

وكانوا مُجرمينَ ظالمينَ باتِّباعِهم ما تنعَّموا فيه، فحقَّ عليهم العذابُ.

وما كان ربُّك -يا مُحمَّدُ- لِيُهلِكَ قريةً مِن القرى وأهلُها مُصلِحونَ في الأرضِ، مُجتَنِبونَ للفَسادِ والظُّلمِ، ولو شاء ربُّك لجعل النَّاسَ كُلَّهم جماعةً واحدةً على دينٍ واحدٍ، وهو دينُ الإسلامِ، ولكنَّه سُبحانَه لم يشأْ ذلك، فلا يزالُ النَّاسُ مُختلفينَ في أديانِهم، إلَّا مَن رَحِمَ ربُّك فآمَنوا به واتَّبَعوا رُسُلَه، فإنَّهم لا يختَلِفونَ في توحيدِ اللهِ وما جاءت به الرُّسُلُ مِن عندِ الله، وقد اقتَضَت حِكمتُه سُبحانه وتعالى أنَّه خَلقَهم مُختَلفينَ: فريقٌ شَقيٌّ وفريقٌ سعيدٌ، وكلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِقَ له، وبهذا يتحقَّقُ وعدُ رَبِّك في قضائِه وقَدَرِه: أنَّه سُبحانَه سيملأُ جهنَّمَ مِن الجِنِّ والإنسِ الذين اتَّبَعوا إبليسَ وجُندَه ولم يَهتَدوا للإيمانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ الأممَ المتقَدِّمينَ حَلَّ بهم عذابُ الاستِئصالِ؛ بيَّنَ أنَّ السَّببَ فيه أمرانِ: السَّببُ الأوَّل: أنَّه ما كان فيهم قومٌ ينهَونَ عن الفَسادِ في الأرضِ، والسَّببُ الثَّاني: قولُه: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى إهلاكَ الأُممِ المكَذِّبةِ للرُّسُل، وأنَّ أكثَرَهم مُنحَرِفونَ، حتى أهلَ الكُتُبِ الإلهيَّة، وذلك كلُّه يقضي على الأديانِ بالذَّهابِ والاضمحلالِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٩).

ذكَرَ أنَّه لولا أنَّه جعلَ في القُرونِ الماضيةِ بقايا من أهلِ الخَيرِ يَدعُونَ إلى الهُدى، ويَنهَونَ عن الفَسادِ والرَّدَى، فحصل مِن نَفْعِهم ما بقِيَت به الأديانُ، ولكنَّهم قليلون جِدًّا، وغايةُ الأمرِ أنَّهم نَجَوا باتِّباعِهم المُرسَلين، وقيامِهم بما قاموا به مِن دينِهم، وبكونِ حُجَّةِ الله أجراها على أيديهم(١).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: فهلَّا وُجِدَ من أهلِ القُرونِ الماضيةِ- الذين أهلَكْناهم بذُنوبِهم ممَّن قصَصْتُ عليك يا محمَّدُ نبأهم في هذه السُّورةِ- بقايا مِن أصحابِ العُقولِ والإيمانِ والخَيرِ، يَنهَونَ النَّاسَ عن الفَسادِ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي(٢).

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

أي: لكن قليلًا مِن أولئك كانوا يَنهَونَ عن الفَسادِ في الأرضِ، وهم أتباعُ الرُّسُلِ الذين أنجاهم اللهُ تعالى من الهَلاكِ(٣).

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾.

أي: واتَّبَعَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم من الأمَمِ الماضيةِ ما نُعِّموا فيه من لذَّاتِ الدُّنيا، وانشغلوا به، وآثَرُوه على الآخرةِ(٤).

﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٢٧، ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣).

أي: وكان الظَّالِمونَ المُترَفونَ مُجرمينَ باكتسابِ الكُفرِ والمعاصي، فاستحَقُّوا عِقابَ اللهِ(١).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا لاح بما مضَى أنَّ العِبرةَ في الإهلاكِ والإنجاءِ للأكثَرِ؛ قرَّرَه وأكَّدَه وبيَّنَه(٢).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾.

أي: وما كان ربُّك- يا محمَّدُ- ليُهلكَ أهل القرى بظلمٍ منه لهم، والحالُ أنَّ أهلَها مُصلِحونَ في أعمالِهم؛ فاللهُ تعالى لم يُهلِكْ قَريةً إلَّا وهي ظالِمةٌ لنَفسِها(٣).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٦، ١٨٧).
قال ابن جرير: (وقد قيل: معنى ذلك: لم يكن ليُهلِكَهم بشِركِهم بالله، وذلك قولُه: ﴿بِظُلْمٍ﴾، يعني: بشِركٍ، وأهلُها مُصلحون فيما بينهم لا يتظالَمون، ولكنَّهم يتعاطَونَ الحَقَّ بينهم، وإن كانوا مُشركين، وإنَّما يُهلِكُهم إذا تظالَموا). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٤).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان النَّعيُ على الأُمَمِ الذين لم يقعْ فيهم من يَنهَونَ عن الفَسادِ، فاتَّبَعوا الإجرامَ، وكان الإخبارُ عن إهلاكِهم بأنَّه ليس ظُلمًا مِن اللهِ، وأنَّهم لو كانوا مُصلِحينَ لَما أُهلِكوا، لَمَّا كان ذلك كلُّه قد يثيرُ توهُّمَ أنَّ تعاصيَ الأمَمِ عمَّا أراد اللهُ منهم خروجٌ عن قبضةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ؛ أعقَبَ ذلك بما يرفَعُ هذا التوهُّمَ بأنَّ اللهَ قادِرٌ أن يجعَلَهم أمَّةً واحدةً متَّفِقةً على الحَقِّ، مُستمِرَّةً عليه كما أمَرَهم أن يكونوا(١).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

أي: ولو شاء ربُّك- يا محمَّدُ- لجعل جميعَ النَّاسِ على ملَّةٍ واحدةٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١).

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

أي: ولا يزالُ النَّاسُ مُختَلفينَ في أديانِهم ومذاهِبِهم وآرائِهم[١].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أشعَرَ الاختلافُ بأنَّه اختلافٌ في الدِّينِ، وأنَّ معناه العدولُ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ -لأنَّ الحَقَّ لا يقبَلُ التعدُّدَ والاختلافَ- عقَّبَ عمومَ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ باستثناءِ مَن ثَبَتوا على الدِّينِ الحَقِّ ولم يُخالِفوه، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

أي: إلَّا مَن رَحِمَهم اللهُ، فهداهم إلى الإيمانِ به، واتِّباعِ رُسُلِه؛ فإنَّهم لا يختَلِفونَ فيما جاءهم مِن عندِ ربِّهم[٣].

عن عوفِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((افترَقت اليهودُ على إحدى وسبعينَ فِرقةً؛ فواحدةٌ في الجنَّةِ، وسبعونَ في النَّارِ، وافترَقت النَّصارى على ثِنتَينِ وسبعين فِرقةً؛ فإحدى وسبعونَ في النَّارِ، وواحِدةٌ في الجنَّةِ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيَدِه لتفترِقنَّ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ فِرقةً؛ واحدةٌ في الجنَّةِ، وثِنتانِ وسَبعون في النَّارِ، قيل: يا رسولَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

من هم؟ قال: الجماعةُ))[١].

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

أي: وللاختلافِ بالشَّقاءِ والسَّعادةِ خَلَقَهم، فخلَقَ قومًا للاختلافِ والشَّقاءِ، وقَومًا للرَّحمةِ والسَّعادةِ، وذلك بحسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه عزَّ وجلَّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وعن ابنِ مسعود رضي الله عنه، قال: ((حدَّثنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المصدوقُ: إنَّ أحَدَكم يُجْمَعُ خَلْقُه في بطنِ أُمِّه أربعينَ يومًا، ثُمَّ يكونُ في ذلك عَلَقَةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يكونُ في ذلك مُضغةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يُرسَلُ الملَكُ فينفخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ: بكَتْبِ رِزْقِه، وأجَلِه، وعملِه، وشقِيٌّ أو سعيدٌ))[٣].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: وتمَّ أمرُ اللهِ ونفَذَ قضاؤُه بما سبقَ في عِلمه ليَمْلأنَّ جهنَّم ممَّن يستحِقُّها

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٦٣)، والطبراني (١٨/ ٧٠) (١٢٩).
قال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٣٦): إسنادُه لا بأسَ به، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((الباعث على الخلاص)) (١٧)، ووثَّق رجالَه السخاوي في ((الأجوبة المرضية)) (٢/ ٥٧١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٩٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٠، ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٣٦) و(٨/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٢٠).
وممن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ تيميةَ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والحسنُ، وعطاءٌ، ومالكُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٧-٦٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) مسلم (٢٦٤٣).

من الجِنِّ والإنسِ أجمعينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانه مخاطبًا إبليسَ: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((احتجَّت النَّارُ والجنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارون والمتكَبِّرون، وقالت هذه: يَدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ، فقال الله عزَّ وجلَّ لهذه: أنتِ عذابي أُعَذِّبُ بكِ من أشاء- وربَّما قال: أصيبُ بكِ من أشاء- وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحمُ بكِ من أشاء، ولكلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها))(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه تنبيهٌ لهذه الأمَّةِ، وحَضٌّ لها على تغييرِ المُنكَرِ(٣)، وأن يكون فيهم بقايا مُصلِحون لِما أفسَدَ النَّاسُ، قائِمونَ بدِينِ اللهِ؛ يدعونَ من ضلَّ إلى الهُدى، ويَصبِرون منهم على الأذى، ويُبَصِّرونَهم مِن العَمى(٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٩) ومسلم (٢٨٤٦)، واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩١).

فيه أنَّه تعالى لا يُهلِكُ أهلَ القُرى بمجَرَّدِ كَونِهم مُشرِكينَ، إذا كانوا مُصلِحينَ في المُعاملاتِ فيما بينهم، بل إنَّما يُنزِلُ ذلك العذابَ إذا أساؤوا في المُعاملات وسَعَوا في الإيذاءِ والظُّلم[١]، وذلك على أحدِ أوجهِ تأويلِ الآيةِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ الاختلافُ المذمومُ المحَذَّرُ منه هو الاختلافُ في أصولِ الدِّينِ الذي يترتَّبُ عليه اعتبارُ المخالفِ خارجًا عن الدِّينِ، وإن كان يزعُمُ أنَّه مِن متَّبِعيه، فإذا طرأ هذا الاختلافُ وجبَ على الأمَّةِ قَصمُه، وبَذلُ الوُسعِ في إزالتِه مِن بينهم بكُلِّ وسيلةٍ مِن وسائلِ الحَقِّ والعدلِ، بالإرشادِ والمُجادَلة الحَسَنة والمُناظَرة، فإنْ لم يَنجَعْ ذلك فبالقِتالِ، كما فعل أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه في قتالِ العَرَبِ الذين جَحَدوا وجوبَ الزَّكاةِ، وكما فعل عليٌّ رَضِيَ الله عنه في قِتالِ الحَرُوريَّة الذين كفَّروا المُسلمينَ، وهذه الآيةُ تحذيرٌ شديدٌ من ذلك الاختلافِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في تعقيبِ هذه الآيةِ لآيةِ الصَّبرِ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّبرَ على الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَر، في الذِّروةِ العُليا[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في هذا تنويهٌ بأصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٩٩).

أولو بقيَّةٍ مِن قُريشٍ، يَدعونَهم إلى الإيمانِ حتى آمنَ كُلُّهم، وأولو بقيَّةٍ بين غيرِهم من الأُمَم الذين اختَلَطوا بهم، يدعونَهم إلى الإيمانِ والاستقامةِ بعد الدُّخولِ فيه، ويُعَلِّمونَ الدِّينَ، كما قال تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1] [آل عمران: ١١٠].

٣- الاختلافُ في كتابِ الله على وجهين:

أحدُهما: أن يكونَ كلُّه مذمومًا، كقولِه: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

والثاني: أن يكونَ بعضُهم على الحقِّ، وبعضُهم على الباطلِ، كقولِه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. لكن إذا أُطلِق الاختلافُ، فالجميعُ مذمومٌ، ومِن ذلك قولُه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ...﴾[2].

٤- إن قيل: ظاهرُ قوله تعالَى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يتعارضُ مَعَ قولِه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالجوابُ عن هذا: أنَّ الإرادةَ في قولِه: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إرادةٌ كونيةٌ قدريةٌ، والإرادةُ في قولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادةٌ شرعيةٌ دينيةٌ، فبيَّن في قولِه: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؛ أنَّه أراد بإرادتِه الكونيةِ القدريةِ صيرورةَ قومٍ إلى السعادةِ، وآخرين إلى الشقاوةِ، وبيَّن بقولِه: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنه يريدُ العبادةَ بإرادتِه الشرعيةِ الدينيةِ مِن الجنِّ والإنسِ، فيوفِّق مَن شاء بإرادتِه الكونيةِ فيعبده، ويخذلُ مَن شاء فيمتنع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٨).

مِن العبادةِ، وقيل غيرُ ذلك[١].

٥- لا تجِدُ اتِّفاقًا وائتلافًا إلَّا بسبَبِ اتِّباعِ آثارِ الأنبياءِ مِن القُرآنِ والحَديثِ، وما يَتبعُ ذلك، ولا تجِدُ افتراقًا واختلافًا إلَّا عند مَن ترَكَ ذلك، وقدَّمَ غيرَه عليه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فأخبَرَ أنَّ أهلَ الرَّحمةِ لا يَختلِفونَ، وأهلُ الرَّحمةِ هم أتباعُ الأنبياءِ قولًا وفِعلًا، وهم أهلُ القرآنِ والحديثِ مِن هذه الأمَّةِ، فمَن خالَفَهم في شيءٍ فاته مِن الرَّحمةِ بقَدرِ ذلك[٢].

٦- أهلُ الإشراكِ مُتفرِّقون، وأهلُ الإخلاصِ متَّفِقونَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فأهلُ الرَّحمةِ مُتَّفِقون مُجتَمِعونَ، والمُشرِكونَ فَرَّقوا دينَهم، وكانوا شِيَعًا[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ قال قتادةُ: (أهلُ رَحمةِ اللهِ أهلُ الجَماعةِ، وإن تفَرَّقت ديارُهم وأبدانُهم، وأهلُ مَعصيتِه أهلُ فُرقةٍ، وإن اجتَمَعت دِيارُهم وأبدانُهم)[٤].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ[٥].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ صريحٌ بأنَّ اللهَ تعالى خلقَ أقوامًا للجنَّةِ والرَّحمةِ، فهداهم ووفَّقَهم لأعمالِ أهلِ الجنَّةِ، وخلقَ أقوامًا للضَّلالةِ والنَّار، فخَذَلهم ومنَعَهم من الهدايةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٨٦).

١٠- في قولِه تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ بيانُ الكلامِ الكونيِّ، ويُقابِلُه الكلامُ الدينيُّ، كقولِه تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾(١) [التوبة: ٦].

١١- اتَّفقَ العُلَماءُ على أنَّ كفَّارَ الجِنِّ يَدخُلونَ النَّارَ، كما أخبَرَ الله بذلك في قولِه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ فيه الإتيانُ بفاءِ التَّفريعِ؛ لأنَّه في موقعِ التَّفصيلِ والتَّعليلِ لِجُملةِ ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢] وما عُطِف عليها، كأنَّه قيل: (وإنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوفِّيَنَّهم ربُّك أعمالَهم؛ فلَولا كان مِنهم بَقيَّةٌ ينهَوْن عن الفسادِ في الأرضِ...) إلى آخرِه، أي: فاحْذَروا أن تَكونوا كما كانوا، فيُصيبَكم ما أصابَهم، وكُونوا مُستَقيمين ولا تَطْغَوا، ولا تَرْكَنوا إلى الظَّالِمين، وأقيموا الصَّلاةَ، فغيَّر نَظْمَ الكلامِ إلى هذا الأسلوبِ الَّذي في الآيةِ؛ لِتَفنُّنِ فَوائدِه ودَقائقِه، واستقلالِ أغراضِه، مع كونِها آيِلَةً إلى غَرَضٍ يَعُمُّها، وهذا مِن أبدَعِ أساليبِ الإعجازِ الَّذي هو كَرَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ مِن غَيرِ تَكلُّفٍ، ولا ظُهورِ قَصدٍ(٣).

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٣).

- وفيه إطلاقُ البقيَّةِ على الفضلِ؛ وهي كنايةٌ غَلَبَت فسارَت مَسْرى الأمثالِ؛ لأنَّ شأنَ الشَّيءِ النَّفيسِ أنَّ صاحِبَه لا يُفرِّطُ فيه(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

- صيغةُ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾ تَدُلُّ على قوَّةِ انتفاءِ الفعلِ؛ وأصلُ هذا التَّركيبِ في الكلامِ: ما كان فُلانٌ فاعِلًا كذا، فلمَّا أُريدَتِ المبالغةُ في النَّفيِ عُدِلَ عن نفْيِ الفعلِ إلى نفْيِ المصدَرِ الدَّالِّ على الجنسِ، وجُعِلَ نفْيُ الجنسِ عن الشَّخصِ بواسِطَةِ نَفْيِ الاستحقاقِ؛ فصار التَّركيبُ: ما كان له أن يَفعَلَ(٢).

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُهْلِكَ﴾ لِتَأكيدِ النَّفيِ(٣)، وهي لامُ الجُحودِ؛ لِقَصدِ المبالَغةِ في النَّفيِ، بحيث يُنفَى أن يَكونَ وُجودُ المسنَدِ إليه مَجعولًا لأجْلِ فِعْلِ كذا، أي: فهو بَريءٌ منه بالأصلِ؛ ولذلك سُمِّيَت جُحودًا(٤).

- وتَنكيرُ ﴿بِظُلْمٍ﴾؛ للتَّفخيمِ، والإيذانِ بأنَّ إهلاكَ المصلِحين ظُلْمٌ عظيمٌ، والمرادُ: تنزيهُ اللهِ تعالى عن ذلك بالكُلِّيَّةِ بتَصْويرِه بصورةِ ما يَستَحيلُ صُدورُه عنه تعالى(٥).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، وفي سورةِ (القَصصِ) قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٨٦) و(٣/ ٢٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٧).

﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، فقال في أُولَى الآيتَينِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَمَا كُنَّا﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ آية (هودٍ): ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ بإضافةِ اسْمِ الرَّبِّ جلَّ وتعالى إلى ضميرِ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المخاطَبِ بهذه؛ مُلاطَفةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأنيسًا له ولأُمَّته، وإشعارًا بعظيم حَظْوَته ومَنزِلته لدَيه سبحانَه، ثمَّ أتبَع تعالى هذا بقولِه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]؛ فأخبَرَ تعالى أنَّه ما أهلَكَهم إلَّا بعدَ استِحْقاقِ جَميعِهم العذابَ وتَساويهم في الظُّلم، وقيل في هذه الآيةِ الأخيرةِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾؛ لئلَّا يتكرَّرَ اللَّفظُ بعينِه مع الاتِّصالِ والقربِ وليس مِن مَواضِعِه[1].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا قولُه هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، وقال في سورةِ (القَصصِ): ﴿مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، و﴿مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [القصص: ٥٩]؛ فاختصَّتِ الآيةُ الَّتي في سورةِ (هودٍ) بلَفظِ الفعلِ في خبَرِ كان، والأُخرَيانِ بالاسْمِ وهو (مُهْلِكَ)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللَّامَ في قولِه ﴿لِيُهۡلِكَ﴾ تُسمَّى لامَ الجُحودِ، ولا تَخْلو منه، فالمعنى: لم يَكُنْ فيما مضى يقَعُ منِّي هذا الفعلُ، ولا يقَعُ فيما يُستقبَلُ ولا في الحالِ، وإذا كان كذلك وكان هذا نهايةَ ما يُخاطِبُ به العرَبُ في نفْيِ الفعلِ، وامتِناعِ وُقوعِه، خصَّه اللهُ تعالى بالمكانِ الَّذي لا يقَعُ ذلك مِنه أبدًا، ولم يقَعْ منه قَطُّ، وهو أنَّه لم يَكُنْ فيما مَضى يُهلِكُ القرى ظالِمًا لها مع صلاحِ أهلِها، ولا يَفعَلُه، ولا يَليقُ بعَدلِه، وهو مُنزَّهٌ عنه تعالى اللهُ عن ذلك.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، فإنَّه

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

لم يَكُنْ فيها صريحُ ظُلمٍ يُنسَبُ إليه، ولم يَكُنْ مَلفوظًا به، فيُؤتى باللَّفظِ الأبلَغِ في نفْيِه، كما كان في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، فإنَّه أبلَغُ في الانتفاءِ مِن الظُّلمِ[(١)].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه جيءَ بالفعلِ في قولِه: ﴿لِيُهْلِكَ﴾ إشارةً إلى التَّكرُّرِ بحسَبِ ما يَكونُ منهم؛ فلو كان في كلِّ أمَّةٍ وقَرْنٍ بعدَ قرنٍ مَن يَنهى عن الفسادِ والظُّلمِ، لَمَا أخَذ بِذَوي الظُّلمِ منهم، ولكان تعالى يَدْفَعُ بعضَهم عن بعضٍ، ولكنْ تَكرَّرَ الفسادُ وعَمَّ كلَّ قرنٍ، فتكرَّر عليهم الجزاءُ والأخذُ، فأشار الفعلُ إلى التَّكرُّرِ، ولم يَكُنِ الاسمُ لِيُعطِيَ ذلك، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]، ولَم يَقُلْ: (وقابِضاتٍ)؛ لِمَا قصَده مِن مَعنى التَّكرُّرِ، وأمَّا قولُه في سورةِ (القصصِ): ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]؛ فإنَّه تَقدَّم هذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]، أي: أَتْبَعْنا ووالَيْنا التَّذكارَ، ويَشهَدُ له قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فلمَّا أعلَم سبحانه تَتابُعَ التَّذكارِ وتَعاقبُ الإنظارِ، قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]، وناسب هذا ذِكْرَ اسْمِ الفاعلِ؛ لأنَّه قصَد ذِكْرَ الاتِّصافِ بهذا، ولم يَقصِدِ التَّكرُّرَ، ولم يَكُنْ حاصِلَه[(٢)].

- ومن المناسَبةِ الحسَنةِ كذلك: قولُه أيضًا في الأولى: ﴿مُصْلِحُونَ﴾ وفي الثَّانيةِ: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾، وفي الثَّالثةِ: ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ لأنَّ آيةَ هودٍ تَقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٨٣-٧٨٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦]، أي: فهلَّا كان مِنهم خِيارٌ ينهَوْن عن الفسادِ والظُّلم؛ فلو كان مِنهم ذلك لَما هلَكوا، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]، أي: ما كان لِيَفعَلَ بهم ذلِك وإنْ وقَع منهم ظُلمٌ، إذا كان فيهم مُغيِّرٌ للظُّلمِ وناهٍ عن الفسادِ، ولكنَّهم كانوا كما أخبَر تعالى عن المعتَدِين مِن بَني إسرائيلَ في قولِه تعالى عنهم: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾[1] [المائدة: ٧٩].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ حُذِفَ مفعولُ فِعْلِ المشيئةِ؛ لأنَّ المرادَ منه ما يُساوي مَضْمونَ جَوابِ الشَّرطِ؛ فحُذِف إيجازًا، والتَّقديرُ: ولو شاء ربُّك أن يَجعَلَ النَّاسَ أمَّةً واحدةً لجعَلهم كذلك[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ ﴾ أي: قَبيلِ الجِنِّ، قيل: قدَّمَهم لأنَّهم أصلٌ في الشَّرِّ، ثمَّ عَمَّ فقال: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[3]، ويحتمِلُ أنَّه قدَّمهم لسبقِهم في الخلقِ.



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١٢/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٠٣).

الآيات (١٢٠-١٢٣)

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ونَقصُّ عليك- أيُّها النَّبيُّ- من أخبارِ الرُّسُلِ- الذين كانوا قَبلَك- كلَّ ما تحتاجُ إليه ممَّا يُقوِّي قَلبَك للقيامِ بأعباءِ الرِّسالةِ، وقد جاءك في هذه السُّورةِ وما اشتَمَلت عليه من أخبارٍ بيانُ الحقِّ الذي أنت عليه، ومَوعِظةٌ مِن اللهِ- يتَّعظ بها المؤمنون إذا سَمِعوا فيها ما نزَل بالأُمَم مِن العذابِ- وتذكيرٌ للمؤمنينَ، وقُلْ -يا محمَّدُ- للكافرينَ الذين لا يُقرُّونَ بوحدانيَّةِ اللهِ: اعمَلوا ما أنتم عامِلونَ، على حالتِكم وطريقَتِكم في مقاومةِ الدَّعوةِ، وإيذاءِ الرَّسولِ والمُستَجيبينَ له، فإنَّا عامِلونَ على مكانَتِنا وطريقَتِنا مِن الثَّباتِ على دينِنا، وتَنفيذِ أمرِ اللهِ، وانتَظِروا عاقِبةَ أمرِنا؛ فإنَّا مُنتَظِرونَ عاقِبةَ أمرِكم، ولله سُبحانَه وتعالى عِلمُ كُلِّ ما غاب في السَّمَواتِ والأرضِ، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كلُّه يومَ القيامةِ، فاعبُدْه -أيُّها النبيُّ- وفوِّضْ أمرَك إليه، وما ربُّك بغافِلٍ عمَّا تعملونَ مِن الخيرِ والشَّرِّ، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى في هذه السُّورةِ مِن أخبارِ الأنبياءِ ما ذكَرَ؛ ذكَرَ الحِكمةَ في ذِكرِ ذلك(١)، فقال:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾.

أي: ونَقُصُّ عليك- يا مُحمَّدُ- كلَّ ما تحتاجُ إلى مَعرفتِه مِن أخبارِ الرُّسُلِ المتقَدِّمينَ؛ ما نُثَبِّتُ به قَلبَك، فتزدادُ إيمانًا ويقينًا وصبرًا على تكذيبِ قَومِك، كما صبَرَ المُرسَلونَ مِن قَبلِك(٢).

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾.

أي: وجاءك- يا مُحمَّدُ- في هذه السُّورةِ الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه(٣).

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وجاءَك في هذه السورةِ أيضًا مَوعِظةٌ مِن اللهِ يتَّعظ بها المؤمنون إذا سَمِعوا فيها ما نزَل بالأُمَم مِن العذابِ، ويَحترِزونَ عمَّا أهلكها، فتلينُ قلوبُهم لسلوكِ الحقِّ- وتذكيرٌ للمؤمنينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٣).

وممن قال بأنَّ الموعظةَ والذكرى كلاهما للمؤمنينَ: الواحدي وابنُ الجوزي، وابنُ عطية،

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالغَ تعالى في الإعذارِ والإنذارِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ أتبَعَ ذلك بالتَّهديدِ والوَعيدِ[1].

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠]؛ لأنَّها لَمَّا اشتَمَلت على أنَّ في هذه القِصَّةِ ذِكرى للمُؤمنين؛ أُمِرَ بأن يُخاطِبَ الذين لا يُؤمِنونَ بما فيها خطابَ الآيسِ مِن انتفاعِهم بالذِّكرى، الذي لا يعبأُ بإعراضِهم، ولا يصُدُّه عن دَعوتِه إلى الحَقِّ تألُّبُهم على باطِلِهم، ومقاومتُهم الحَقَّ[2].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ- للذين لا يُقِرُّونَ بتوحيدِ اللهِ، ولا يصدِّقونَك: اعمَلوا على طَريقتِكم وحالتِكم التي أنتم عليها، متمَكِّنينَ مِن العمَلِ الذي تعملونَه، إنَّا مُستَمِرُّونَ على العمَلِ بمَنهجِنا الذي أمَرَنا اللهُ به[3].

والقرطبي، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: المصادر السابقة.
وقال ابن جرير: (وجاءَك موعظةٌ تَعِظُ الجاهلينَ بالله). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٧).
وقال ابنُ كثيرٍ: (وموعظةٌ يرتَدِعُ بها الكافرونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢ ﴾.

أي: وانتَظِروا ما يحُلُّ بنا من رحمةِ اللهِ، إنَّا مُنتَظِرونَ ما وعدَنا اللهُ مِن عُقوبتِكم ونَصْرِنا عليكم(١).

كما قال تعالى حكايةً عن شُعَيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾ [هود: ٩٣].

﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: ولله مُلكُ كُلِّ ما غاب عن عبادِه في السَّموات والأرضِ، وهو العالِمُ بكُلِّ ما فيهما من الخَفايا والغُيوبِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [فاطر: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨].

﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

أي: وإلى الله وَحْدَه مَرجِعُ كُلِّ عاملٍ وعَمَلِه، فيُجازيهم يومَ القيامةِ على جميعِ أعمالِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾.

أي: فاعبُدِ اللهَ وَحدَه -يا محمَّدُ- وفوِّضْ إليه جميعَ أمورِك، واستَعِنْ به[(٢)].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: وما ربُّك- يا محمَّدُ- بغافلٍ عمَّا تَعملونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازي كلَّ واحدٍ بعَمَلِه[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه أنَّ سَماع أخبارِ الأخيارِ فيه تقويةٌ للعزائمِ، وإعانةٌ على اتِّباعِ تلك الآثارِ؛ فإنَّ النفوسَ تأنسُ بالاقتداءِ، وتنشطُ على الأعمالِ، وتريدُ المنافسةَ لغيرِها، ويتأيَّد الحقُّ بذكرِ شواهدِه، وكثرةِ مَن قام به[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ تضمَّنَت الآيةُ الاعتبارَ مِن قَصَصِ الرُّسُل، بما فيها مِن حُسنِ صَبرِهم على أُمَمِهم، واجتهادِهم على دُعائِهم إلى عبادةِ الله بالحَقِّ، وتذكير الخيرِ والشَّرِّ، وما يدعو إليه كلٌّ منهما مِن عاقبةِ النَّفعِ والضُّرِّ؛ للثَّباتِ على ذلك جميعِه اقتداءً بهم[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ اشتَمل على خمسِ جُملٍ: الجملةُ الأولى: دلَّت على أنَّ عِلمَه محيطٌ بجميعِ الكائناتِ؛ كُلِيِّها وجُزئيِّها، حاضِرِها وغائِبِها؛ لأنَّه إذا أحاط عِلمُه بما غاب فهو بما حضر مُحيطٌ؛ إذ عِلمُه تعالى لا يتفاوَتُ. والجُملةُ الثانية: دلَّت على القُدرةِ النَّافذة والمَشيئة. والجملة الثالثة: دلَّت على الأمرِ بإفرادِ مَن هذه صِفاتُه، بالعبادةِ الجسَديَّة والقَلبيَّة، والجملة الرابعة: دلَّت على الأمرِ بالتوكُّلِ. والجملة الخامسة: تضمَّنَت التنبيهَ على المجازاة، فلا يُضيعُ طاعةَ مُطيعٍ، ولا يُهمِلُ حالَ متمَرِّدٍ[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ التوكُّلُ لا يصِحُّ بغير العبادةِ، والأخذِ بالأسبابِ المُستطاعةِ، وإنَّما يكونُ بدونِهما من التمنِّي الكاذبِ، والآمالِ الخادعةِ، كما أنَّ العِبادةَ- وهي ما يُرادُ به وَجهُ اللهِ مِن كُلِّ عَملٍ- لا تَكمُلُ إلَّا بالتوكُّلِ الذي يَكمُلُ به التَّوحيدُ[٣]، فصلاحُ العبدِ وسعادتُه في تحقيقِ معنى قولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقد جمَع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضعَ من كتابِه، كقوله عن نبيِّه شعيبٍ: ﴿وَمَا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٦٣).

تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٨-٩]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقوله عن الحنفاءِ أتباعِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤] فهذه سبعةُ مواضعَ تنتظمُ هذين الأصلين الجامعين لمعنيى التوحيدِ، اللذين لا سعادةَ للعبدِ بدونهما البتةَ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ ذكَرَ العُلَماءُ في تخصيصِ هذه السورةِ بوَصفِها بالحَقِّ- والقرآنُ كُلُّه حقٌّ- أوجُهًا:

الوجهُ الأولُ: أنَّ ذلك يتضمَّنُ معنى الوعيدِ للكَفَرةِ والتَّنبيهِ للنَّاظر، أي: جاءك في هذه السُّورةِ الحَقُّ الذي أصاب الأُمَمَ الظَّالمة، وهذا كما يُقالُ عند الشَّدائدِ: جاء الحقُّ، وإن كان الحقُّ يأتي في غيرِ شَديدةٍ وغيرِ ما وجهٍ، ولا تستَعملُ في ذلك جاء الحقُّ(٢).

الوجهُ الثاني: خصَّ هذه السُّورةَ؛ لأنَّ فيها أخبارَ الأنبياءِ والجنَّةِ والنَّارِ.

الوجهُ الثالثُ: خصَّها بالذِّكرِ تأكيدًا، وإن كان الحقُّ في كلِّ القُرآنِ، وهذا تشريفٌ لهذه السورة؛ لأنَّ غيرَها من السُّوَرِ قد جاء فيها الحقُّ والموعِظةُ والذِّكرى(٣).

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ * وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ في أمرِ اللهِ رَسولَه بأن يقولَ ذلك على لسانِ المُؤمنين شهادةٌ مِن اللهِ بصِدقِ إيمانِهم، وفيه التَّفويضُ إلى رأسِ الأمَّةِ بأن يقطعَ أمرًا عن أُمَّتِه؛ ثِقةً بأنَّهم لا يردُّونَ فِعلَه(١).

٣- ختم اللهُ سورةَ هودٍ بقولِه تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ﴾ إلى آخِرِها، كما افتتَحها بقولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فذَكَرَ التوحيدَ والإيمانَ بالرُّسُلِ، وهذا فيه بيانُ دينِ اللهِ في الأوَّلِين والآخِرينَ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ تذييلٌ وحَوْصَلةٌ لِمَا تقدَّم مِن أنباءِ القُرى وأنباءِ الرُّسلِ(٣).

- و﴿كُلًّا﴾ منصوبٌ على المفعوليَّةِ للفِعْلِ ﴿نَّقُصُّ﴾، وتَقديمُه على فِعلِه؛ للاهتمامِ، ولِمَا فيه مِن الإبهامِ؛ لِيأتِيَ بَيانُه بعدَه فيكونَ أرسَخَ في ذِهْنِ السَّامعِ(٤).

- قولُه: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ بيانٌ لـ﴿كُلًّا﴾ أو بدَلٌ منه، وفائدتُه: التَّنبيهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على المقصودِ مِن الاقتِصاصِ، وهو زِيادةُ يَقينِه، وطُمأنينَةُ قلْبِه، وثَباتُ نَفْسِه على أداءِ الرِّسالةِ، واحتِمالِ أذى الكفَّارِ[1].

- قولُه: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾؛ لأنَّ المقصودَ بَيانُ مَنافعِ السُّورةِ أو الأنباءِ المقصوصةِ فيها، واشتِمالِها على ما ذُكِر مِن المنافعِ المفصَّلةِ، لا بَيانُ كَوْنِ ذلك فيها لا في غَيرِها، ولأنَّ عِندَ تَأخيرِ ما حَقُّه التَّقديمُ تَبقى النَّفسُ مُترقِّبةً له؛ فيتَمكَّنُ فيها عندَ الوُرود فضْلَ تَمكُّنٍ، ولأنَّ في المؤخَّرِ نَوعَ طُولٍ يُخِلُّ تَقديمُه بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظْمِ الكريمِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ﴾ فيه تنكيرُ الموعظةِ والذِّكْرى؛ للتَّعظيمِ[3].

- قوله: ﴿وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خَصَّ المؤمنينَ؛ لكونِهم المتأهِّلينَ للاتعاظِ والتذكُّرِ، وهم المتَّعِظونَ إذا سَمِعوا قَصَص الأنبياءِ[4].

- قولُه: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ صيغةُ أمرٍ، ومعناه: التَّهديدُ والوعيدُ[5].

- قولُه: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أمرٌ فيه تهديدٌ ووَعيدٌ[6]، مع ما في تأكيدِ الكلامِ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلةِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٤).

وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ كلامٌ جامعٌ، وهو تذييلٌ للسُّورةِ مُؤْذِنٌ بخِتامِها، فهو مِن بَراعةِ المَقطَعِ[١].

- وتقديمُ المجرورَينِ في قولِه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ لإفادةِ الاختصاصِ، وهو تَعريضٌ بفَسادِ آراءِ الَّذين عبَدوا غيرَه؛ لأنَّ مَن لم يَكُنْ كذلك لا يَستحِقُّ أن يُعبَدَ، ومَن كان كذلك كان حَقيقًا بأن يُفْرَدَ بالعبادةِ[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ تعريفُ الجنسِ فيَعُمُّ الأمورَ، وتأكيدُ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ بـ﴿كُلُّهُۥ﴾ للتَّنصيصِ على العُمومِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ في تأخيرِ الأمْرِ بالتَّوكُّلِ عن الأمرِ بالعبادةِ: إشعارٌ بأنَّه لا يَنفَعُ دُونَها[٤].

- وخصَّ التوكل بِالذكر وهو الاسْتِعانَة وهِي من عبَادَة الله؛ ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنَّها هِيَ العونُ على سَائِرِ أنواعِ العبادَةِ؛ إذْ هو سبحانَه لا يُعبدُ إلَّا بمعونتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٩٥-١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٧٥).

- قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا تَقدَّم؛ فإنَّ عدمَ غَفلَتِه عن أيِّ عمَلٍ تَعني أنَّه يُعْطي كلَّ عامِلٍ جَزاءَ عمَلِه؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ؛ ولذلك عُلِّق وصْفُ الغافِلِ بالعمَلِ، ولم يُعلَّقْ بالذَّواتِ نَحْوُ: (بغافِلٍ عَنكُم)؛ إيماءً إلى أنَّ على العمَلِ جزاءً[1].



تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ العاشرُ
ويَليهِ المجلدُ الحادي عشرَ
وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يوسفَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٦).







الفهرس







الفهرس

سورة هود ٧
أسماءُ السورةِ: ٧
بيانُ المكيِّ والمدنيِّ: ٧
مقاصدُ السورةِ: ٧
موضوعاتُ السورةِ: ٨
الآيات (١-٥) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ٩
المعنى الإجماليُّ: ١٠
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ١٩
بلاغةُ الآياتِ: ٢١
الآيتان (٦-٧)................... ٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧
المعنَى الإجماليُّ: ٢٧
تَفسيرُ الآيتَينِ: ٢٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٣٤
بلاغةُ الآيتينِ: ٣٧
الآيات (٨-١١)................. ٣٩
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٩
المعنَى الإجماليُّ: ٣٩
تَفسيرُ الآياتِ: ٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٤٥
بلاغةُ الآياتِ: ٤٦
الآيات (١٢-١٤) ٥١
المعنَى الإجماليُّ: ٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ٥١
الفَوائِدُ التربويَّة: ٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٥٨
بلاغةُ الآياتِ: ٥٩
الآيات (١٥-١٧) ٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ٦٥
المعنَى الإجماليُّ: ٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٧٥
بلاغةُ الآياتِ: ٧٧
الآيات (١٨-٢٤) ٨٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٨٤
المَعنى الإجماليُّ: ٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٩٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ٩٥
بلاغةُ الآياتِ: ٩٧
الآيات (٢٥-٣١) ١٠٧
غريبُ الكَلِماتِ: ١٠٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٠٨
المَعنى الإجماليُّ: ١٠٩
تَفسيرُ الآياتِ: ١٠٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٢٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٢١
بلاغةُ الآياتِ: ١٢٢
الآيات (٣٢-٣٥) ١٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٣٤
المَعنى الإجماليُّ: ١٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ١٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: .. ١٣٨
بلاغةُ الآياتِ: ١٣٩
الآيات (٣٦-٣٩) ١٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ١٤٢
المَعنى الإجماليُّ: ١٤٢
تَفسيرُ الآياتِ: ١٤٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٤٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٤٦
الآيات (٤٠-٤٤) ١٤٩
غريبُ الكَلِماتِ: ١٤٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٥٠
المَعنى الإجماليُّ: ١٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ١٥٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ١٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٥٨
بلاغةُ الآياتِ: ١٥٩
الآيات (٤٥-٤٩) ١٦٧
المعنَى الإجماليُّ: ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٧٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٧٦
بلاغةُ الآياتِ: ١٧٨
الآيات (٥٠-٦٠) ١٨٦

غريبُ الكَلِماتِ: ١٨٦
المعنَى الإجماليُّ: ١٨٧
تَفسيرُ الآياتِ: ١٨٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ١٩٨
الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: .. ١٩٨
بلاغةُ الآياتِ: ٢٠١
الآيات (٦١-٦٨) ٢١٤
غريبُ الكَلِماتِ: ٢١٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٢١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٢٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٢٥
الآيات (٦٩-٧٦) ٢٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٣٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٣٣
المعنَى الإجماليُّ: ٢٣٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ٢٤٤
الآيات (٧٧-٨٣) ٢٥٢
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٥٢
المعنَى الإجماليُّ: ٢٥٤
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٥٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٥٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٦٦
بلاغةُ الآياتِ: ٢٦٩
الآيات (٨٤-٨٦) ٢٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ٢٧٨
المعنَى الإجماليُّ: ٢٧٨
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٧٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٨٤
بلاغةُ الآياتِ: ٢٨٦
الآيات (٨٧-٩٠) ٢٩٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٢٩٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٩٠
المعنَى الإجماليُّ: ٢٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ٢٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٢٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٩٨
بلاغةُ الآياتِ: ٣٠٠
الآيات (٩١-٩٥) ٣٠٤

غريبُ الكَلِماتِ: ٣٠٤
المعنى الإجماليُّ: ٣٠٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣١١
بلاغةُ الآياتِ: ٣١٢
الآيات (٩٦-٩٩) ٣٢٠
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٢٠
المعنى الإجماليُّ: ٣٢٠
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٢٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٢٤
الآيات (١٠٠ - ١٠٨) ٣٣٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ٣٣٠
المعنَى الإجماليُّ: ٣٣١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٣٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٤٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٤٦
الآيات (١٠٩-١١٥).......... ٣٥١
غَريبُ الكلماتِ: ٣٥١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٣٥١
المعنَى الإجماليُّ: ٣٥٢
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٦٩
الآيات (١١٦-١١٩).......... ٣٧٥
غريبُ الكَلِماتِ: ٣٧٥
المعنَى الإجماليُّ: ٣٧٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٧٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٨٣
بلاغةُ الآياتِ: ٣٨٦
الآيات (١٢٠-١٢٣).......... ٣٩١
المعنَى الإجماليُّ: ٣٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ٣٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ٣٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٩٧
بلاغةُ الآياتِ: ٣٩٨
الفهرس ٤٠٥

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠